إيتالو كالفينو

البارون ساكن الأشجار

ثلاثية أسلافنا ٢

ترجمة أماني فوزي حبشي

البارون ساكن الأشجار

تأليف
إيتالو كالفينو

ترجمة
أماني فوزي حبشي

هنـــداوي

البارون ساكن الأشجار

إيتالو كالفينو

Il barone rampante

Italo Calvino

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٨٢ ٧

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإيطالية عام ١٩٥٧.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة أماني فوزي حبشي.

١

كانت المرة الأخيرة التي جلس فيها أخي كوزيمو بيوفاسكو دي راندو معنا هي يوم الخامس عشر من يونيو من عام ١٧٦٧م. أتذكر هذا وكأنه حدث اليوم. كنا في حجرة الطعام في فيلتنا في أومبروزا، والنوافذ تؤطر الفروع الكثيفة لشجرة البلوط الضخمة الواقعة في حديقتنا، وقد انتصف النهار. اعتادت عائلتنا أن تجتمع على مائدة الطعام في تلك الساعة للمحافظة على تقاليد العائلة القديمة، على الرغم من شيوع الموضة القادمة من البلاط الفرنسي — حديثة العهد بين النبلاء — بتناول طعام الغداء في منتصف بعد الظهيرة. وأتذكر أن الرياح كانت تهب من جهة البحر، وتحرك الأوراق. قال كوزيمو: لقد قلت إنني لا أريده، يعني أنني لا أريده! وأزاح من أمامه طبق الحلزون. ولم يحدث قط أن شهدنا تمردًا أشد من هذا.

يجلس البارون أرمينيو بيوفاسكو دي روندو، والدنا، على رأس المائدة مرتديًا باروكته الطويلة، والتي تغطي أذنيه على طراز لويس الرابع عشر، مثل أشياء أخرى كثيرة تخصه، ويجلس بيننا أنا وأخي الأب فوشيلافلور، القائم على توزيع صدقات عائلتنا، ومعلمنا نحن الصبية. وفي المواجهة تجلس الجنرالة كورادنيا دي روندو، والدتنا، وبجوارها أختنا باتيستا، راهبة المنزل. وعلى رأس المائدة من الطرف الآخر يجلس مرتديًا بذلته التركية في مواجهة أبي، الفارس المحامي إينيا سيلفيو كاريجا، مدير ومسئول الري في أراضينا، وهو أيضًا عمنا، حيث إنه أخ والدنا غير الشرعي.

منذ بضعة أشهر، سمحوا لنا؛ نظرًا إلى أن كوزيمو قد أكمل أعوامه الاثني عشر، وأكملت أنا ثمانية أعوام، بالجلوس على المائدة نفسها مع والدينا؛ أو يمكن القول إنني أفدت قبل الأوان من ترقية أخي، لأنهم لم يرغبوا في تركي أتناول غدائي وحدي. وأقول أفدت، وهي مجرد كلمة؛ ففي الواقع انتهت بهذا الوضع متعة الحياة بالنسبة لي وبالنسبة

لكوزيمو، وكنا نتحسر على أيام الغداء في حجرتنا الصغيرة، نحن الاثنان فقط، ومعنا الأب فوشيلافلور.

كان الأب فوشيلافلور مسنًّا ونحيلًا تغطيه التجاعيد، مشهورًا بأنه من أتباع هرطقة جنتسن. وكان بالفعل قد هرب من ديلفيناتو، بلدته الأصلية، ليفر من إحدى محاكمات محاكم التفتيش، ولكن طبعه الصارم، موضع مدح الجميع، وصرامته الداخلية التي يفرضها على نفسه وعلى الآخرين يئولان باستمرار إلى دعوة أساسية لديه باللامبالاة وعدم الاهتمام، وكأن تأملاته الطويلة بعينيه المحدقتين في الفراغ تصيبه بملل شديد، وعدم الرغبة في أي شيء، وأمام أية صعوبة، وإن كانت تافهة، تتراءى له علامات القدر التي لا طائل من مواجهتها.

تبدأ واجباتنا مع الأب عادة بعد صلوات طويلة، بتحريك الملاعق، تحريكًا معتدلًا، في صمت وهدوء، وتبًّا لمن يرفع منا عينيه عن الطبق، أو يتجرأ ويصدر أي صوت عند تناول الحساء، ولكن مع انتهاء الحساء يشعر الأب بالتعب والملل، فيحملق في الفراغ، ويقرقع بلسانه مع كل رشفة نبيذ، وكأن أكثر الأحاسيس سطحية وفناءً هي فقط التي تتمكن من التأثير فيه. عندئذٍ نستطيع أن نأكل وجبتنا الرئيسية بيدينا، وعند انتهاء الوجبة نتقاذف بقايا الكمثرى، في حين لا يفعل الأب شيئًا سوى إصدار إحدى إيماءاته الكسولة ... أوه وماذا بعد! ... أوه ... حسنًا!

أما الآن، فبجلوسنا إلى مائدة الأسرة أخذت تتجسد أمامنا كل الأحقاد العائلية، وبدأ فصل تعيس في طفولتنا. فأمامنا دائمًا والدنا وأمنا، ويجب استخدام أدوات المائدة عند تناول الدجاج؛ وسلسلة من الأوامر: اجلس معتدلًا، وأبعد مرفقيك عن المائدة! وبالإضافة إلى ذلك أختنا السخيفة باتيستا، فلقد بدأت سلسلة من العقاب، والنكاية، الزجر والركل بالأرجل، حتى ذلك اليوم الذي رفض فيه كوزيمو طبق الحلزون، وقرر أن يفصل قدره عن قدرنا.

أدركت كل هذه التراكمات من الحقد العائلي فقط فيما بعد، حيث كان عمري آنذاك ثمانية أعوام فقط، ويبدو كل شيء لي كلعبة، تلك الحرب بيننا نحن الصبية الصغار ضد الكبار، فهي لعبة كل الصبية، ولم أكن أفهم أن عناد أخي وإصراره يضمر شيئًا أعمق بكثير.

بالتأكيد كان البارون والدنا رجلًا مثيرًا للملل ولكنه لم يكن شريرًا؛ مثيرًا للملل لأن حياته تسيطر عليها أفكار غير متناغمة كما يحدث في العصور الانتقالية، فتغير الأزمنة يفرض على الكثيرين الحاجة إلى التغيير أيضًا، ولكن هذا بعكس والدنا تمامًا، فهو بعيد

عن هذا الاتجاه؛ فعلى الرغم من كل ما يحدث حوله في تلك الأثناء، لا يزال هو يفتخر بزعم حصوله على لقب دوق أومبروزا، ولا يفكر في شيء آخر سوى في أصول العائلة وفروعها وفي الخصومات والتحالفات مع القادرين، سواء القريبين أم البعيدين.

ولذلك في منزلنا نعيش دائمًا مثل من هم في التدريبات العامة على دعوة في بلاط، لا أعلم إذا كان بلاط إمبراطورة النمسا، أم بلاط الملك لويس، أو ربما بلاط رجال الجبال. فعندما يُقدم ديك رومي على الغداء، يراقبنا والدنا ليرى هل سنقطعه ونستل لحمه طِبقًا لكل القواعد الملكية أولا، والراهب يكاد لا يقترب منه حتى لا يفطن إليه أحد متلبسًا، وهو الذي عليه أن يساند والدنا في توبيخه لنا. أما عن الفارس المحامي كاريجا فقد اكتشفنا ضميره الزائف؛ فهو يخفي أفخاذ الديك كاملة تحت ثنايا قنباره التركي، ليأكلها قضمًا كما يحلو له وهو مختبئ في الكروم. ولقد أقسمنا (مع أننا لم ننجح قط في ضبطه متلبسًا، نظرًا إلى خفة حركته) أنه يأتي إلى المائدة وجيبه مليء ببقايا عظام خالية من اللحم، ليتركها في طبقه بدلًا من أرباع الديك التي يخفيها كاملة.

لم تكن لأمي الجنرالة أهمية كبيرة؛ لأنها طالما استخدمت الأساليب الحربية الفظة حتى أثناء الطعام: وماذا بعد! هذا قليل! حسنًا! ولم يكن أحد يمكنه أن يخالفها القول، ولكنها معنا تحرص أكثر على النظام من قواعد اللياقة، وتعضد البارون بأوامرها المتأثرة بميدان المعركة: اجلس بهدوء! ونظف فمك! الوحيدة التي تتصرف كما يحلو لها كانت باتيستا، راهبة المنزل، والتي عادة ما تفصص الدجاج بنهم دقيق، نسيرة تلو الأخرى، بنوع من السكاكين المدببة ليس لدى أحد سواها مثلها، سكاكين تشبه مشارط الجراح. ولم يكن البارون، الذي يرغب في جعلها مثلًا لنا، يجرؤ على النظر إليها؛ لأنها تخيفه هو أيضًا بعينيها المحدقتين البارزتين أسفل جناحي غطاء رأسها المنشَّى، وأسنانها المتلاصقة في وجهها الأصفر الذي يشبه وجه الفأر. ويمكن إذن أن ندرك كيف أن المائدة هي المكان الذي تتضح فيه كل المتناقضات، وعدم التناغم أو الانسجام بيننا، وأيضًا يتضح فيه جنوننا ونفاقنا، وكيف أنه في هذا المكان، وعلى هذه المائدة، قرر كوزيمو أن يبدأ ثورته. ولهذا السبب فإنني أطيل في شرحي، فعلى كل حال لن يصبح لهذه الموائد العامرة وجود في حياة أخي، هذا مؤكد.

والمائدة أيضًا كانت المكان الوحيد الذي نلتقي فيه مع الكبار. في بقية النهار تنسحب أمنا وتبقى في غرفتها وتنهمك في شغل الإبرة والتطريز، حيث لم تعرف الجنرالة سوى تلك الأعمال النسوية التقليدية، وفيها فقط تجد متنفسًا لعواطفها الحربية. فأشغال الإبرة والتطريز غالبًا ما تمثل خرائط جغرافية، وعندما تبسطها على الوسائد أو ستائر من

السجْف وتحدد أمنا النقاط فيها بالدبابيس والأعلام الصغيرة، مشيرة بذلك إلى خطط معارك حروب الخلافة، والتي تحفظها عن ظهر قلب، أو تطرز أشكال مدافع ومسار القذائف النارية من فوهتها، وتطرز معها مساند المدفع وزوايا الإطلاق، لأنها متمكنة جدًّا في كل ما يتعلق بالقذائف، بل كانت لديها مكتبة أبيها الجنرال كلها، بما فيها من أبحاث عن الفنون العسكرية، وأشكال القصف، ومجموعات الخرائط. فأمنا سليلة عائلة فون كورتفيتس، واسمها كونراندين، ابنة الجنرال كونراد فون كورتفيتس، الذي احتل أرضنا قبل عشرين سنة وهو يقود جيوش ماريا تيريزا إمبراطورة النمسا. كانت يتيمة الأم فعادة ما صحبها الجنرال معه في ميدان المعركة، ولم يكن هذا أمرًا شاعريًّا. فاعتادا السفر بكامل عتادهما، والسكن في أفضل القصور، ومعهما فريق من الخادمات، حيث تقضي أيامها في شغل الإبرة، أما في الذهاب إلى المعركة هي أيضًا على ظهر الحصان، فإن هذه مجرد أساطير، فهي دائمًا امرأة ذات بشرة وردية، ومتغطرسة كما نتذكرها، ولكن بقي لها فقط ذلك الشغف الأبوي بالحرب، ربما اعتراضًا على زوجها.

وكان أبونا من بين النبلاء القلائل الذي انضموا إلى أنصار الإمبراطورية في الحرب في منطقتنا، قد استقبل بذراعين مفتوحتين الجنرال فون كورتفيتس في مقاطعته، ووضع رجاله تحت إمرته. وليظهر — بصورة أفضل — إخلاصه لقضية الإمبراطورية تزوج كونراندين، وكل هذا أملًا في الحصول على لقب دوق وفي هذه المرة أيضًا خابت آماله كالمعتاد، فسرعان ما رحل رجال الإمبراطورية وأغرقه أهل جنوة بالضرائب، إلا أنه ربح زوجة ماهرة، الجنرالة، والتي أطلق عليها هذا اللقب بعد وفاة والدها في حملة بروفانس، وأرسلت إليها ماريا تيريزا عقدًا ذهبيًّا على وسادة حريرية فاخرة. وهي زوجة لم يختلف معها قط، حتى وإن كان بسبب نشأتها وسط معسكرات الحرب. لم تكن تحلم إلا بالجيوش والمعارك، وتلومه دائمًا على أنه ليس إلا شخصًا متسلقًا تعيسًا.

ولكن الحقيقة أنهما بقيا متعلقين بزمن حروب الخلافة، هي بكل المعدات الحربية في رأسها، وهو بكل أشجار العائلات؛ هي تحلم لنا برتبة في الجيش، أي جيش، وهو يحلم برؤيتنا متزوجين من دوقتين عظيمتين من دوقات الإمبراطورية ... ومع هذا كله، فأبوانا من أفضل الآباء، ولكنهما كانا شاردين إلى حد أننا نشأنا وحدنا. هل كان ذلك شيئًا سيئًا أم حسنًا؟ ومن يستطيع الحكم على هذا؟ فبينما عاش كوزيمو حياة غير عادية بالمرة، عشت أنا حياة عادية ومتواضعة، إلا أننا قضينا صبانا معًا، غير مبالين بتلك الأفكار المزعجة الخاصة بالكبار، باحثين عن طرق مختلفة عن تلك الطرق التي يسلكها الناس.

كنا نتسلق الأشجار (تبدو تلك الألعاب البريئة الأولى الآن في ذاكرتي وكأنها البدايات، والخبرات الأولى؛ ولكن في ذلك الوقت من كان يفكر في هذا؟!)، نقطع جدول المياه ونحن نقفز من صخرة إلى أخرى، نستكشف الكهوف في شواطئ البحر، ونتزحلق على درابزين الفيلا الرخامي. وبسبب ذلك التزحلق نشأ أكبر صدام بينه وبين الدنيا، لأنه عوقب، بلا مبرر — كما يؤكد — ومنذ تلك اللحظة نشأ بين جوانحه حقدٌ دفين تجاه العائلة (أو المجتمع؟ أو العالم على وجه العموم؟)، والذي عبَّر عنه فيما بعد في القرار الذي اتخذه في الخامس عشر من شهر يونيو.

وعن التزحلق على درابزين السلم الرخامي كنا نخشاه بالفعل، ليس خوفًا من أن ينكسر ساقنا أو ذراعنا، وهو الأمر الذي لم يُقلق والدينا البتة، ولذلك — على ما أعتقد — لم نكسر شيئًا منها قط؛ ولكن بسبب أننا كبرنا وازداد وزننا، ومن ثم فإنه ربما تسببنا في كسر تماثيل أجدادنا التي وضعها والدنا على العامودين الأخيرين للدرابزين عند كل مطلع للسلالم! وفي الواقع، أسقط كوزيمو بالفعل تمثالًا للجد الثالث، وكان أسقفًا، وعلى رأسه التاج وكل شيء، وعوقب لذلك، ومنذ تلك اللحظة تعلم أن يتوقف قبل أن يصل إلى نهاية الدرج بلحظة، وأن يقفز في اللحظة التي يكاد يصطدم فيها بالتمثال. وأنا أيضًا تعلمت — لأنني اعتدت تقليده في كل شيء — إلا أنني، نظرًا إلى طبيعتي الأكثر تواضعًا وحرصًا، أقفز في منتصف المسافة، أو أقوم بالتزحلق المتقطع، من خلال الوقفات المستمرة. وفي أحد الأيام، في حين يهبط الدرابزين وكأنه السهم، ومن ذا الذي يصعد السلالم وقتها؟ إنه الراهب فوشيلافلور، الذي يهيم على وجهه وكتاب القداس مفتوح بين يديه، ولكن نظراته مركزة في الفراغ مثل الدجاجة. ويا ليته كان شبه نائم كالعادة! لا، وإنما في إحدى لحظات اليقظة والانتباه التي تجيئه أحيانًا. رأى كوزيمو وتذكر: درابزين، تمثال، والآن سيصطدم، وسينهرونني أنا أيضًا (لأنه مع كل تصرف خبيث نقوم به، ينهرانه والدانا هو أيضًا لإخفاقه في مراقبتنا) وألقى بنفسه على الدرابزين ليمسك بأخي. اصطدم كوزيمو بالراهب، ودفعه إلى أسفل الدرابزين (كان مسنًّا ونحيفًا جدًّا)، ولم يستطع التوقف، واندفع كالقذيفة ليصطدم بجدنا كاتشاجويرا بيوفاسكو المحارب الصليبي في أرض المقدس، وسقطوا جميعًا أسفل الدرج؛ تفتت المحارب الصليبي (حيث صُنع من الجبس)، والراهب وهو. وانهالت صرخات التوبيخ بلا نهاية وضربات السياط، ولك أن تتخيل الحبس الانفرادي، وتناول الخبز والحساء البارد. ولكن كوزيمو، الذي يشعر بأنه بريء لأن الخطأ خطأ الراهب وليس خطأه، تفوه في ثورة الغضب: أنا لا أعبأ بكل أسلافك أيها السيد الوالد! وهو ما نم بالفعل عن مَيله للتمرد.

وأختنا، في واقع الأمر، هي أيضًا متمردة. بالرغم من العزلة التي تعيش فيها، والتي فرضها عليها والدنا بعد قصة المركيز الصغير لعائلة لاميلا، فقد كانت ذات روح متمردة ومحبة للعزلة. ولكن لم يعرف أحد معرفة جيدة حقيقة ما حدث مع هذا المركيز، فهو ابن عائلة تُناصبنا العداء. كيف استطاع التسلل إلى منزلنا؟ ولماذا؟ قيل في المشاحنات الطويلة التي تلت الواقعة بين العائلتين إنه قد فعل ذلك ليغوي، بل ليعتدي على أختنا. ولكننا في الحقيقة، لم ننجح قط في تخيل ذلك المغفل، المنمش، كشخص قادر على الغواية، وخاصةً مع أختنا، وهي من المؤكد أقوى منه بكثير، والمشهورة بقبضتها الحديدية حتى مع عمال الإسطبل. ثم لماذا سمعناه هو الذي يستغيث؟ وكيف عثر عليه أبي مع الخدم الذين هرولوا مسرعين بسرواله ممزقًا، وكأنه نشبت به مخالب نمر؟ ولم تشأ عائلة لاميلا قط الاعتراف بأن ابنهم حاول الاعتداء على شرف باتيستا، والموافقة على الزواج. ولهذا انتهى الأمر بأن دفنت أختنا في المنزل، وهي ترتدي ملابس الراهبة، مع أنها لم تعلن عن أية نذور، ولا حتى نذور المرتبة الثالثة، نظرًا إلى دعوتها المشكوك فيها.

تظهر روحها البائسة بصفةٍ خاصة في المطبخ؛ فهي بارعة جدًّا في الطهو، لأنه لم يكن ينقصها لا الدقة ولا الخيال، الموهبتان الأساسيتان لأي طاهٍ، ولكنها حيثما تضع يديها لم يكن لأحد أن يتوقع المفاجآت التي ستصل إلينا على مائدة الطعام؛ فلقد أعدت في إحدى المرات نوعًا من الفطائر المقرمشة، وكانت رقيقة جدًّا في الحقيقة، من كبد الفئران، ولم تقل لنا هذا إلا بعد أن أكلناها وأعجبنا مذاقها؛ فضلًا عن سيقان الجراد الخلفية الجامدة والمسننة، التي وضعتها على طريقة الفسيفساء فوق التورتة؛ أو أذيال الخنازير المشوية وكأنها كعك، وتلك المرة التي طهت فيها حيوان الشيهم (ذا الأشواك) بتمامه، بكل أشواكه! من يدري لماذا؟! من المؤكد إنها أرادت فقط أن تذهلنا عند رفع غطاء الصينية، لأنها حتى هي، التي تأكل دائمًا كل ما تعده، لم ترغب في تذوقه، مع أنه كان حيوان شيهم صغيرًا، وردي اللون، ومن المؤكد أنه كان طريًّا. في الواقع كثير من ذلك الطهو المرعب مقصود فقط استعراضًا لمنظره، أكثر من الرغبة في أن نتذوق معها أطعمة مقززة. فالأطباق التي تقدمها باتيستا أعمال فنية يدوية دقيقة جدًّا من الحيوانات والخضراوات؛ فتقدم رءوس القرنبيط مع آذان الأرانب موضوعة فوق باقة من فراء الأرنب، أو رأس خنزير وكأنه يخرج لنا لسانه، وفوقه وضعت استاكوزا حمراء، والاستاكوزا تمسك بملقاطها لسان الخنزير وكأنها تنزعه منه؛ ثم الحلزون، فقد استطاعت أن تنزع رءوس عدد كبير منها، تلك الرءوس الرخوة جدًّا أدخلتها، على ما أعتقد، بواسطة عود خشبي رفيع، كل واحد منها بداخل فطيرة منتفخة،

وعندما وضعتها فوق مائدة الطعام بدت كأنها قطيع من البجع الصغير جدًّا. طالما شعرنا بالدهشة عند رؤية تلك الأطباق الشهية وفكرنا في ذلك العمل الدقيق والدءوب الذي تبذله باتيستا في إعدادها، وتخيلنا يديها الرقيقتين وهما تفصلان أطراف تلك الأجسام الحيوانية الصغيرة.

ولكن الطريقة التي تثير حيوانات الحلزون بها خيال أختنا المرعب تدفعنا، أخي وأنا، إلى التمرد، والذي بالإضافة إلى كونه تضامنًا مع تلك الحيوانات المسكينة الممزقة فهو أيضًا بسبب الاشمئزاز من مذاق الحلزون المطهو، ونوعًا من الضجر من كل شيء ومن الجميع، ولذلك لا يجب أن نشعر بالدهشة أنه بدءًا من هنا نضجت لدى كوزيمو فكرة موقفه، بل مواقفه التالية.

أعددنا الخطة بفن. عادةً ما يحضر الفارس المحامي إلى المنزل سلة مليئة بالحلزون الصالح للأكل، توضع في المخزن في برميل، حتى تمتنع عن الطعام فتأكل فقط النخالة، وبذلك تنقى. وبمجرد تحريك غطاء البرميل يظهر شيء أشبه بالجحيم، فيه تتحرك الحلزونات عند أضلاع البرميل إلى أعلى ببطء، وهو ما ينم عن اجتيازها سكرة الموت، بين المتبقي من النخالة، وخيوط من الرغاوى الكثيفة المتخثرة وإفرازاتها الملونة ذكرى ذلك الزمن الجميل الذي فيه قضت الحلزونات وقتها في الهواء الطلق وبين الأعشاب. بعض منها خارج تمامًا من قوقعته ورءوسها مبسوطة إلى الأمام وقرونها المتفرعة مفرودة؛ وبعضها الآخر متقوقع على نفسه، مُظهِر فقط قرونه المتوجسة، وأخريات منها متجمعات وكأنهن رفيقات؛ ومنها من نامت وأغلقت على نفسها، ومنها من ماتت وقوقعتها مقلوبة. ولإنقاذها جميعًا من أن تلتقي بتلك الطاهية المتوحشة، ولننقذ أنفسنا مما تعده لنا، قمنا بعمل فتحة في قاع البرميل، ومنها خططنا بواسطة الحشائش الرفيعة والعسل طريقًا، وأخفيناه بقدر استطاعتنا خلف براميل ومعدات المخزن، لنجذب الحلزونات تجاه طريق الهروب، وصولًا إلى نافذة صغيرة تطل على جزء من الحديقة غير مزروع ومليء بالحشائش.

وفي اليوم التالي، عندما نزلنا إلى المخزن لنراقب آثار خطتنا، وعلى ضوء شمعة أخذنا نفتش الحوائط والدهاليز، وجدنا واحدة هنا! وأخرى هناك!

– انظر إلى أين وصلت هذه.

وبالفعل وجدنا خطًّا من الحلزونات ليس بينها مسافات طويلة تعبر من البرميل إلى النافذة الصغيرة من خلال الأرضية والحوائط مقتفية الآثار التي تركناها. وعندما رأينا تلك الحيوانات الصغيرة تتحرك ببطء شديد، وهي تجنح عن طريقها في دوائر مفرغة

على حوائط المخزن الخشنة، تجذبها الأشياء المخزونة والعفن والأشياء النيئة، لم نستطع أن نمسك أنفسنا من الصراخ فيها: هيا أيتها الحلزونات الصغيرة! أسرعي! اهربي، ولكن المخزن كان مظلمًا، مكدسًا، مزدحمًا، وتمنينا ألا يتمكن أحد من اكتشافها، وأن يسمح لها الوقت بالفرار.

ولكن روح أختنا باتيستا التعسة تقضي ليلتها وهي تتجول في المنزل بحثًا عن الفئران، ممسكة بشمعدان في يدها، وبندقية تحت ذراعها. وفي تلك الليلة دخلت المخزن، وأبان ضوء الشمعدان حلزونة انحرفت على السقف وخلفها رغوة فضية اللون. ودوَّت طلقة من بندقيتها. قفز كل من في البيت من فوق فراشه، ولكن سرعان ما غطى كل منا رأسه بالوسادة، فقد اعتدنا على الحملات الليلية لراهبة المنزل. ولكن باتيستا بعد أن دمرت الحلزونة، وتسببت في سقوط جزء من بياض السقف بتلك الطلقة الطائشة بدأت تصرخ بصوتها الحاد: النجدة! جميعها تهرب! النجدة. هرع نحوها الخدم شبه عراة، ووالدنا وهو مسلح بخنجر، والراهب بدون باروكة، أما الفارس المحامي فإنه قبل أن يدرك أي شيء وخوفًا من المتاعب، هرب سريعًا إلى الحقول، وذهب لينام في مخزن التبن.

وعلى ضوء المشاعل أخذ الجميع يطاردون الحلزونات في المخزن، مع أن أحدًا لا يهتم بها أساسًا، ولكنهم استيقظوا بالفعل، ولم يرغبوا، بسبب غرورهم المعتاد، الاعتراف بأنهم تعرضوا للإزعاج لسبب تافه. واكتشفوا ثقب البرميل، وأدركوا — على الفور — أنها فعلتنا. وجاء والدنا ليهاجمنا في فراشنا بسوط الحوذي. وانتهى بنا الأمر ونحن مغطيان بخطوط بنفسجية على ظهرينا وأردافنا وأقدامنا، وحبسنا في الغرفة الرثة الشبيهة بالسجن لنا. بقينا داخلها ثلاثة أيام، يقدمون لنا الخبز والماء والسلطة ودهن البقرة والحساء البارد (والذي لحسن الحظ يعجبنا). وفي أول وجبة مع العائلة بعد ذلك، وكأن شيئًا لم يكن، ذهبنا جميعًا في الميعاد تمامًا في منتصف نهار الخامس عشر من شهر يونيو. وماذا أعدت أختنا باتيستا، المشرفة على المطبخ؟ حساء الحلزون، وأطباقًا متنوعة من الحلزون. لم يرغب كوزيمو في أن يلمس أية قشرة منها.

– تناولا طعامكما، وإلا سنحبسكما مرة أخرى في الغرفة الصغيرة.

أنا استسلمت، وبدأت في ابتلاع تلك الرخويات (وهذا بالطبع جبن من جانبي، وتسبب في أن يشعر أخي بأنه وحيد أكثر من ذي قبل، ولذلك فتركه لنا تضمن نوعًا من الاعتراض ضدي أنا أيضًا؛ فلقد خذلته، ولكن عمري لم يكن سوى ثمانية أعوام، ثم بماذا تفيد مقارنة قوة إرادتي، بل تلك التي أتحلى بها وأنا طفل مع ذلك العناد الذي يفوق قدرة البشر، والذي ميز حياة أخي؟)

قال والدنا لكوزيمو: وماذا بعد؟

قال كوزيمو وهو يبعد الطبق: لا، ثم لا!

– إذن ابتعد عن تلك المائدة.

ولكن كوزيمو أدار ظهره للجميع، وكان في طريقة إلى خارج الغرفة.

– أين ستذهب؟

ورأيناه من خلف الباب الزجاجي بينما يأخذ من الدهليز قبعته المثلثة القرون وسيفه الصغير.

– أنا أعرف إلى أين!

وانطلق إلى الحديقة.

وبعد قليل، رأيناه من النافذة يتسلق ليصعد على شجرة البلوط. كان مرتديًا كامل ملابسه، ومهندمًا بشدة، تمامًا كما يريد أبونا أن يراه على مائدة الطعام، بالرغم من سنواته الاثنتي عشرة. كان شعره مضمومًا بشريط في ضفيرته، ويرتدي قبعته المثلثة القرون، ورباط عنق من الدانتيل والفراك الأخضر ذا الذيل المشقوق، وبنطاله البنفسجي، وسيفه الصغير وغطاء الكاحل من الجلد الأبيض والذي يغطي نصف فخذه، وهو التنازل الوحيد لطريقة ارتداء الملابس الملاءمة لحياتنا الريفية. (أما أنا فنظرًا إلى أن عمري لم يتجاوز ثمانية أعوام؛ فقد أعفوني من تزيين الشعر، إلا في المناسبات الرسمية، ومن السيف الصغير، مع أني كنت سأحب حمله). وهكذا أخذ كوزيمو يتسلق الشجرة ذات الفروع المعقدة، محركًا ذراعيه وقدميه فوق فروعها بثقة وبسرعة اكتسبهما من الممارسة الطويلة لنا معًا. سبق أن قلت إننا طالما قضينا ساعات طوالًا فوق الأشجار، ليس لأسباب نفعية كما يفعل كثير من الصبية الذين يتسلقونها فقط بحثًا عن الفاكهة أو أعشاش العصافير؛ ولكن لمتعة تجاوز الأجزاء البارزة الصعبة في جذع الشجرة وفروعها، ولكي نصل دائمًا إلى أعلى نقطة نستطيعها، ونجد أماكن جميلة نتوقف فيها، لننظر إلى العالم تحتنا، ولنمرح وننادي بأصواتنا على من يعبر في أسفل. ولذلك وجدت من الطبيعي أن أول فكرة تخطر ببال كوزيمو أمام ذلك الغضب الظالم ضده؛ هي أن يتسلق شجرة البلوط، الشجرة المألوفة لنا، والتي تمتد فروعها في ارتفاع نوافذ القاعة، وبذلك فإنه يفرض سلوكه الساخط والمهين على مرأًى من العائلة.

صرخَت أمنا في قلقٍ بالغ: لتحذر! احترس! والآن سيسقط المسكين! وهي التي ربما شعرت بالسرور إذا رأتنا نشحن مدفع ونطلقه. ولكن ينتابها القلق من طريقتنا في اللعب.

صعد كوزيمو حتى وصل إلى حيث يتفرع فرع ضخم، حيث يمكنه الجلوس مستريحًا، وجلس فوقه وقدماه تتدليان، وذراعاه متقاطعتان ويداه أسفل إبطيه، ورأسه محشور بين كتفيه، وقبعته الثلاثية القرون تغطي جبهته.

أطل والدنا من النافذة، وصرخ فيه: عندما تتعب من جلوسك هناك ستغير رأيك.

قال أخي من فوق فرع الشجرة: لن أغير رأيي أبدًا.

– سأريك أنا ماذا سيحدث لك بمجرد نزولك.

– ولكنني لن أنزل أبدًا!

وتمسك كوزيمو بما قاله.

٢

كان كوزيمو فوق شجرة البلوط، بينما الأغصان تتحرك كأنها جسور عالية فوق الأرض، وتهب رياح خفيفة، والشمس ساطعة، ويعبر ضوء الشمس بين الأوراق. ولكي نرى كوزيمو كان علينا أن نظلل على أعيننا بأيدينا. وكوزيمو يراقب العالم من فوق الشجرة. كل شيء يراه من فوق يبدو مختلفًا، وكان ذلك في ذاته شيئًا مسليًا؛ فالطريق الممهد منظره مختلف تمامًا، وكذلك المروج الصغيرة، وأزهار الكوبية، وأزهار الكاميليا، والمائدة الصغيرة الحديدية التي نتناول عليها القهوة في الحديقة. وكلما ارتفع إلى أعلى قلت أوراق الأشجار تدريجيًّا، تنحدر الخميلة وتنقسم إلى حقول مدرجة تدعمها حوائط من الأحجار، ظهرها قاتم اللون بسبب أشجار الزيتون؛ وفي الخلف مساكن أومبروزا، تظهر منها أسقفها المصنوعة من الطوب الشاحب اللون وحجر الأرديزيا، وتظهر أيضًا سواري السفن البعيدة حيث يوجد الميناء، وفي النهاية البحر الممتد إلى ما وراء الأفق، حيث يبحر فيه ببطء زورق شراعي.

وها هما البارون والجنرالة يخرجان إلى الحديقة بعد تناول القهوة. ينظران إلى شجرة ورد في محاولة للامتناع عن الاهتمام بكوزيمو. كل منهما يتأبط ذراع الآخر، ثم سرعان ما انفصلا ليتناقشا ويتشاورا. أما أنا فلقد ذهبت إلى أسفل البلوطة، وكأنني ألعب وحدي، ولكنني في الحقيقة أحاول أن ألفت انتباه كوزيمو؛ ولكنه كان لا يزال غاضبًا مني، وبقي فوقًا ينظر إلى بعيد. توقفت عن اللعب، واختبأت خلف أحد المقاعد لأتمكن من الاستمرار في مراقبته من دون أن يراني أحد.

يقف أخي كالديدبان، ينظر إلى كل شيء، وكل شيء كان كلاشيء. بين أشجار الليمون تمر سيدة تحمل سلة. ثم بغَّال يصعد المهبط وهو ممسك بذيل البغل. لم يرَ أحدهما الآخر. استدارت المرأة عندما سمعت أصوات حدوات البغل، وخرجت تجاه الشارع، ولكن الوقت

لم يسعفها. عندئذٍ بدأت في الصياح، ولكن البغَّال عبَر المنعطف، فاسترق السمع، وأعمل السوط، وصاح في البغل: آه ...! وانتهى الأمر. وكوزيمو يرى هذا وذاك.

وفي الطريق مر الأب فوشيلافلور ومعه كتاب الصلوات مفتوحًا. أخذ كوزيمو شيئًا من الفرع وتركه يسقط على رأسه. لم أفهم ماذا كان، ربما عنكبوت، أو ربما شظية من لحاء الشجرة؛ لكنها لم تُصبه. أخذ كوزيمو ينقب بسيفه في فتحة في الجذع، فخرج منه دبور غاضب، فأخذ هو يطرده بعيدًا بقبعته ذات القرون الثلاثة، وأخذ يتتبع طيرانه بنظره حتى وصل إلى نبات القرع، وهناك اختفى. وكعادته، خرج الفارس المحامي من المنزل بسرعة، عابرًا من خلال سلالم الحديقة، واختفى بين صفوف الكرم. وليرى كوزيمو إلى أين يتجه؛ تسلق على فرع آخر. ومن بين الأوراق، سمع صوت رفرفة أجنحة، وارتفع طائر الشحرور إلى السماء. استاء كوزيمو كثيرًا لأنه يقف كل هذا الوقت ولم ينتبه لوجوده. وأخذ ينظر — بالرغم من أشعة الشمس — هل توجد طيور أخرى أو لا، ولكن لم يجد شيئًا.

تقع شجرة البلوط بالقرب من شجرة دردار، وقمَّتا الشجرتين متلامستان. حيث فرع الدردارة يعبُر فوق أحد فروع الشجرة الأخرى بنحو نصف متر، ومن السهل على أخي أن يعبر ليحتل أيضًا قمة الدردارة، التي لم نقم قط باكتشافها، نظرًا إلى أنها تقع فوق درج مرتفع، ولا يمكن تسلقها من الأرض. ومن فوق شجرة الدردار، وفي محاولته المستمرة للبحث عن فرع قريب من فروع شجرة أخرى، وصل فوق شجرة خروب، ثم إلى شجرة توت. وهكذا رأيت كوزيمو وهو يتقدم من فرع إلى آخر، وهو يسير معلقًا فوق الحديقة.

بعض فروع شجرة التوت الضخمة تصل وتعبر فوق السور المحيط بفيلتنا، حيث تقع حديقة عائلة أونداريفا. ومع أنها على حدود منزلنا، فإننا لا نعرف شيئًا عن مركيزات عائلة أونداريفا، ونبلاء أومبروزا؛ فقد كانوا، منذ أجيال عديدة، يتمتعون ببعض الحقوق الإقطاعية، التي يطالب بها أبي، ففصَل نوع من الحقد المتبادل بين العائلتين، كما يفصل السور المرتفع الذي يبدو مثل برج حصن بين فيلتينا، ولا أعرف هل بناه المركيز أم والدنا. وبالإضافة إلى ذلك الحرص الشديد الذي تحيط به عائلة أونداريفا بحديقتها، والتي — حسبما يقال — زاخرة بأنواع من النباتات لم ترها عين. في الواقع، استحث جد المركيز الحاليين، تلميذ لينيو، عائلته كثيرة العدد وأقاربه الذين كانوا يعيشون في بلاطَي فرنسا وإنجلترا، ليرسلوا إليه بأثمن النباتات الموجودة في المستعمرات وأندرها، ولسنوات عديدة تُنزل السفن ما على متنها من أجولة حبوب، وحِزم من الشتلات، وشجيرات في أصص، بل تنزل أشجارًا كاملة تحيطها طبقة من الطمي حول جذورها إلى أومبروزا حتى أصبحت

تلك الحديقة — كما يقولون — خليطًا من غابات الهند والأمريكيتين، بل من غابات هولندا الجديدة أيضًا. وكل ما نستطيع رؤيته هو ظهور بعض الأوراق قاتمة اللون على حافة السور، من أوراق شجرة تم استيرادها حديثًا من المستعمرات الأمريكية، وهي شجرة المجنوليا، ومن فروعها السوداء تبرز أزهار سميكة بيضاء اللون. ومن فوق شجرة التوت وصل كوزيمو إلى حافة السور، وسار بضع خطوات محافظًا فيها على توازنه، ثم قفز إلى الناحية الأخرى حيث توجد أوراق المجنوليا وأزهارها. ومن هنا اختفى عن ناظري، وما سأقوله الآن، مثل كثير من الأشياء التي سأقصها عن حياته، رواه لي هو فيما بعد، أو استطعت أنا الوصول إليه من خلال شواهد متناثرة، ومن خلال استنتاجاتي الخاصة.

وقف كوزيمو على شجرة المجنوليا. وبالرغم من كثافة فروع تلك الشجرة، إلا أنها بمثابة طريق ميسور بالنسبة إلى صبي خبير بكل أنواع الأشجار مثل أخي؛ تتحمل الفروع ثقله، مع أنها ليست كبيرة، وكان خشبها رقيقًا إلى درجة أن طرف حذاء كوزيمو يقشرها، ويفتح جروحًا بيضاء في جذعها الأسود؛ وأحاطت بالصبي رائحة الأوراق العطرة الطازجة، كلما حركتها الرياح، وغيرت من درجات لونها الأخضر من اللون القاتم تارة إلى اللون اللامع تارة أخرى.

ولكن الحديقة كانت كلها معبأة بالروائح، ومع أن كوزيمو لم ينجح بعد في أن يتجول فيها بناظريه — نظرًا لكثافتها غير العادية — إلا أنه أخذ يكتشفها بحاسة الشم، وحاول أن يميز بين الروائح المختلفة، مع أنها معروفة له لأن الرياح عادة ما تحملها حتى تصل إلى حديقتنا، وكانت تبدو لنا شيئًا لا ينفصل عن سر تلك الفيلا. ثم أخذ ينظر إلى الأغصان ويرى أوراقًا جديدة، الأوراق الضخمة اللامعة، وكأنها تجري فوق سطح مائي، حيث بدت دقيقة الحجم ومدببة، والجذوع جميعًا ملساء أو مغطاة بالنتوءات.

في حين يلف الصمت كل شيء، سمع صوت رقيق يغني: آه لا لا ... آه يا لها من أرجوحة ... نظر كوزيمو إلى أسفل، وهناك، وفوق فرع شجرة قريبة كبيرة تجلس طفلة عمرها نحو عشر سنوات على أرجوحة معلقة.

طفلة شقراء، بتسريحة شعر مرتفعة، غريبة بعض الشيء بالنسبة إلى طفلة، وترتدي فستانًا سماوي اللون، وهذا أيضًا جعلها تبدو أكبر من سنها، وتنورة مليئة بالدانتيلا. تنظر الطفلة بعينين شبه مغلقتين وأنف مرتفع في الهواء، وكأنها تريد أن تظهر بمظهر المرأة النبيلة، وتقضم تفاحة بفمها وهي تحني — في كل مرة — رأسها تجاه يدها التي تمسك بحبل الأرجوحة والتفاحة في الوقت نفسه، وتدفع نفسها إلى أعلى بأن تضغط بطرف حذائها على الأرض في كل مرة تصل الأرجوحة إلى أقرب نقطة من حركتها إلى الأرض،

وتتفل من فمها بقايا قشرة التفاحة التي قضمتها وتغني: آه لا لا لا ... آه من الأرجوحة ... وكأنها فتاة لا يهمها شيء، لا الأرجوحة، ولا الأغنية، ولا حتى التفاحة، وأن لديها أفكارًا أخرى في رأسها.

نزل كوزيمو من قمة المجنوليا إلى أكثر المناطق قربًا إلى الأرض ووقف بقدميه، واحدة هنا وواحدة هناك، على فرعين، ويسند مرفقيه إلى فرع قبالته وكأنه يقف أمام شباك. وتدفع حركة الأرجوحة بالطفلة بالقرب من وجهه.

لم تكن هي منتبهة، ولم تدرك وجوده. وفجأة رأته يقف مرتديًا قبعته ثلاثية القرون وغطاء الكاحل وقالت: آه!

وسقطت التفاحة من يدها، وتدحرجت أسفل الأرجوحة، فاستل كوزيمو سيفه الصغير، وانحنى إلى أسفل من الفرع الأخير، ووصل إلى التفاحة بطرف سيفه وغرسه فيها وأمسك بها وقدمها للطفلة التي كانت في ذلك الوقت قد دارت دورة كاملة بالأرجوحة وعادت بالقرب منه من جديد: خُذيها. لم تتسخ، انسحقت قليلًا من أحد جوانبها.

ندمت الطفلة الشقراء بالفعل لأنها أظهرت كل هذه الدهشة أمام ذلك الصبي المجهول الذي ظهر فوق المجنوليا، واستعادت على الفور شعورها بالاعتزاز ورفعت أنفها إلى أعلى وقالت: هل أنت لص؟!

– لص؟! شعر كوزيمو بالإهانة، ثم فكر قليلًا في الأمر، فأعجبته الفكرة. وقال وهو يُسقط قبعته ثلاثية القرون على جبهته: نعم أنا كذلك. هل هناك اعتراض؟!

– وماذا تريد أن تسرق؟!

نظر كوزيمو إلى التفاحة التي غرسها بسيفه الصغير، وخطر بباله أنه يشعر بالجوع، وأن يديه لم تمتدَّا إلى الطعام على المائدة فقال: هذه التفاحة. وبدأ يقشرها بنصل السيف الصغير الحاد الذي يمسكه بغض النظر عن الممنوعات العائلية.

قالت الفتاة: أنت إذن لص فاكهة.

فكر أخي في شرذمة الصبية الفقراء في أومبروزا، الذين يتسلقون الأسوار والسياج ويسرقون حدائق الفاكهة، وهم نوع من الصبية تعلَّم أن يحتقرهم وأن يبتعد عنهم، ولأول مرة فكر كيف يمكن أن تكون حياتهم حياة حرة يُحسَدون عليها. إذن: يمكنه هو أيضًا أن يصبح مثلهم ويعيش بهذه الطريقة من الآن فصاعدًا، قال: نعم. وقد شطر التفاحة إلى أقسام وبدأ يلتهمها.

انفجرت الفتاة الشقراء في ضحكٍ استمر دورة الأرجوحة الكاملة من أعلى إلى أسفل.

– لتلعبْ بعيدًا! فأنا أعرف الصبية الذين يسرقون الفاكهة معرفة جيدة فهم جميعًا أصدقائي! وهم يسيرون حفاة، بقمصان بلا أكمام، شعثًا، ولا يرتدون مثلك غطاء للكاحل وشعرًا مستعارًا!

تحول وجه أخي إلى اللون الأحمر مثل قشرة التفاحة، فقد سخرت منه ليس فقط بسبب الباروكة، والتي لم يكن يتمسك بها البتة؛ ولكن أيضًا بسبب غطاء الكاحل الذي يعتز به جدًّا، وأيضًا لأنه تم الحكم عليه بأن مظهره أقل من لص فاكهة، أي أنه لا ينتمي إلى تلك الزمرة التي احتقرها قبل دقيقة واحدة، وبالأخص لأنه اكتشف أن هذه الآنسة الصغيرة التي تتظاهر بأنها سيدة الحديقة، والتي تنتمي إلى عائلة أونداريفا، صديقة لأولئك اللصوص وليست صديقته، كل هذه الأشياء مجتمعة ملأته بالضيق والخجل والغيرة.

وأخذت الصغيرة تغني من فوق الأرجوحة: أه لا لا لا ... بالكاحل والباروكة.

أما هو فقد انتابته رغبة في استعادة كبريائه فصرخ: أنا لست لصًّا مثل أولئك الذين تعرفينهم! بل أنا لست لصَّا البتة! قلت هذا فقط حتى لا أخيفك! لأنك لو عرفت من أنا بالفعل لمتِّ من الفزع، فأنا قاطع طريق! قاطع طريق خطير!

استمرت الفتاة في الارتفاع بالأرجوحة قريبًا من وجهه، بل يمكن القول إنها أرادت أن تلمسه بطرفَي قدميها.

– فلتذهب بعيدًا! وأين إذن بندقيتك! كل قُطاع الطرق لديهم بنادق! أو مجانيق! لقد رأيتهم! فلقد أوقفوا عربتنا خمس مرات في رحلاتنا من القصر إلى هنا!

– لكن زعيمهم لا! لأني زعيمهم! زعيم قطاع الطرق ليس لديه بندقية! لديه فقط السيف. وشهر سيفه.

هزت الفتاة كتفيها وشرحت: إن زعيم عصابة قطاع الطرق يُدعى جان داي بروجي، وهو يأتي دائمًا ليقدم لنا الهدايا في عيد الميلاد وعيد الفصح.

– آه! صرخ متعجبًا كوزيمو دي روندو، وقد انتابته موجة تعالٍ عائلية: إذن أبي على حق عندما يقول إن مركيز أونداريفا هو الذي يحمي قُطاع الطرق واللصوص في المنطقة!

اقتربت الصغيرة من الأرض، وبدلًا من أن تدفع نفسها بقدميها أوقفت الأرجوحة بلمسة سريعة وقفزت من فوقها. وأخذت الأرجوحة تطير وهي تهتز في الهواء، قالت له وهي تشير بإصبعها إلى الصبي في غضب شديد: انزل من فورك إلى هنا! كيف سمحت لنفسك بدخول أرضنا؟

قال كوزيمو بحمية الغضب نفسها: أنا لم أدخل، ولن أنزل. لم أضع قط قدمًا على أرضكم، ولا أنوي فعل ذلك ولو في مقابل ذهب العالم كله!

عندئذ، وبهدوء شديد، أخذت الفتاة مروحة موضوعة على مقعد من الخيزران، ومع أن الجو لم يكن شديد الحرارة، إلا أنها أخذت تحركها وهي تسير ذهابًا وإيابًا.

وقالت بكل هدوء: والآن سأستدعي الخدم، وسآمرهم بأن يمسكوك وبضربك بالعصا. وهكذا ستتعلم ألا تدس أنفك في أرضنا مرة أخرى! وكانت هذه الفتاة تغير من نبرتها سريعًا، وفي كل مرة يتلعثم أخي أمامها.

صرخ كوزيمو: حيث أوجَد الآن ليس أرضكم، ولا أملاككم!

وراودَته نفسه أن يضيف: ثم إنني دوق أومبروزا، وسيد هذه الأرض كلها!

ولكنه تراجع؛ لأنه لم يكن يحب تكرار الأشياء التي يرددها أبوه دائمًا، خاصة وقد هرب لتوه من المائدة بعد مشاجرة معه، ولم يكن يعجبه، بل لم يبدُ له شيئًا صحيحًا، لأن المطالبة بالدوقية تلك بالنسبة إليه مجرد فكرة متسلطة؛ فكيف إذن يضع نفسه — كوزيمو — في موقف تفاخر من كونه دوقًا؟ ولكنه لم يرغب في أن يكذِّب نفسه، فاستمر في الحديث بما يخطر على باله، وكرر: هذا المكان ليس لكم، لأن ما تملكونه هو الأرض. وإذا وضعت عليها قدمي لكنت فعلًا مُندسًّا، ولكن هنا في أعلى فإن هذا غير وارد، فأنا أذهب حيث أريد.

– آه! إذن فهناك فوق ملك لك.

– بالتأكيد! إن هذه هي أرضي الخاصة، كل ما يوجد هنا بأعلى — وأشار إلى الفروع والأوراق المتلألئة بضوء الشمس والسماء — على فروع الأشجار، كل شيء ملك لي، قولي لهم أن يأتوا ليمسكوا بي إن استطاعوا ذلك!

والآن، وبعد كل هذا الحديث المتفاخر، انتظَر أن تسخر منه بطريقةٍ ما، ولكنها — على العكس — أظهرت اهتمامًا غير متوقع: آه حقًّا؟ وإلى أين تمتد أراضيك تلك؟

– كل ما يمكن الوصول إليه قفزًا فوق الأشجار، من هنا ومن هناك، ووراء الأسوار وفي مزارع الزيتون، وحتى فوق الهضبة، ومن الناحية الأخرى وفي الغابة، وفي أراضي الأسقف …

– وصولًا إلى فرنسا؟

– بل حتى بولندا وبلاد الساكسون — قال كوزيمو، والذي يعرف من الجغرافيا فقط الأسماء التي سمع أمنا ترددها وهي تتحدث عن حروب الخلافة — ولكني لست أنانيًّا مثلك، فيمكنني أن أدعوك إلى أرضي.

والآن بدأ كل منهما يكلم الآخر من دون استخدام صيغة الاحترام، وبدأت هي ذلك.

سألته وهي تجلس على الأرجوحة والمروحة مفتوحة في يدها: ولمن إذن تلك الأرجوحة؟

قال كوزيمو محددًا الموقف: الأرجوحة لك، ولكن نظرًا إلى أنها مربوطة بذلك الفرع فهي داخل نطاق مملكتي، إذن فإذا جلست عليها وقدماك تلمسان الأرض فأنت على أرضك، ولكن إذا رفعتِ نفسك في الهواء فأنت في أرضي.

عندئذٍ دفعت نفسها وطارت في الهواء، ويداها ممسكتان بالحبال، قفز كوزيمو من المجنوليا إلى الفرع الكبير المعلقة به الأرجوحة، ثم أمسك بالحبال، وبدأ هو في تحريكها، وأخذت الأرجوحة تتحرك أعلى من ذي قبل.

– هل أنت خائفة؟

– أنا لا. ما اسمك؟

– أنا كوزيمو ... وأنت؟

– فيولانت ... ولكنهم يدعونني فيولا.

– أما أنا فيدعونني مينو، أيضًا لأن كوزيمو اسم قديم.

– لا يعجبني.

– كوزيمو؟

– لا، مينو.

– آه ... يمكنك أن تدعوني كوزيمو.

– ولا حتى هذا! اسمع، يجب أن نعقد اتفاقات واضحة.

– ماذا تقولين؟ سألها كوزيمو، وهو لا يزال يشعر بالألم في كل مرة تتحدث فيها.

– أقول: إنني يمكنني أن أصعد إلى منطقتك، وأكون فيها ضيفة مقدسة، حسنًا؟ أدخل وأخرج كما أريد. أما أنت فإنك مقدس، ولا يمكن الاعتداء عليك ما دمت فوق أشجارك، في منطقتك، ولكن بمجرد أن تلمس أرض حديقتي تصبح عبدي، وسنقيدك بالأغلال.

– لا، لن أنزل إلى حديقتك، ولا حتى إلى حديقتي، فبالنسبة إليَّ فإن كلتيهما تُعد منطقة أعداء على حدٍّ سواء، تعالَي أنتِ إلى فوق معي، وليأتِ أيضًا أصدقاؤك لصوص الفاكهة، وربما يأتي أيضًا أخي بياجو، مع أنه جبان إلى حد ما، ولنصنع جيشًا يعيش فوق الأشجار ونعيد الأرض وساكنيها إلى صوابهم.

– لا، لا، لا شيء من هذا كله. دعني أشرح لك كيف تسير الأمور. لك أنت السلطة على الأشجار، حسنًا؟ ولكن إذا لمست — ولو مرة واحدة — الأرض بقدميك، تفقد كل مملكتك، وتصبح أحقر العبيد. هل فهمت؟ حتى وإن كُسر فرع شجرة تحت قدميك وسقطت ستفقد كل شيء!

– لم أسقط قط من فوق شجرة في حياتي!

– بالتأكيد، ولكن، إذا سقطت ستصبح رمادًا وستذروك الرياح.

– كل هذا هراء. أنا لن أذهب إلى الأرض لأنني لا أريد ذلك.

– آه! كم أنت مثير للملل.

– لا، لا، لنلعب. على سبيل المثال، هل يمكن أن أجلس على الأرجوحة؟

– إذا نجحت في الجلوس على الأرجوحة من دون أن تلمس الأرض فنعم.

وبجوار أرجوحة فيولا عُلقت أخرى على الغصن نفسه، ولكنها مرتفعة أكثر إلى أعلى بعقدة في حبالها حتى لا تصطدم إحداهما بالأخرى. ترك كوزيمو نفسه لينزل وهو ممسك بأحد الحبلين، وهو تدريبٌ كوزيمو ماهر جدًّا فيه؛ لأن أمنا تجعلنا نقوم بتدريبات رياضية كثيرة. وعندما وصل إلى العقدة فكها ووقف بقدميه على الأرجوحة. ولكي يدفع نفسه نقل ثقل جسمه وهو يثني ركبتيه وينطلق إلى الأمام.

وهكذا أخذ يدفع بنفسه إلى أعلى. وكانت الأرجوحتان تتحركان، إحداهما في اتجاه والأخرى في اتجاه مختلف، وتصلان إلى الارتفاع نفسه، وتلتقيان في منتصف الدورة.

أخذت فيولا توعِز إليه: ولكن إذا جرَّبتَ الجلوس أعطيت نفسك دفعة بقدميك سترتفع أكثر إلى أعلى.

نظر إليها كوزيمو مستهزئًا.

قالت له برقة وهي تبتسم: انزل إلى الأرض لتدفعني ... لتكن لطيفًا.

– لا، لقد قلنا إنني لن أنزل بأي ثمن.

وبدأ كوزيمو يشعر بالارتباك.

– لتكن لطيفًا.

– لا.

– آه، آه، كنت على وشك السقوط في الفخ، فلو وضعت إحدى قدميك على الأرض لفقدتَ كل شيء! — ونزلت فيولا من فوق الأرجوحة، وبدأت تدفع أرجوحة كوزيمو دفعات خفيفة — أوه ...! وأمسكَت فجأة بمقعد الأرجوحة التي يسند أخي إليها قدميه وقلبتها، ولكن لحسن الحظ كان أخي ممسكًا بالحبال جيدًا! وإلا سقط أرضًا كالسردينة.

صرخ: خائنة! وتسلق إلى أعلى، وهو ممسك بالحبلين، ولكن الصعود أصعب من النزول، وخاصة مع وجود تلك الفتاة الشقراء، والتي بدت في إحدى حالاتها الشريرة تجذب الحبال من أسفل في كل الاتجاهات.

وفي النهاية وصل إلى الفرع الضخم، وجلس عليه وأحاطه بساقيه. وبرباط عنقه أخذ يمسح عرقه من على وجهه.

– آه، آه! لم تنجحي في ذلك!

– كنت على وشك!

– ولكنني اعتقدت أنك صديقتي!

– اعتقدت! واستأنفت في التأرجح.

قاطعهما في تلك اللحظة صوت نسوي حاد: فيولانت! مع من تتحدثين؟!

وعلى الدرجات البيضاء التي تؤدي إلى الفيلا ظهرت سيدة طويلة القامة ونحيلة، بتنورة واسعة فضفاضة؛ تنظر بنظارتها وحيدة العدسة. تراجع كوزيمو بين الأوراق خجلًا.

– مع شاب يا خالتي — قالت الصبية — وُلد على قمة الشجرة، وبسبب قوى سحرية لا يمكنه وضع قدميه على الأرض.

تساءل كوزيمو، وقد أحمر وجهه، هل الصبية تتحدث بهذه الطريقة لتسخر منه أمام خالتها، أو لأنها تسخر من خالتها أمامه، أو فقط لتكمل اللعبة، أو لأنها لا يهمها شيء منه، أو من خالتها، أو من اللعبة، ورأى نظارة الخالة تتفحصه، وتقترب من الشجرة، وكأنها تتطلع إلى ببغاء غريب النوع.

– أوه، لكنني أعتقد أن هذا الشاب من البيوفاسك، تعالي يا فيولانت.

شعر كوزيمو بالإهانة الشديدة؛ فالتعرف عليه بهذه الطريقة العادية، حتى من دون السؤال لماذا يقف هناك، ونداؤها الطفلة على الفور بحدة، ولكن من دون قسوة، وتلبية فيولا بخنوع وعلى الفور لنداء خالتها من دون أن تلتفت إليه، كل هذا ينم عن أنه شخص بلا أية أهمية، بل لا وجود له. ولذلك فإنه في تلك اللحظة غرق في سحابة من الخجل.

ولكن الصبية تشير إلى الخالة التي تحني رأسها، فتهمس لها الطفلة بشيء في أذنها. وعندئذٍ توجه الخالة نظراتها إلى كوزيمو وتقول له: إذن أيها السيد الصغير، هل تتفضل وتتناول فنجانًا من الشيكولاتة؟ هكذا يمكننا أن نتعرف إليك نحن أيضًا — ونظرت بطرف عينيها لفيولا — نظرًا إلى أنك صرت صديقًا للعائلة.

مكث كوزيمو ينظر إلى الخالة وابنة أختها محملقًا عينيه، وقلبه يدق بشدة. ها قد تمت دعوته من قبل عائلة أونداريفا أومبروزا، أهم عائلة في المنطقة، وتحولت الإهانة التي شعر بها في اللحظة السابقة إلى رغبة في الانتقام وكأنه يثأر من أبيه، وذلك بأن يستضيفه أعداؤه الذين عادة ما ينظرون إليه باحتقار، وأن فيولا تدخلت لأجله، وأنه تم قبوله رسميًّا

صديقًا لفيولا، وأنه يمكنه أن يلعب معها في تلك الحديقة المختلفة عن كل الحدائق. شعر كوزيمو بكل هذا، ولكن شعر مع هذا بشعور مضاد؛ وإن كان مضطربًا، شعور مكون من الخجل، والكبرياء، الوحدة والعناد. ومع هذا التضارب في المشاعر أمسك أخي بفرع الشجرة فوقه وتسلقه، وانتقل إلى الجزء الأكثر كثافة منها، ثم عبر إلى شجرةٍ أخرى واختفى.

٣

وكان عصر ذلك اليوم بلا نهاية. من وقت لآخر نستمع إلى صوت فرقعة، أو حفيف، كما يحدث عادة في الحدائق، ونجري إلى الخارج آملين أن يكون هو، وأنه قرر النزول. ولكن هيهات، فلقد رأيت قمة المجنوليا بزهرها الأبيض تتحرك، وكوزيمو يظهر من وراء السور يتخطاه.

ذهبت للقائه على شجرة التوت. وبمجرد رؤيتي أظهر امتعاضه. كان ما زال غاضبًا مني. جلس على أحد فروع الشجرة أعلى مني، وبدأ يخدش الشجرة بسيفه وكأنه لا يريد أن يتوجه إليَّ بكلمة.

قلت، في محاولة لبدء الحديث: إن تسلق شجرة التوت سهل، لم نتسلقها أبدًا.

أما هو فاستمر في خدش الفرع بنصل سيفه، ثم قال في حدة: إذن، هل أعجبتك وجبة الحلزونات؟

مددت يدي بسلة: لقد أحضرت لك تينًا مجففًا يا مينو، وقطعة تورتة.

– هل أرسلوك هم؟

قالها لي، وهو ما زال غاضبًا، ولكنه ينظر إلى السلة ولعابه يسيل.

قلت بسرعة: لا، أتعرف؟ لقد اضطررت إلى الهرب خلسة من الأب! لقد أراد أن يحتجزني للدرس المساء كله حتى لا أتصل بك، ولكنه استسلم للنوم! أمنا تشعر بالقلق وتخشى أن تسقط، وتريد أن يبحثوا عنك، ولكن والدنا منذ أن اختفيت من فوق شجرة البلوط يقول إنك نزلت بالفعل واختفيت في زاوية ما تحاول أن تتأمل في فعلتك السيئة، وإنه لا شيء يدعو إلى الخوف.

قال أخي: أنا لم أنزل قط!

– هل ذهبت إلى حديقة عائلة أونداريفا؟

– نعم، ولكنني كنت أنتقل من شجرة إلى أخرى. لم ألمس الأرض قط!

سألته: لماذا؟ فلقد كانت المرة الأولى التي أستمع إليه فيها وهو يعلن هذه القاعدة، ولكنه تحدث عن هذا الأمر وكأنه شيء متفَق عليه بيننا، وكأنه يريد أن يطمئنني أنه لم يخرق المعاهدة، إلى حد أنني لم أجرؤ على الإصرار على طلب التفسير.

قال بدلًا من أن يجيبني: أتعلم أن حديقة الأونداريفا مكان يحتاج إلى عدة أيام لاكتشافه مع كل تلك الأشجار الواردة من غابات أمريكا، آه لو رأيتها!

ثم تذكر أنه على خلافٍ معي، ولذلك لا يجب أن يستمتع بأن يقول لي اكتشافاته، فقطع كلامه فجأة: على كلٍّ، لن آخذك معي إلى هناك. يمكنك أن تذهب لتتجول مع باتيستا من الآن فصاعدًا، أو مع الفارس المحامي!

قلت له: لا يا مينو خذني إلى هناك! لا يجب أن تغضب مني لأنني أكلت الحلزون. لقد كانت بشعة، ولكنني لم أحتمل سماع صراخهم!

أخذ كوزيمو يلتهم التورتة وقال: سأختبرك، يجب أن تثبت لي أنك في صفِّي، ولست في صفهم.

– قل لي كل ما تريد أن أفعله.

– يجب أن تحضر لي حبالًا، طويلة ومتينة، لأنني لكي أقوم بتنقلات معينة يجب أن أربط نفسي، وأريد أيضًا بكرة، ودعامات ومسامير من النوع الكبير ...

– ولكن ماذا تريد أن تصنع؟ رافعة؟

– يجب أن ننقل أشياء كثيرة إلى أعلى، وسنرى ذلك فيما بعد، ألواح خشبية، وقصبات.

– تريد أن تبني كوخًا فوق شجرة! ولكن أين؟

– إذا لزم الأمر سنختار المكان، على كل سيكون مكاني، ولكن يمكنك العثور عليَّ عند شجرة البلوط تلك، سأنزل لك السلة بالحبال، وتستطيع أن تضع فيها كل ما سأحتاج إليه.

– ولكن لماذا؟ تتحدث وكأنك ستمكث هنا مختبئًا لا أحد يعرف إلى متى ... أتظن أنهم لن يسامحوك؟

تحول وجهه إلى اللون الأحمر وقال: وماذا يهمني من أن يسامحوني، ثم إنني غير مختبئ؛ أنا لا أخاف من أحد! وأنت، هل تخاف من مساعدتي؟!

لم يكن الأمر أنني لم أفهم أن أخي يرفض النزول حاليًّا، ولكنني أتظاهر أنني لا أفهم حتى أجبره على أن يعلن وأن يقول: «نعم، أريد أن أبقى هنا حتى ساعة العصر، أو حتى الغروب، أو ميعاد العشاء، أو حتى الظلام»، شيئًا ما يضع حدًّا زمنيًّا، شيئًا ما يعطي حجمًا لموقفه الثوري، إلا أنه لم يقل أي شيء، وشعرت أنا ببعض الخوف.

أخذوا ينادون من أسفل؛ والدنا يصيح: كوزيمو! كوزيمو! ثم بعد أن اقتنع أن كوزيمو لن يجيبه، بدأ ينادي عليَّ: بياجو ... بياجو.

قلت بسرعة: سأذهب لأرى ما يريدون، ثم أعود سريعًا لأحكي لك.

وأعترف أن عجلتي تلك في أن أُعلم أخي بما يحدث مختلطة برغبتي في أن أسرع وأفلت بفعلتي خوفًا من أن يمسكوا بي وأنا أتسامر معه على قمة التوتة، وأن أجد نفسي مجبرًا على أن أتقاسم معه العقاب الذي ينتظره بالتأكيد. ولكن يبدو أن كوزيمو لم يستطع قراءة بوادر النذالة تلك على وجهي فتركني أذهب، ولكن ليس من دون أن يعبر بتحريك كتفيه عن عدم مبالاته بما سيقوله له والدنا.

وعندما عدت كان لا يزال في مكانه، وجد موقعًا جيدًا ليجلس فوقه، فوق جذع تم تشذيبه، ويضع ذقنه على ركبتيه، ويعقد ذراعيه حول ساقيه.

قلت وأنا أتسلق وألهث بشدة: مينو! مينو! لقد عفوا عنك! وينتظروننا! أعدوا وجبة خفيفة على المائدة، ووالدنا وأمنا جلسا بالفعل في انتظارنا، وسيضعون لكل منا جزءًا من التورتة في طبقه! توجد تورتة كريمة وشيكولاتة لم تعدها باتيستا، هل تصدق؟ لا بد أن باتيستا أوصدت على نفسها باب حجرتها، لا بد أنها الآن محتقنة البشرة من الغضب! لقد ربتوا على رأسي وقالوا لي: «اذهب إلى مينو المسكين، وقل له لنتصالح، وألا نتحدث عن هذا الموضوع بعد ذلك»، بسرعة! هيا بنا!

كان كوزيمو يعض بأسنانه على ورقة شجر، ولم يتحرك ولكنه قال: دييجو! حاول أن تحصل لي على غطاء من دون أن يراك أحد وأحضره لي. لا بد أن الجو شديد البرودة هنا ليلًا.

– ولكنك لا تريد قضاء الليل فوق الأشجار!

لم يرد، كان يُسند ذقنه إلى ركبتيه، ويمضغ ورقة الشجر وينظر قبالته. أخذت أتتبع نظراته، والتي انتهت مباشرة لتنظر إلى سور حديقة عائلة الأونداريفا، حيث تظهر زهرة بيضاء للمجنوليا، وفي أعلى ترفرف طيارة من الورق.

وهكذا حل المساء، والخدم يروحون ويجيئون يجهزون مائدة الطعام؛ وفي الصالة الشمعدانات مضاءة. لعل كوزيمو يرى كل شيء، من فوق الشجرة وقف البارون أرمينيو ينظر إلى الظلال خارج النافذة صائحًا: إذا أردت أن تمكث حيث أنت أعلى الشجرة، ستموت جوعًا!

وفي ذلك المساء، ولأول مرة جلسنا على العشاء من دون كوزيمو؛ والذي يمتطي فرعًا عاليًا من فروع شجرة السنديان، في أحد الأركان، وهكذا نرى فقط ساقيه المتدليتين. وأقول

نرى، إذا نظرنا من النافذة ودققنا في الظلام، لأن الحجرة كانت مضيئة، وفي الخارج الظلام حالك. بل إن الفارس المحامي شعر بواجب أن يطل من النافذة ويقول شيئًا، ولكن — كما هي عادته — نجح في ألا يصدر أحكامًا حول هذا الموضوع فقال: أووه ... الخشب قوي ومتين ... عمرها نحو مئة عام ... ثم قال بعض الكلمات بالتركية، ربما اسم الشجرة، وكأنه يتحدث عن الشجرة وليس عن أخي.

ولكن خان أختنا باتيستا شعورها تجاه أخينا كوزيمو، حيث تشعر بنوع من الغيرة، فهي التي اعتادت دائمًا أن تثير قلق العائلة بغرابتها، أما الآن فقد وجدت أن شخصًا آخر قد تجاوزها في هذا، وأخذت تقضم أظافرها (تأكلها، ولكن ليس بأن ترفع أصبعها تجاه فمها، بل وهي تخفضه، ويدها مقلوبة ومرفقها مرفوع).

أما الجنرالة فقد تذكرت بعض جنود الاستطلاع الذين يقفون على الأشجار في أحد المعسكرات، لا أدري هل كان معسكر سلوفانيا أو بدميرانيا، وكيف استطاعوا بمراقبتهم الأعداء تجنب أي كمين. وفجأة أخذتها هذه الذكرى من حالتها الشاردة نتيجة قلق الأم إلى الجو العسكري المفضل لديها، وصارت أكثر هدوءًا، بل فخورة، إذا أمكن القول، وكأنها نجحت أخيرًا في أن تبرر سلوك ابنها. لم يُصغِ إليها أحد، فقط الأب فوشيلافلور، والذي أخذ يقر بجدية القصة الحربية، والمقارنة التي تستنتجها أمي منها، وإذ إنه أراد أن يتشبث بأي موضوع حتى يجد أن ما يحدث حوله شيء طبيعي، ويزيل من رأسه ما به من شعور بالمسئولية وبالقلق.

كنا عادة نذهب للنوم مبكرًا بعد العشاء، ولم نغير ميعاد النوم حتى في هذه الليلة. فقد قرر والدانا ألا يهتما بكوزيمو حتى لا يمنحاه شعورًا بالرضا أكثر من ذلك، منتظرين أن يثني التعب وقلة الراحة، وبرد الليل من عزمه. وصعد كلٌّ منا إلى مقره. وفي واجهة المنزل تفتح الشموع المنيرة أعينها الذهبية أمام التيارات الهوائية. يا للشعور بالحنين! يا للذكريات الدافئة التي يمكن أن تمنحها رؤية ذلك المنزل القريب لأخي الذي يقضي ليلته في الخلاء! وقفت أطل من نافذة حجرتنا، واستطعت تمييز ظله المنكمش على نفسه في إحدى فجوات شجرة البلوط بين الفرع والجذع، والملفوف في الغطاء، والمربوط — على ما أعتقد — بأكثر من لفة بالحبل حتى لا يسقط أرضًا.

ظهر القمر متأخرًا، وتلألأ فوق الفروع. تنكمش طيور القرقف هي أيضًا مثله في أعشاشها. وفي الليل، في الخلاء، يتخلل صمت الحديقة الكبيرة حفيف مئات الأصوات والضوضاء البعيدة، وهبوب الرياح. وتصل إلى الأسماع أصوات أمواج البحر آتية من بعيد. أما أنا فمن النافذة أصغي إلى هذا التنفس المتقطع، وأحاول أن أتخيل أن من يقبع على

بُعد أمتار قليلة يسمع ذلك الصوت، بعيدًا عن الطنين العائلي للمنزل الواقع خلفه، ذلك التنفس، ولكنه كان مستسلمًا له والليل يلفه، والشيء الوحيد القريب الذي يحتضنه هو جزع شجرةٍ لحاؤها خشن، تتخلله أنفاق دقيقة لا حصر لها تنام فيها اليرقات.

أويت إلى فراشي، ولكني لم أرغب في إطفاء الشمعة، ربما استطاع ضوء تلك الشمعة الخارج من نافذة حجرته أن يؤنسه في وحدته. كانت حجرتنا، بها سريران صغيران لصبية في مثل عمرنا. أنظر إلى فراشه الذي لم يمسسه أحد، وإلى الظلام الحالك الذي يلفه في الخارج، وأخذت أتدثر بالأغطية شاعرًا — وربما للمرة الأولى — بسعادة من يجد نفسه عاريًا حافي القدمين بداخل فراش دافئ وأبيض، وكأنني أشعر في الوقت نفسه ببؤسه وهو مربوط في الغطاء الخشن، وساقاه ملفوفتان بغطاء الكاحل من دون أن يتمكن من أن يدور بجسمه، وعظامه متيبسة. لم يتركني هذا الشعور قط منذ تلك الليلة؛ الشعور بحسن حظ من لديه فراش وملاءات نظيفة، ووسادة ناعمة! بهذا الشعور توجهت كل أفكاري لمدة ساعات إلى الشخص موضوع قلقنا، وعادت الأفكار لتنصبَّ كلها عليَّ، وهكذا غلبني النوم.

٤

لا أعرف هل ما ورد في الكتب من أنه في الأزمنة القديمة رحل قرد من روما قافزًا من شجرة إلى أخرى، واستطاع الوصول إلى إسبانيا من دون أن يلمس الأرض حقيقي أم لا. ولكن في زمني كانت المقاطعة الكثيفة الأشجار هي خليج أومبروزا بطوله، ووواديها حتى قمم جبالها؛ ولذلك اكتسبت منطقتنا شهرتها.

والآن، لم تعد تلك المناطق كالسابق، وبدأ ذلك حينما أتى الفرنسيون وبدءوا يقطعون الغابات وكأنها مراع يحصدونها كل عام ثم تنمو من جديد. ولكنها لم تنمُ مرة ثانية، وبدت شأنًا من شئون حرب نابليون في ذلك الزمان، ولكنه لم يتوقف؛ فلقد أصبحت ظهورها عارية حتى إننا نحن الذين عرفناها من قبل، عندما ننظر إليها نتأثر كثيرًا.

آنذاك، حيثما نذهب كنا نجد دائمًا حولنا فروعًا وأغصانًا بيننا وبين السماء. المنطقة الوحيدة ذات الأشجار الأقل ارتفاعًا هي منطقة أشجار الليمون، ولكن حتى في المنتصف ترتفع أشجار التين الملتوية، والتي تغطي سماء البساتين كلما اقترب الجبل بأوراقها الثقيلة، وإذا لم تظهر أوراق التين ظهرت أوراق أشجار الكرز بفروعها البنية، أو أشجار السفرجل الناعمة، أو الخوخ، أو اللوز، وأشجار الكمثرى الشابة، وأشجار البرقوق السخية، وأشجار الخروب، ذلك في حالة عدم وجود أشجار شجرة توت، أو شجرة جوز عتيقة. وبانتهاء البساتين تبدأ أشجار الزيتون بلونها الرمادي كالفضة، وكأنها سحابة نابعة من وسط الجبل. وعلى المدى البلدة مكدسة بين الميناء في أسفل والصخرة في أعلى، وأيضًا بين الأسطح تبزغ فروع النباتات، وأشجار السنديان، والبلوط الأخضر، والدلب، وأيضًا البلوط الزهري. ونباتات أخرى بلا فائدة، تتغير ثم تتخذ لها مكانًا في المنطقة حيث بنى النبلاء الفيلات وأحاطوا حدائقها بالأسوار والأبواب الحديدية.

وفوق حقول الزيتون تبدأ الغابة. لا بد أن أشجار الصنوبر كانت تهيمن على القُطر كله؛ لأنه ما زالت آثارها من جذوع الأشجار، وبقاياها من آثار الغابة تصل إلى أسفل المنحدر وصولًا إلى شاطئ البحر نفسه، وهكذا أيضًا أشجار اللاركس. بدت أشجار البلوط أكثر انتشارًا وكثافة مما تبدو عليه اليوم؛ لأنها أولى وأقيم ضحايا الفئوس. وكلما اتجهنا إلى أعلى تركت أشجار البلوط مكانها لأشجار الكستناء، وتصعد الغابة الجبل، ولم يكن لها حدود. هذا هو عالم الأشجار الذي عشنا بداخله، دون أن ندرك ذلك.

ولكن أول من توقف بأفكاره أمام ذلك العالم كان كوزيمو. أدرك كوزيمو أنه نظرًا إلى كثافة النباتات، يمكنه أن يعبر من فرع إلى آخر، وينتقل بهذه الطريقة أميالًا عديدة، من دون الحاجة إلى أن يهبط أرضًا. أحيانًا يجبره جزء من الأرض العارية على أن يسلك دروبًا طويلة جدًّا، ولكنه سرعان ما تدرب على كل البدائل الضرورية وكان يقيس المسافات ليس بمقاييسنا؛ ولكنه يضع في حسبانه الطريق الملتوي الذي يجب أن يسلكه فوق الفروع، وأخذ يستخدم لذلك كل الوسائل المطلوبة لكي يتمكن بقفزة واحدة من أن يصل إلى أقرب فرع، ولكنني سأشرح هذا فيما بعد. الآن نحن ما زلنا في الفجر الذي استيقظ فيه فوجد نفسه على قمة شجرة بلوط، وبين صياح طيور الزرزور وبلل الندى البارد، وهو يشعر بالتجمد وعظامه متيبسة، ويشعر بالتنميل في قدميه وذراعيه، أخذ كوزيمو يكتشف — بسعادة — العالم الجديد.

وصل إلى آخر شجرة من أشجار البستانين، وكانت شجرة دلب. وهناك يتدرج الوادي تحت سماء ملبدة بالضباب والدخان الذي يتصاعد من أسقف اردوازية لبيوت ريفية منعزلة مختبئة خلف السواحل الصخرية وكأنها أكوام من الحجر؛ سماء من الأوراق المرتفعة في الهواء، أوراق أشجار التين والكرز. وتحتها أشجار البرقوق والخوخ تتفرع بفروعها الغليظة. بدا كل شيء واضحًا، حتى العشب يمكن رؤيته ورقة ورقة، إلا لون الأرض؛ حيث تغطيها أوراق الفناء المتدلية، أو فسائل الخس، أو القرنبيط، وهكذا الحال في طرفي الوادي الذي يتسع على شكل V وصولًا إلى البحر.

وكان يجري في هذه الطبيعة وكأنه الأمواج. لم يكن مرئيًّا، أو مسموعًا — إلا من حين لآخر — ولكن ما يُسمع يكفي ليسبب القلق: دوي صراخٍ حاد مفاجئ، ثم صوت سقوط، أو ربما أيضًا صوت كسر فرع ما، ثم صراخ مرة أخرى، ولكنها صرخات غاضبة هذه المرة، تتلاقى في المكان الذي جاءت منه الصرخات الحادة من قبل. ثم لا شيء، نشعر باقتراب شيء ما يجب علينا انتظاره، ليس في هذه الناحية وإنما في جهة أخرى من الوادي. بالفعل تتكرر

الضوضاء والأصوات نفسها، ربما مصدر تلك الأصوات، القادمة من هنا وهناك، يأتي دومًا من حيث تحرك الرياح أوراق أشجار الكرز الصغيرة المسننة. ولذلك كوَّن كوزيمو بالجزء الشارد من ذهنه — بينما يحاول أن يفهم ويدرك كل شيء مقدمًا بالجزء الآخر — تلك الفكرة: أن أشجار الكرز تتكلم.

توجه كوزيمو نحو أقرب شجرة إليه، بل إلى صف من أشجار الكرز العالية المورقة بلونها الأخضر المليئة بالكرز الأسود. ولم تكن عينا أخي معتادة بعدُ على التمييز بين الموجود من الفروع وما لا وجود له. فمكث هنالك. في البداية سمع ضوضاء، ثم اختفى الصوت. في حين يجلس على أكثر الفروع انخفاضًا، شعر وكأن كل فروع الكرز التي تعلوه تجثم فوقه، ولم يعرف أي تفسير لذلك، بدت جميعها وكأنها تتلاقى عنده، وبدت كشجرة بها عيون بدلًا من الكرز. رفع كوزيمو وجهه، وعندئذٍ سقطت ثمرة كريز ناضجة جدًّا فوق جبهته. حدق بعينيه لينظر إلى أعلى تجاه السماء (حيث بدأت الشمس في الصعود)، فرأى أن هذه الشجرة والأشجار المجاورة تمتلئ بالأولاد المختبئين بين فروعها.

ما إن أدركوا رؤيته لهم حتى تخلوا عن صمتهم، وبأصوات حادة، مع أنها مكتومة، رددوا يقولون عبارات مثل: انظروا إليه هناك. كم هو جميل. وأبعدوا ما أمامهم من أوراق، نزل كل منهم من الفرع الأعلى إلى الفرع الأسفل تجاه الصبي ذي القبعة الثلاثية القرون. كانوا عراة الرءوس، بعضهم يرتدي قبعات قش مهترئة، والبعض الآخر يغطي رأسه بأكياس. يرتدون سراويل وقمصانًا ممزقة. أما عن أقدامهم فمن لم يكن عاري القدمين كان يرتدي قماطًا من القماش، وبعضهم يحمل قبقابه حول رقبته، إذ خلعوها ليتمكنوا من التسلق. كانوا عصابة الصبية الكبيرة الذين يسرقون الفاكهة، والذين طالما ابتعدنا عنهم أنا وكوزيمو، إطاعة لأوامر العائلة. ولكن في ذلك الصباح لم يبدُ أن أخي يبحث عن غيرهم مع أنه هو شخصيًّا لم يعرف آنذاك ماذا يريد.

مكث في مكانه ساكنًا ينتظرهم، بينما يهبطون ويشيرون إليه، ويطلقون عليه عبارات ينطقونها بأصوات فجة مثل: ما الذي يوجد هنا ويبحث عنه هذا الشخص؟ وأخذوا يبصقون على وجهه بنواة الكرز، أو يقذفونه بالفاسد منها، أو الذي تعرض لنقر طائر الشحرور، وذلك بعد أن يجعلوها تدور في الهواء على فروعها بحركة تشبه حركة ضارب المقلاع.

وبمجرد أن رأوا سيفه المعلق وراء ظهره صرخوا جميعًا: ياه ... هل رأيتم ماذا لديه؟! إنه خنجر! ثم تعالت الضحكات.

فجأة التزموا الصمت وكتموا الضحكات، لأن أمرًا ما على وشك الحدوث سيسليهم بشدة، فلقد صعد اثنان من أولئك الأوغاد الصغار، وتسللا في صمت إلى الفرع الموجود مباشرة أعلى كوزيمو ودلَّيا منه جوالًا مفتوحًا فوق رأسه مباشرة (تلك الأجولة القذرة التي يستخدمونها بالتأكيد ليضعوا فيها غنائمهم، وعندما تفرغ يضعونها فوق رءوسهم وكأنها طراطير تتدلى على أكتافهم). سيجد أخي نفسه بعد برهة وقد غطى الجوال وجهه دون أن يدرك كيف. ويمكنهم أن يربطوه بعد ذلك كشيء لا حيلة له، ويوسعونه ضربًا.

أدرك كوزيمو الخطر، أو ربما لم يدرك أي شيء، ربما شعر أنهم يسخرون منه بسبب سيفه الصغير فأراد أن يستله ردًّا لكرامته، ورفعه إلى أعلى، فلمس نصله الجوال فرآه، وبحركة بارعة انتزعه من يد اللصين الصغيرين وقذفه بعيدًا.

حركة بارعة بالفعل، صاح بعدها الآخرون: «آه!» صيحة إحباط وإعجاب في آنٍ واحد. ونظروا إلى رفيقيهما اللذين فقدا الجوال من بين أيديهما وأغرقوهما بوابل من السباب بلهجاتهم الخاصة.

ولم يكن لدى كوزيمو متسع من الوقت ليحتفي بنجاحه. ففي هذه اللحظة انطلق غضب مضاد من الأرض، انطلقت أصوات النباح، وأخذت الحجارة تنهال عليهم، وانطلق الصراخ: هذه المرة لن تهربوا منا أيها اللصوص الأنذال! وارتفعت أطراف الخطافات في الهواء. قبع اللصوص الصغار على فروع الشجرة، وأخذوا يرفعون أقدامهم ومرافقهم. نبهت الضوضاء حول كوزيمو المزارعين الذين يقفون في حالة من التأهب والاستعداد.

أُعد الهجوم بكل القوى، فلقد اتحد كثير من الملاك الصغار ومستأجري الأراضي الزراعية في الوادي بعد أن أنهكتهم سرقة فاكهتهم بمجرد نضجها، حيث استراتيجية سارقي الفاكهة هي أن ينقضُّوا معًا على الحديقة نفسها، فينهبوها، ثم يهربوا جميعًا من الجهة الأخرى، ليبدءوا من جديد. ولم توجد وسيلة للوقوف أمام هذا الأسلوب سوى أن يجتمعوا جميعًا في بستان متوقع أن يقتحمه اللصوص في وقت قريب وأن يقبضوا عليهم في وسطها. بعد أن تحررت الكلاب من كماماتها، وأخذت تنبح وهي تقفز عند جذوع أشجار الكرز بأفواهها المليئة بالأسنان الحادة، وخطافات التبن ترتفع إلى الهواء. وبمجرد أن قفز ثلاثة أو أربعة من اللصوص الصغار إلى الأرض أخذت أسنان خطافات التبن الثلاثية تنخز ظهورهم، وطالت أسنان الكلاب سراويلهم، فأخذوا يجرون بعيدًا وهم يصرخون ويقتحمون برءوسهم حقول الكرم هاربين. وهكذا لم يجرؤ أحد على النزول، مكثوا في أماكنهم على فروع الأشجار ومعهم كوزيمو، وبدأ المزارعون يضعون السلالم بالفعل على الأشجار، ويصعدون شاهرين خطافاتهم بأسنانها الحادة.

استغرق الأمر دقائق قبل أن يدرك كوزيمو أنه لا معنى لأن يصاب هو بالفزع بسبب إصابة أفراد عصابة المتشردين بالخوف، كما أن فكرة أن هؤلاء الصبية أمهر منه هي أيضًا فكرة لا معنى لها، والدليل على ذلك أنهم مكثوا في أماكنهم مبهوتين. ماذا ينتظرون لكي يهربوا إلى الأشجار المجاورة؟ لقد وصل أخي إلى حيث هو بهذه الطريقة، ويمكنه أن يرحل بالطريقة نفسها؛ وضع قبعته الثلاثية على رأسه، وبحث عن الفرع الذي استخدمه كجسر، وعبر من شجرة الكرز إلى شجرة خروب، وتعلق بأحد فروع شجرة الخروب، ونزل إلى شجرة برقوق، وهكذا. أما هم، فبمجرد أن رأوه يسير فوق تلك الفروع وكأنه يسير في أحد الميادين أدركوا أن عليهم أن يتبعوه فورًا وإلا فمَن يدري كم سيتألمون قبل أن يعثروا على طريق للنجاة؛ فتبعوه في صمت، زحفًا في ذلك الطريق المتعرج. أما هو، فأخذ يتسلق شجرة تين وعبر سياج الحقل، وقفز فوق شجرة خوخ، ونظرًا لأن فروعها لينة طرية فلم يستطع أن يعبر فوقها إلا باستخدام فرع واحد في المرة. فشجرة الخوخ تُستخدم فقط ليتعلق على جذع شجرة زيتون المعوج، والذي يبرز خلف أحد الأسوار. وبقفزة واحدة من فوق شجرة الزيتون أصبح فوق شجرة بلوط، والتي تمد أحد فروعها القوية لتعبر مجرًى مائيًّا، ومن هناك يمكن العبور إلى أشجار الناحية الأخرى.

أما الرجال المسكون بالخطافات، والذين اعتقدوا أنهم أوقعوا لصوص الفاكهة بين أيديهم، رأوهم يهربون في الهواء كالطيور. أخذوا يطاردونهم وهم يجرون مع الكلاب التي تنبح، ولكن اضطروا للدوران حول السياج، ثم حول السور، ثم إنه عند تلك النقطة من مجرى المياه لا جسور، ولكي يجدوا معبرًا أضاعوا الكثير من الوقت فهرب المشردون بعيدًا بالفعل.

أخذوا يجرون وأقدامهم على الأرض، وبقي أخي على فروع الأشجار وحده، وأخذوا يتساءلون، عندما لم يروه أمامهم: أين ذلك الطائر ذو الجراميق. رفعوا أنظارهم إلى أعلى، فكان يتنقل بين أشجار الزيتون. قالوا له: هيه، اهبط إلى هنا، لن يستطيعوا الإمساك بنا الآن! لكنه لم يهبط، استمر يقفز من فرع إلى آخر، ومن شجرة زيتون إلى أخرى، واختفى عن الأنظار بين الأوراق الفضية الكثيفة.

كان فريق الصغار المتشردين بأجولتهم التي يلبسونها كالطرطور وفي أيديهم العصي يسرقون بعض أشجار الكرز في نهاية الوادي. يعملون تبعًا لمنهج معين، فهم يجردون فرعًا فرعًا، وعندئذ، وعلى قمة أعلى الأشجار رأوا الصبي ذا الجراميق جاثمًا بساقيه المعقودتين يفرِّق بإصبعيه ثمار الكرز، ثم يضعها في قبعته الثلاثية المستندة إلى ركبتيه، فسألوه بغطرسة: من أين أتيت؟

ولكنهم اغتاظوا حيث بدا وكأنه وصل إلى هناك طائرًا.

يأخذ أخي الكرز الواحدة تلو الأخرى من قبعته الثلاثية، ويضعها في فمه وكأنها حلوى، ثم يبصق بعيدًا نواة الكرز بنفخة من بين شفتيه، منتبهًا ألا تلطخ صدارته.

قال أحدهم: آكل الآيس كريم هذا، ماذا يريد منا؟ لماذا يلاحقنا؟ لماذا لا يأكل الكرز الموجود في حديقته؟ ولكنهم يشعرون ببعض الخجل لأنهم أدركوا أنه أمهر منهم فوق الأشجار.

قال آخر: إن من بين آكلي الآيس كريم، يولد خطأً من حين إلى آخر واحد أبرع من غيره. فلتتذكروا سينفوروزا.

أنصت كوزيمو باهتمام إلى هذا الاسم الغامض، ولم يعرف لماذا احمر وجهه.

قال آخر: لقد خانتنا سينفوروزا.

– ولكنها غاية في المهارة، مع أنها آكلة آيس كريم مثله. لو أنها موجودة لتنفخ في البوق هذا الصباح لما أمسكوا بنا.

– يمكن أن يبقى معنا أحد آكلي الآيس كريم، وهذا مفهوم، إذا أراد أن يصبح واحدًا منا!

أدرك كوزيمو أن آكلي الآيس كريم هم ساكنوا الفيلات، أو النبلاء، أو إنسان في مرتبة عالية.

قال له أحدهم: اسمع أنت، الشروط واضحة؛ إذا أردت أن تنضم إلينا، ستشاركنا في ضرباتنا، وتعلمنا كل الطرق التي تعرفها.

وقال آخر: وتتركنا ندخل حديقة فواكه أبيك! لقد قذفوني بالملح في إحدى المرات!

يستمع كوزيمو إليهم وهو غارق في فكرة أخرى، ثم قال: ولكن قولوا لي، من هي سينفوروزا؟

عندئذٍ انفجر كل أولئك المتشردين المتفرقين بين الفروع في الضحك، وأخذوا يضحكون حتى كاد أن يسقط بعض منهم من فوق شجرة الكرز، وبعضهم أخذ يلقي بنفسه إلى الخلف ممسكًا بفرع الشجرة بقدميه، ومنهم من بقي معلقًا وهو ممسك به بيديه، وهو يقهقه ويصرخ. وبالطبع فإنه بسبب تلك الضوضاء وجدوا مطارديهم في أعقابهم من جديد. بل لا بد أنهم كانوا قد وصلوا بالفعل؛ فريق المطاردين ومعهم الكلاب، لأن أصوات النباح ارتفعت مرة أخرى، وها هم جميعًا كل بمذراته. إلا أنهم في هذه المرة، بعد أن اختبروا تحركاتهم السابقة، كان أول شيء قاموا به هو احتلال كل الأشجار حولهم، وذلك

بأن صعدوا إليها بالسلالم، ومن هناك ومعهم مذراتهم وكلاليبهم، أحاطوا بهم، أما على الأرض فلم تعرف الكلاب توًّا، لانتشار الرجال بين الأشجار، إلى أين تتجه، فمكثت مشتتة، بعض الوقت، تنبح وأنوفها في الهواء. وهكذا استطاع اللصوص الصغار أن يلقوا بأنفسهم سريعًا على الأرض، وأخذ كل منهم يجري في اتجاه وسط الكلاب المرتبكة. وإذا كان بعضهم قد أصيب بعضة في مؤخرته، أو بضربة عصا، أو بحجر، إلا أن أكثرهم استطاعوا إخلاء الساحة سالمين.

ومكث كوزيمو فوق الشجرة، وأخذ الآخرون يصرخون فيه وهم يفرون طلبًا للنجاة: انزل! ماذا تفعل؟ هل تنام؟ اقفز على الأرض ما دام الطريق خاليًا! أما هو، وقد ضم بركبتيه فرع الشجرة، فقد استل سيفه. وبدأ المزارعون على الأشجار المجاورة يتقدمون بمذراتهم المربوطة في قمم العصي ليصلوا إليه، وكوزيمو يبعدها عنه بضربات سيفه، حتى سددوا واحدة منها إلى صدره وثبتوه في جذع الشجرة.

صرخ صوت: توقف! إنه بارون بيوفاسكو الصغير! ماذا تفعل يا سيدي الصغير، هنا في أعلى؟ وكيف تختلط بأولئك المتشردين؟

تعرَّف كوزيمو إلى جوديلا فارسكا، أحد عمال والدنا.

ابتعدت مذرات المزارعين على الفور، رفع كثيرون من الفريق قبعاتهم الجلدية، وأخي نفسه رفع قبعته الثلاثية القرون عن رأسه وانحنى لهم.

وصاح أولئك: هيه! أنتم في أسفل، قيدوا الكلاب! أنزلوه! يمكنك أن تنزل يا سيدي الصغير، ولكن احترس، فالشجرة عالية! انتظر، سنضع لك سلمًا! ثم سأصحب سيادتك بنفسي إلى المنزل!

قال أخي: لا، شكرًا شكرًا، لا تزعجوا أنفسكم، أنا أعرف طريقي! أعرف طريقي وحدي!

اختفى خلف الجذع، وظهر فوق فرعٍ آخر، ثم دار مرة أخرى خلف الجذع، وظهر فوق فرعٍ أعلى، ثم اختفى وراء الجذع وظهر فقط قدماه على فرعٍ أعلى، فقد كانت الأغصان كثيفة في تلك البقعة، اختفت القدمان، ولم يروا شيئًا بعد ذلك.

تساءل الرجال: أين ذهب؟ ولم يعرفوا أين ينظروا: إلى أعلى أم إلى أسفل.

– ها هو!

كان على قمة شجرة أخرى بعيدة، ثم اختفى من جديد.

– ها هو!

كان على قمة شجرة أخرى أيضًا، ويتأرجح وكأن الرياح تحمله، ثم قفز.

– لقد وقع، لا، ها هو! وكانت تظهر مع تمايل أوراق قمة الشجرة الخضراء قبعته الثلاثية وضفيرته.

سأل الآخرون جواديلا فاسكا: ولكن من سيدك هذا؟ أهو إنسان أم حيوان بري؟ أم أنه الشيطان نفسه؟

مكث جواديلا فاسكا صامتًا، ورسم علامة الصليب.

وسمعوا غناء كوزيمو، ولكنه كان كنوع من الصياح الملحن.

– آوه ...! سينفوروزا ...!

٥

سينفوروزا: رويدًا رويدًا، عرف كوزيمو من أحاديث اللصوص الصغار، كثيرًا عن هذه الشخصية. فهذا الاسم كانوا يطلقونه على فتاة من قاطني الفيلات، تتجول وهي تمتطي حصانًا صغيرًا أبيض اللون، وكانت قد عقدت صداقة مع هؤلاء المتشردين، ولفترة من الوقت كانت تحميهم، وبسبب قوة شخصيتها استطاعت أيضًا قيادتهم. اعتادت أن تجري على حصانها الأبيض في الطرق والدروب، وعندما ترى فاكهة ناضجة في حدائق لا يحرسها أحد تبلغهم، وتصحبهم في هجماتهم من فوق صهوة جوادها وكأنها ضابط. وكانت تحمل حول رقبتها بوق الصيد. وبينما ينهبون ثمار اللوز أو الكمثرى، تجري بحصانها هنا وهناك على حدود المنطقة، وبمجرد أن تشعر بأية حركة مريبة من أصحاب الأرض أو الفلاحين قد يكشفوا من خلالها اللصوص وينقضوا عليهم؛ تبدأ في النفخ في البوق. وعند سماعهم هذا الصوت يقفز المتشردون من فوق الأشجار ويفرون بعيدًا؛ وهكذا لم يستطع أحد مفاجأتهم قط، ما دامت تلك الفتاة معهم.

ما حدث بعد ذلك كان الأصعب على الفهم: تلك «الخيانة» التي ارتكبتها سينفوروزا ضدهم؛ إذ يبدو أنها اجتذبتهم إلى فيلتها ليأكلوا الفاكهة ثم جعلت الخدم يوسعونهم ضربًا؛ وربما لأنها على ما يبدو اختارت من بينهم صبيًّا يدعى بيل لوري، ولهذا السبب ما زالوا يسخرون منه، وفي الوقت نفسه توددت إلى صبي آخر يدعى أوجاسو، ثم دبرت للوقيعة بينهما، وأن الضرب الذي ذاقوه من خدمها لم يكن بسبب سرقة الفاكهة، ولكنها حملة قام بها الغيورون، وذلك بعد أن تحالفا ضدها. وكانوا يتحدثون أيضًا عن فطائر وعدتهم بها أكثر من مرة، ثم أحضرتها لهم، ولكنها تبلتها بزيت الخروع، ولذلك أخذوا يتلوون من آلام بطونهم لمدة أسبوع. وبعض هذه الأحداث، أو أحداث شبيهة، أو ربما هذه

الأحداث مجتمعة، قد أدت إلى تلك القطيعة بين سينفوروزا والعصابة، وهم الآن يتحدثون عنها بغضب، ولكن — في الوقت نفسه — بنوع من الحسرة.

ينصت كوزيمو إلى كل هذه الأشياء مصدقًا، وكأن كل تفاصيل يقولونها تكوِّن صورة معروفة لديه، وفي النهاية قرر أن يسأل: ولكن في أي فيلا تسكن سينفوروزا هذه؟

– كيف هذا، هل تريد أن تقول إنك لا تعرفها؟ إنكما جاران! إن سينفوروزا تسكن في فيلا أونداريفا؟!

بالتأكيد لم يكن كوزيمو بحاجة إلى هذا التأكيد ليوقن أن صديقة المتشردين هي فيولا، فتاة الأرجوحة. وأعتقد أن سبب بحثه عن العصابة هو لأنها قالت له إنها تعرف كل لصوص الفاكهة الموجودين في الجوار. إلا أنه منذ تلك اللحظة أصبحت تلك هي الحمى التي تحركه، ومع أنها غير محددة، أصبحت أكثر حدة. فحينًا يرغب في أن يقود العصابة لتسرق الفاكهة من أشجار فيلا أونداريفا، وفي حين آخر يرغب في أن يضع نفسه في خدمتها ضدهم، بعد أن يحثهم في البداية على مضايقتها ليذهب بعد هذا للدفاع عنها، وفي حين آخر يقوم بأعمال بطولية لتصل أخبارها بصورة غير مباشرة إلى أسماعها. ووسط كل هذه الأهداف يتبع العصابة بالتصاق أكثر، وعندما ينزلون من الأشجار يمكث هو وحيدًا، وتغطي وجهه مسحة من الحزن، كالسحاب الذي يمر ويغطي وجه الشمس.

ثم ينهض فجأة وبسرعة وكأنه القط يتسلق الفروع، ويعبر على أشجار الفاكهة والحدائق، وهو يغمغم ويتغنى، بماذا؟ لا أدرى! كان غناؤه غناءً عصبيًّا، صامتًا تقريبًا، وعيناه مركزتان إلى الأمام وكأنهما لا تريان شيئًا بينما يحافظ على توازنه بالغريزة تمامًا كالقطط.

في هذه الحالة من الثورة رأيناه مرات عدة، يعبر على فروع أشجار حديقتنا فكنا ننفجر صارخين: إنه هناك، هناك! لأننا مع كل محاولاتنا لأن نفعل شيئًا ظل هو مركز تفكيرنا، وكنا نحصي الساعات والأيام التي مكث فيها فوق الأشجار، ويقول أبي: إنه مجنون! لا بد أن به روحًا شريرة! ثم يصب غضبه على الأب فوشيلافلور: لم يبقَ سوى إخراج الأرواح الشريرة! ماذا تنتظر أنت إذن، إنني أتحدث إليك أنت أيها الأب الكاهن، لماذا تقف مكتوف الأيدي؟! لقد لبس الشيطان جسد ابني، هل تفهم؟ ليكن اسم الله مقدسًا!

عندئذٍ ينتفض الأب الكاهن فجأة، فكلمة «الشيطان» توقظ في ذهنه، على ما يبدو، سلسلة معينة من الأفكار، وعندئذٍ يبدأ خطابًا لاهوتيًّا معقدًا جدًّا حول المفهوم السليم لوجود الشيطان، ولم يكن من الواضح إذا كان يريد معارضة أبي، أو أنه يتحدث فقط

حديثًا عامًّا. وعلى كل حال، لم يُبدِ رأيًا حول إمكانية وجود علاقة بين الشيطان وأخي، أم أنه أمر مستبعد نهائيًّا.

كان البارون يفقد صبره، والأب الكاهن يفقد خيط أفكاره، وأشعر أنا بالملل. أما حالة القلق لدى أمنا فقد تحولت من شعور متدفق يهدد كل شيء إلى قرارات عملية وإلى البحث عن أدوات مناسبة، وهو ما يحدث عادة لها بعد فترة مع مختلف المشاعر، تمامًا مثلما يحدث مع هموم القائد العسكري. أخرجت منظارًا طويلًا له قاعدة ثلاثية القوائم؛ ووضعت عينيها عليه. وهكذا كانت تقضي الساعات في شرفة الفيلا، وهي تضبط بانتظام وضع العدسات لترصد حركة الفتى وسط أوراق الأشجار، حتى وإن كنا نقسم لها أحيانًا أنه خارج مجال الرؤية.

كان والدنا يسألها وهو يذهب ويجيء تحت الأشجار، ولا ينجح في أن يلمح كوزيمو، إلا إذا كان يقف فوق رأسه تمامًا.

– هل ما زلت ترينه؟!

كانت الجنرالة تشير إليه بنعم، ثم تشير في الوقت نفسه بالتزام الصمت وألا نزعجها، وكأنها تتابع تحركات قوات عسكرية فوق أحد المرتفعات. وكان واضحًا أنها لا تراه أحيانًا، ولكنها أقنعت نفسها، من يدري لماذا، بأنه يجب أن يظهر في مكان بعينه، وليس في مكان آخر، ونحوه توجه منظارها المكبر. ولكنها من حين إلى آخر، بينها وبين نفسها، تعترف بأنها أخطأت، عندئذٍ ترفع عينيها عن العدسة، وتبدأ في فحص خريطة خاصة بمساحة الأراضي تضعها مفتوحة على ركبتيها، وإحدى يديها فوق فمها منهمكة في التفكير، والأخرى تتبع رموز الخريطة الغريبة. بمجرد أن تحدد المكان الذي يجب أن يكون ابنها قد وصل إليه، وبمجرد أن تحسب الزوايا، تسدد المنظار المكبر تجاه أية قمة شجرة في وسط هذا البحر من الأوراق، ثم تبدأ في ضبط العدسات، وبمجرد أن تظهر على شفتيها تلك الابتسامة المرتعشة ندرك على الفور أنها قد رأته، وأنه هناك بالفعل!

عندئذٍ تمسك في يدها ببعض الأعلام الملونة التي تضعها بجوار الكرسي الخشبي، ثم تبدأ في التلويح بأحدها ثم بالآخر بحركات حاسمة، إيقاعية، وكأنها ترسل رسائل بلغة متفق عليها (وشعرت أنا بغصة لأنني لم أكن أعرف أن أمنا تملك تلك الأعلام الصغيرة وتعرف كيفية استخدامها، فمن المؤكد لو علمتنا اللعب معها بتلك الأعلام لكان ذلك شيئًا جميلًا — وخاصة قبل ما حدث — عندما كنا نحن الاثنين أصغر سنًّا؛ ولكن أمنا لم تعتد على أن تفعل أي شيء بغرض اللعب، والآن لم يعد أي أمل في ذلك قط).

يجب أن أقول إنه بالرغم من كل معدات الحرب التي لديها، فإنها مجرد أم يعتصر الألم قلبها، تكور المنديل في يدها، ولكن ربما يمكن القول إن دور الجنرالة يريحها، وإن اختيارها أن تعيش هذا الموقف المخيف وهي ترتدي شخصية الجنرالة بدلًا من أن تستمر كأم عادية؛ يجنبها الشعور بالتمزق، وذلك لأنها امرأة غاية في الرقة، وكان الأسلوب العسكري الذي ورثته عن أسرة فون كورتفيتس هو وسيلة الدفاع الوحيدة لديها.

في حين تحرك أحد تلك الأعلام الملونة وهي تنظر بمنظارها المكبر، إذ بوجهها يضيء وتضحك، وفهِمنا أن كوزيمو قد أجابها. كيف؟ لا أعرف، ربما لوح لها بقبعته، أو هز فرع شجرة. من المؤكد أن أمنا قد تغيرت منذ تلك اللحظة، ولم تعد تشعر بالفزع الذي شعرت به في البداية، وإذا أضحى قدرها كأم مختلفًا عن قدر أي أم أخرى بسبب غرابة ابنها، وبسبب فقدانه للعواطف المعتادة إلا أنها استطاعت أن تصبح أول من قبِل غرابة كوزيمو وكأنها قانعة بتلك التحيات غير المتوقعة التي من الآن فصاعدًا، ومن حين إلى آخر، سيرسلها إليها، وتلك الرسائل الصامتة التي سيتبادلانها.

والشيء الغريب أن أمنا لم تتوهم قط أن كوزيمو بإرساله التحية له يعد نفسه لأن يضع حدًّا لهروبه، وليعود مرة أخرى بيننا. ولكن والدنا عاش دائمًا في ذلك الوهم، وأي خبر جديد يتعلق بكوزيمو تدفعه ليعلن: آه ... نعم؟ هل رأيتم؟ سيعود؟ ولكن أمنا، ربما لأنها مختلفة عنه تمامًا، بدت الوحيدة المستعدة لقبول كوزيمو على ما هو عليه، ربما لأنها لم تحاول أن تجد تفسيرًا لهذا الموقف.

لنعد إلى ذلك اليوم. خلف أمنا تقف للحظة أيضًا باتيستا، التي لم تكن تطل قط، وبطريقة لطيفة تمد طبقًا به نوع من الحساء وترفع ملعقة: كوزيمو ... أتريد؟! فنالت على ذلك صفعة من والدها وعادت إلى المنزل. من يدري أي نوع من القاذورات أعدت. واختفى أخونا.

انتابتني رغبة جنونية لأن أتبعه، وخاصة الآن وقد عرفت أنه يشارك في مغامرات تلك العصابة من اللصوص الصغار، يبدو لي وكأنه قد فتح أمامي أبواب مملكة جديدة، ولكن أنظر إليها، لا بالخوف المتشكك كذي قبل، ولكن بحماس تضامني. اتخذت مسارًا مكوكيًّا بين سطح المنزل ومبنى عالٍ فوقه، ومنه استطعت أن أجول بناظري فوق أغصان الأشجار، ومن هناك أستعين بحاسة السمع أكثر من النظر، وأتابع صخب العصابة وسط البساتين، وأرى قمم أشجار الكرز وهي تتحرك. ومن حين إلى آخر تظهر يد تتحسس وتقطف الثمار، أو رأس أشعث الشعر أو يغطيه جوال. وبين تلك الأصوات كنت أسمع

أيضًا صوت كوزيمو، فأتساءل: «ولكن كيف يستطيع أن يذهب لهناك؟ لقد كان هنا في الحديقة منذ فترة وجيزة! هل أصبح يتحرك فوق الأشجار أسرع من السنجاب؟»

وأتذكر أنهم كانوا فوق أشجار البرقوق الأحمر فوق الحوض الكبير عندما سمعوا صوت البوق. وسمعته أنا أيضًا، ولكنني لم أنتبه له، فلم أكن أعرف كنهه. وأما رد فعلهم هم! فقد قص عليَّ أخي أن الدهشة قد عقدت ألسنتهم، ومن فرط مفاجأة استماعهم لصوت البوق يبدو وكأنهم لم يتذكروا أنه كان إشارة إنذار، ولكنهم أخذوا يتساءلون فقط فيما بينهم هل سمعوا ذلك جيدًا، وهل هي سينفوروزا من جديد تتجول في المدقات بحصانها القزم لتحذرهم من الخطر. وفي لحظة واحدة هربوا من بستان الفاكهة، ولكنهم لم يهربوا ليبتعدوا خوفًا؛ ولكن بحثًا عنها، ووصولًا إليها.

لم يبقَ سوى كوزيمو في مكانه ووجهه أحمر كشعلة النار، ولكن بمجرد أن رأى المتشردين يجرون وأدرك أنهم ذهبوا ليبحثوا عنها؛ أخذ يقفز فوق الأغصان مخاطرًا بأن يدق عنقه مع كل خطوة.

كانت فيولا تقف عند منعطف أحد الطرق الصاعدة، ممسكة في إحدى يديها باللجام مستندة إلى شعر الحصان، والأخرى ترفع بها السوط الصغير إلى أعلى. أخذت تنظر من أسفل إلى أعلى إلى هؤلاء الصبية، وتضع طرف السوط في فمها وتعضه. ثوبها أزرق اللون، والبوق الذهبي اللون معلق في رقبتها بسلسلة. توقف الصبية جميعًا أخذوا هم أيضًا يقضمون إما البرقوق وإما أصابعهم، وإما إصابات كانت بأيديهم أو بأذرعهم، أو يقضمون أطراف الأجولة. ورويدًا رويدًا، ومن أفواههم القاضمة تلك، وكأنهم مجبرون على فعل شيء ليتغلبوا على استياء ما، وليس بدافع شعور حقيقي منهم، وكأنهم يتمنون أن يعارضهم أحد، بدءوا في النطق بصوت خافت؛ عبارات بدت ملحنة، وكأنهم يحاولون غناءها: ماذا أتيت ... لتفعلي ... يا سينفوروزا ... أتعودين الآن ... لم تعودي صديقتنا ... ها ها ها ... أيتها الجبانة.

أخذت الفروع تتحرك، ثم ها هو رأس كوزيمو يظهر من فوق شجرة تين عالية، بين ورقة وأخرى وهو يلهث. أما هي، فقد أخذت تنظر إليه وإليهم من أسفل إلى أعلى وذلك السوط في فمها، وهي تغطي الجميع بالنظرات نفسها. لم يتحمل كوزيمو، وانفجر قائلًا وهو ما زال لسانه خارجًا من فمه: أتعرفين أنني لم أنزل من فوق الأشجار من وقتها؟!

إن المغامرات القائمة على قوة داخلية يجب أن تظل غامضة وفي طي الكتمان؛ وبمجرد أن يعلن عنها أحد، أو أن يتباهى بها، يبدو كل شيء تافهًا، لا معنًى له، بل ويفقد قيمته.

هكذا، بمجرد أن تلفَّظ أخي تلك الكلمات، شعر أنه لم يكن يرغب في قول ذلك البتة، وأنه لم يعد يهمه شيء من أي شيء، بل شعر أيضًا بالرغبة في أن يهبط من فوق الأشجار وينهي الأمر برمته، وبالأخص عندما نزعت فيولا السوط ببطء من فمها وقالت بنبرة رقيقة: آه … أهو كذلك؟ يا لك من مكارٍ ماهر!

وهكذا بدأت الضحكات تتصاعد من أفواه الصبية القذرين، وذلك ليفتحوا بعد ذلك أفواههم أكثر، وينفجروا في صرخات تقطع الأنفاس، ومن فوق شجرة التين قفز كوزيمو قفزة قوية غاضبة إلى درجة أن غصن التين — لأنه خشب خائن — لم يصمد، وانكسر الفرع تحت قدميه، وسقط كوزيمو كحجر. سقط مفتوح الذراعين، ولم يتماسك، كانت هذه — في الحقيقة — المرة الوحيدة أثناء إقامته بين أشجار تلك الأراضي التي لم تكن لديه الرغبة ولا الفطرة ليمسك بشيء. إلا أن طرف ذيل بذلته تعلق في فرع منخفض؛ فوجد كوزيمو نفسه معلقًا ورأسه إلى أسفل على بعد أربعة أشبار من الأرض.

بدا له أن الدم في رأسه تدفعه حمرة الخجل نفسها، وأول فكرة واتته وهو يفتح عينيه في وضعهما المعكوس ويرى الصبية الصارخين في وضع مقلوب، وقد اجتاحتهم ثورة القفز والدوران في الهواء، حيث يظهرون واحدًا واحدًا بشكله المعتدل وكأنهم معلقون على أرض مقلوبة فوق الهاوية، والصبية الشقراء تطير على حصانها الصغير المنطلق، عندئذٍ الفكرة الوحيدة التي واتته هي أنها المرة الأولى التي تحدث فيها عن بقائه فوق الأشجار وأنها ستكون أيضًا المرة الأخيرة.

وبإحدى وثباته تعلق بالفرع وصعد عليه وجلس مدليًا ساقيه. أما فيولا، فبعد أن أعادت الحصان إلى هدوئه، بدت وكأنها لم تُعِر اهتمامًا لأي شيء مما حدث. نسي كوزيمو للحظة خجله، وضعت الفتاة البوق بين شفتيها وأطلقت نغمة التحذير الكئيبة. وعند سماعهم هذا الصوت قام المتشردون (والذين قال عنهم كوزيمو بعد ذلك: بأن وجود فيولا يثير أجسادهم كما يحدث للأرانب البرية في ضوء القمر) بإطلاق أقدامهم هربًا وتركوا أنفسهم لينطلقوا، وكأنه شيء غريزي مع أنهم يعرفون أنها تمزح، وهم أيضًا أكملوا معها اللعب، وأخذوا يجرون هابطين وهم يقلدون صوت البوق خلفها وهي تركض فوق حصانها الصغير ذي السيقان القصيرة.

أخذوا يجرون بسرعة وهم يكادون يدقون أعناقهم، فكانت تختفي أحيانًا من أمامهم. تجنبتهم فخرجت عن الطريق، تاركة إياهم هناك. ولكن إلى أين ذهبت؟ استمرت تقفز بين مزارع الزيتون التي تنزل الوادي في تدريج لطيف للمراعي، وهي تبحث عن شجرة

الزيتون التي يسير كوزيمو فوقها بصعوبة، وأخذت تدور حولها وهي تقفز، ثم فرت بعيدًا، ثم ظهرت من جديد أسفل شجرة زيتون أخرى، في حين يظهر أخي بين أغصانها. وهكذا أخذا يهبطان الوادي وهم يسلكان معًا طريقًا معوجًّا بين فروع أشجار الزيتون.

وعندما أدرك اللصوص الصغار، ورأوا تحركات الاثنين فوق الأغصان وعلى السرج، بدءوا جميعًا يصفرون، كان نوعًا من الصفير الخبيث والساخر، وأخذوا يرفعون أصوات صفيرهم وهم يبتعدون إلى أسفل تجاه بورتا كابيري.

ومكث أخي والفتاة الصغيرة يلاحق كل منهما الآخر في حديقة الزيتون، ولكن كوزيمو لاحظ بإحباط أن بمجرد اختفاء فريق المتشردين أخذت فرحة فيولا بتلك اللعبة تنطفئ وكأنها تقع فريسة للملل. وارتاب في أنها تفعل كل هذا فقط لتغضب الآخرين، ولكن على أمل أن تغضبه هو أيضًا معهم؛ ولكن الشيء المؤكد أنها دائمًا بحاجة إلى أن تُغضب أحدًا لتزداد قيمتها (كل هذه المشاعر لم يدركها كوزيمو وهو ما زال صبيًّا؛ فقد استمر في الصعود كالغبي بين قشور تلك الأشجار الخشنة وهو لا يفهم شيئًا، هذا ما أتخيله).

وعند دوران إحدى المرتفعات بدأ هجوم شرس وجيز من الرمي بالحجارة. خبأت الفتاة رأسها خلف عنق الحصان الصغير وهربت. أما أخي الظاهر للعيان فوق جذع شجرة، بقي هدفًا سهلًا؛ ولكن الأحجار الصغيرة تصل إلى أعلى ضعيفةً جدًّا فلا تسبب أي ألم، فيما عدا بعض الحجارة التي أصابته في جبهته أو في أذنيه. أخذ هؤلاء المجانين يضحكون ويصرخون: سينفوروزا ... مقززة ... ثم هربوا مبتعدين.

ووصل المتشردون إلى بورتا كابيري المحاطة بمساقط خضراء من نباتات القبار التي غطت الأسوار. ومن المنازل الخربة المحيطة تتصاعد صرخات الأمهات. ولم يكن هؤلاء أطفالًا تصرخ فيهم أمهاتهم في المساء كي يعودوا؛ وإنما تنهرهم أمهاتهم لأنهم عادوا، لأنهم عادوا ليأكلوا في المنزل بدلًا من أن يبحثوا عن طعامهم في مكانٍ آخر.

حول منطقة بورتا كابيري. في منازل صغيرة وأكواخ من الخشب، وعربات عرجاء وخيام، يجتمع أفقر سكان أومبروزا. كانوا فقراء إلى حد أنهم أقاموا خارج أسوار المدينة بعيدًا عن الحقول، فهم أناس هاجروا من أراضٍ وبلاد بعيدة، طردتهم منها المجاعة، أو البؤس المنتشر في كل بلد. وفي وقت الغروب، تحمل سيدات مشعثات الشعر أطفالًا على صدورهن ويهوين مواقد يتصاعد منها الدخان، بينما بعض المتسولين يتمددون وهم يفكون أربطة جروحهم، وآخرون يلعبون بالنرد ويصيحون صيحات متقطعة.

انغمس أفراد عصابة الفاكهة الآن في ذلك الدخان المتصاعد من القلي ومع أولئك المتشاجرين، فيتلقون الصفعات من أمهاتهم، وتشابكوا فيما بينهم بالأيدي وهم يتدحرجون

في التراب. واتخذت ملابسهم الممزقة لون كل الأثمال الأخرى، وتحولت بهجتهم التي تشبه بهجة الطيور، بعد أن سقطت في ذلك الفخ من الانحطاط الإنساني، إلى إحباط كثيف. حتى إنهم بمجرد ظهور الفتاة الشقراء راكضة وكوزيمو فوق الأشجار التي حولهم رفعوا بصعوبة عيونهم التي يملؤها الخجل، وانسحبوا إلى الداخل، محاولين الاختباء بين الأتربة ودخان المواقد، وكأن جدارًا قد ارتفع فجأة بينهم.

كل هذا كان بالنسبة إليهما مجرد لحظة، طرفة عين. والآن وقد تركت فيولا خلف ظهرها دخان الأكواخ الذي يختلط مع ظلال المساء وصرخات النساء والأطفال، أخذت تجري بعيدًا بين أشجار الصنوبر الممتدة على الشاطئ.

هناك كان البحر. يُسمع صوت التدحرج بين الحصى. كان الجو مظلمًا، وتُحدث الدحرجة صريرًا عاليًا؛ كان هذا صوت المهر الذي كان يجري وهو يطلق شرارًا باحتكاكه بالحصى.

ومن فوق شجرة صنوبر منخفضة معوجة ينظر أخي إلى الظل الواضح للفتاة الشقراء وهي تعبر الشاطئ. تصاعدت من البحر الأسود قمة موجة ثم انقلبت منعكسة، وها هي تتقدم إلى الأمام بلونها الأبيض، ثم تكسرت ولمستها بالكاد ظلال الحصان الراكض بسرعة شديدة وفوقه الفتاة، وفوق شجرة الصنوبر بلَّل الرذاذ الأبيض الملح وجه كوزيمو.

٦

كانت الأيام الأولى لكوزيمو فوق الأشجار بلا أهداف أو خطط محددة، ولكن سيطرت عليها فقط رغبة المعرفة وامتلاك مملكته هذه. فهو يريد أن يكتشفها على الفور حتى أقصى حدودها، وأن يدرس كل الإمكانات التي تقدمها له، وأن يكتشف كل شجرة فيها وكل فرع من فروعها. وأقول يريد لأننا في الواقع كنا نراه باستمرار يظهر فوق رءوسنا، بتلك الهيئة اللامبالية والسريعة جدًّا للحيوانات البرية، والتي ربما نراها نحن هادئة وساكنة، ولكنها دائمًا على وشك أن تقفز مبتعدة.

لماذا كان يعود إلى حديقتنا؟ عند رؤيته يدور من فوق شجرة دلب إلى شجرة بلوط في مجال رؤية منظار أمنا المكبر يمكن القول إن القوة التي تدفعه إلى ذلك والهوس المسيطر عليه هو جداله معنا، وأن يجعلنا نشعر دائمًا بالألم أو الغضب. (أقول معنا، لأنني لم أنجح بعدُ في أن أفهم كيف يفكر؛ فعندما يحتاج إلى شيء يبدو أنه لا يوجد مجال للشك في تحالفه معي. وفي مرات أخرى يمر فوق رأسي وكأنه لا يراني).

ولكن الحقيقة أنه يمر بشكل عابر فقط من فوق الحديقة، ما يجذبه هو سور شجرة الماجنوليا، وكنا نراه يختفي بعيدًا في أوقات مختلفة، وإن لم تكن الفتاة الشقراء قد استيقظت بعد، أو في الوقت الذي لا بد فيه أن يكون فريق المربيات أو الخالات قد جذبنها إلى داخل المنزل. في حديقة أونداريفا تمتد الفروع كأنها خراطيم حيوانات عجيبة، ومن الأرض تتفتح نجوم أوراق مسننة لها جلد الزواحف الأخضر، وتتمايل فروع بامبو صفراء وخفيفة، وتصدر أصوات الأوراق. ومن فوق أكثر شجرةٍ ارتفاعًا، كان كوزيمو لرغبته الجنونية في الاستمتاع إلى النهاية بذلك اللون الأخضر المتنوع، والضوء المختلف الذي يشف منها، بل والصمت المتميز، يترك رأسه لأسفل فتتحول الحديقة المقلوبة إلى غابة، ليست غابة أرضية، ولكن غابة في عالم جديد.

عندئذٍ تظهر فيولا. ويراها كوزيمو فجأة على الأرجوحة وهي تدفع نفسها، أو على سرج المهر القزم، أو يسمع ارتفاع نغمة بوق الصيد الكئيبة من آخر الحديقة. ولم يُثرِ اهتمام مركيزات أونداريفا غارات الطفلة، فما دامت تسير على قدميها فإن خالاتها خلفها دائمًا، ولكن بمجرد أن تصعد على السرج تكون حرة كالهواء؛ لأن الخالات لا يمتطين الخيول، ولم يكن بإمكانهن أن يرَين أين تذهب. ثم إن صداقتها مع هؤلاء المتشردين فكرة لا يمكن أن تخطر لهن. ولكنهن أدركن على الفور وجود ذلك البارون الصغير الذي يندس بين الفروع، وكُن لذلك في حالة تأهب مستمرة، بل مضاف إليها شيء من الاحتقار والتعالي.

أما والدنا فكان يجعل من مرارة عصيان كوزيمو وعداوته لعائلة أونداريفا أمرًا واحدًا، وكأنه أراد أن يحمِّلهم هذا الخطأ، وكأنهم هم الذين يجذبون ابنه إلى حديقتهم، ويستضيفونه، ويشجعونه على لعبة التمرد تلك. وفجأة اتخذ قراره بأن يضع خطة للقبض على كوزيمو، وليس في أثناء وجوده في أملاكنا، ولكن في أثناء وجوده في حديقة أونداريفا. وحتى يؤكد تلك النية العدوانية تجاه جيراننا لم يرد أن يقود الضربة بنفسه، أو أن يتقدم بنفسه إلى عائلة أونداريفا طالبًا منهم أن يعيدوا إليه ابنه — وهو رغم عدم وجود ما يبرره، سيجعل العلاقة تبدو على مستوى رفيع بين نبلاء — ولكنه أرسل إليهم فرقة من الخدم تحت قيادة الفارس المحامي إينيا سيلفيو كاريجا.

وصل هؤلاء الخدم مسلحين بالسلالم والحبال أمام بوابات عائلة أونداريفا. أخذ الفارس المحامي، وهو يرتدي القنبار والطربوش، يغمغم مطالبًا بأن يدخلوهم، مختلقًا أعذارًا كثيرة. وبعد برهة صدق خدم عائلة أونداريفا أنهم قد أتوا لقص فروع بعض النباتات لدينا والتي دخلت إلى حديقتهم. وعندما نطق الفارس بأنصاف كلماته: أمسكوه ... أمسكوه ... وهو ينظر إلى فروع الأشجار وأنفه مرتفع، ويقفز قفزات متعثرة، سألوه: ما الذي هرب منكم؟ ببغاء؟!

– لا. إنه الابن، الابن البكر، سليل العائلة.

قال الفارس المحامي هذا بسرعة شديدة، وجعلهم يسندون سلمًا إلى شجرة كستناء هندية، وأخذ يصعدها بنفسه. وبين أغصان الشجرة أمكنه رؤية كوزيمو يؤرجح قدميه وكأن لا شيء يحدث ... وفيولا أيضًا تدور في الحديقة تلعب بالطوق وكأن لا شيء يحدث. طرح الخدم بعض الحبال إلى الفارس المحامي، ولم يكن أحد يعرف ما المناورات التي يجب عليهم استخدامها للإمساك بأخي. ولكن كوزيمو، وقبل أن يصل الفارس إلى وسط السلم، صعد بالفعل إلى قمة شجرة أخرى. جعلهم الفارس ينقلون السلم، وهكذا أربع أو خمس مرات، وفي كل مرة يخرب حوضًا من أحواض الحديقة، ويعبر كوزيمو بقفزتين إلى

الشجرة المجاورة. رأت فيولا نفسها فجأة وقد أحاطت بها خالاتها ونائبات خالاتها وقمن بإدخالها إلى المنزل وإغلاقه عليها حتى لا تشهد ذلك الشغب. قطع كوزيمو فرع شجرة وأشهره بيديه وأطلقه بقوة أحدثت صفيرًا في الهواء.

قال المركيز أونداريفا عندما ظهر بهيبة على سلالم فيلته وهو يرتدي ملابس المنزل وغطاء الرأس، مما جعله يشبه، بغرابة، الفارس المحامي: ألا تستطيعون الذهاب إلى حديقتكم الواسعة وتستكملون المطاردة هناك أيها السادة الأعزاء؟ إنني أوجه كلامي إليكم يا عائلة بيافسكو دي روندو!

وقام بحركة دائرية شملت كلًّا من البارون الصغير فوق الشجرة، وعمه، والخدم، وأشار إلى ما وراء السور وكأنه يشير إلى كل ما نمتلك على الأرض.

عندئذٍ غير إينيا سيلفيو كاريجا نبرته. وهرول وهو يرطن ليجاور المركيز، وكأن شيئًا لم يحدث. وأخذ يحدثه عن ألعاب المياه في الحوض الموجود أمامه، وكيف واتته فكرة عمل نافورة مياه أعلى وأكبر أثرًا، والتي يمكن أيضًا أن تستخدم، إذا تم تغيير إحدى صواميلها، في سقي المرعى. وكان ذلك دليلًا جديدًا عل طبع عمنا الغامض، الذي لا يمكن توقعه ولا الثقة به؛ لقد أرسله البارون إلى هناك في مهمة محددة، وبنية موقف ثابت تجاه جيرانه. فلماذا إذن يتحدث بهذه النبرة الحميمة مع المركيز، وكأنه يريد أن يستميله نحوه؟ بل الأدهى أن قدراته تلك كمتحدث لبق يظهرها الفارس المحامي فقط عندما يفيده ذلك، ويحدث ذلك في المرات التي يتم فيها اللجوء إليه لطبعه المنطوي. والجميل في الأمر أن المركيز أصغى إليه، وطرح عليه بعض الأسئلة، وأخذه معه ليفحصا معًا كل الأحواض والنافورات، وهما يرتديان ملابس متشابهة، كل منهما بذلك الرداء الطويل، وهما بالطول نفسه، حتى يمكن الخلط بينهما، وخلفهما تسير الحاشية الكبيرة من خدم عائلتنا وعائلتهم، بعضهم بالسلالم على أكتافهم، حيث لم يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا.

وفي ذلك الوقت أخذ كوزيمو يقفز بلا انزعاج على الأشجار القريبة من نوافذ الفيلا، محاولًا أن يكتشف من وراء ستائر الغرفة التي أدخلوا إليها فيولا. وأخيرًا اكتشف المكان، وألقى بثمرة على الشباك المغلق.

انفتحت النافذة، وظهر وجه الفتاة الشقراء، وقالت: بسببك أنا مسجونة هنا. وأغلقتها مرة أخرى، وأسدلت الستائر، وفجأة شعر كوزيمو باليأس.

وعندما يتملك أخي الغضب يوجد بالفعل ما نقلق لأجله. كنا نراه يجري (إذا كانت كلمة يجري لها معنًى إذا نقلنا استخدامها من على سطح الأرض وأشرنا بها إلى دعائم غير

مستوية على ارتفاعات مختلفة، وتتخللها فراغات) ومن لحظة إلى أخرى يبدو وكأن رجله ستتعثر وسيسقط، وهو الشيء الذي لم يحدث قط. يقفز ويتحرك في خطوات سريعة جدًّا على فرع مائل، يتعلق ويرتفع فجأة على فرع أعلى، وفي أربع أو خمس التفافات سريعة اختفى.

أين ذهب؟! تلك المرة أخذ يجري ويجري من البلوط إلى شجر الزيتون وإلى أشجار الزان، ووصل إلى الغابة. توقف فيها وهو يلتقط أنفاسه، والمرعى يمتد أسفله، والرياح المنخفضة تحرك موجة منها، فوق أطراف الحشائش الكثيفة فيتقلب لونها الأخضر بتنويعات مختلفة، وكان يوجد ريش من تيجان تلك الزهور المسماة بالمنفاخ يطير بلا صوت. وفي المنتصف توجد شجرة صنوبر منعزلة، يصعب الوصول إليها، بها ثمار الصنوبر المستطيلة، وطيور المتوقل — وهي طيور سريعة جدًّا بنية اللون ومبرقشه — واقفة على الأغصان الكثيفة بأوراقها الإبرية، في وضع منحنٍ، بعضها مقلوب وذيله إلى أعلى ومنقاره إلى أسفل، تنقر الشرنقات وثمار الصنوبر.

ذلك الاحتياج إلى دخول عنصر يصعب امتلاكه هو الذي دفع أخي ليجعل من الأشجار طرقًا له، وفي تلك اللحظة، وهو يشعر بالاستياء، كان ذلك الاحتياج ما زال يتحرك بداخله وينقل له الرغبة في التغلغل إلى المنتهى وفي إقامة علاقة تربطه بكل ورقة شجر وبكل لحاء، وبكل ريشة وكل رفرفة. مثل ذلك الحب الذي يشعر به الصياد لكل ما هو حي حوله، ولا يستطيع التعبير عنه سوى بتصويب الزناد نحوه. لم يكن كوزيمو قد تعرف بعد على هذا الشعور، ولكنه يحاول التنفيس عنه بإصراره على القيام باكتشافاته.

كانت الغابة كثيفة، شاق عبورها، وعلى كوزيمو أن يفتح لنفسه طريقًا بضربات سيفه الصغير. ورويدًا رويدًا أخذ ينسى اضطراباته كلها، مأخوذًا كليةً بالمشكلات التي يجدها أمامه أثناء تقدمه وبالخوف (الذي لم يرغب في الاعتراف به، ولكنه كان موجودًا) من أن يبتعد كثيرًا عن الأماكن المألوفة لديه. وهكذا وصل وهو يفسح لنفسه طريقًا وسط الأوراق الكثيفة إلى حيث وجد عينين صفراوين تحملقان فيه وسط الأوراق، تمامًا في مواجهته. مد كوزيمو سيفه الصغير إلي الأمام وأبعد فرع الشجرة، ثم تركه ليعود ببطء إلى مكانه. تنفس الصعداء، وضحك من الخوف الذي شعر به؛ فلقد رأى أن تلكما العينين الصفراوين هما عينا قط.

كانت صورة القط، التي رآها بمجرد أن أبعد فرع الشجرة، راسخة في ذهنه. وبعد لحظة عاد كوزيمو من جديد ليرتعد خوفًا؛ لأن ذلك القط، مع أنه يشبه القط في كل شيء،

كان قطًّا بشعًا، مرعبًا، رؤيته فقط تبعث على الصراخ خوفًا. ما كان لأحد أن يجزم ما الذي يجعله مخيفًا هكذا. كان قطًّا مخططًا، ولكنه أكبر حجمًا من القطط المخططة كلها، ولكن لا يعني هذا شيئًا، فقد كان مرعبًا بتلك الشوارب المستقيمة وكأنها أشواك قنفذ، وذلك الزفير الذي يكاد يُسمع أكثر بالنظر منه بالسمع وهو يخرج من بين صفَي أسنانه الحادة كالخطافات؛ وبتلكما الأذنين اللتين لم تكونا مجرد شيئين مدببين؛ وإنما شعلتان مضغوطتان تكسوهما شعيرات رقيقة خادعة؛ وبشعره المنتصب المستقيم الذي ينفخ حول عنقه المتصلب طوقًا من الفراء أصفر اللون، ومنه تبدأ الخطوط الرفيعة التي ترتعد على جانبيه وكأنه يربت ظهره بنفسه. بل ويكمن الرعب أيضًا في ذلك الذيل الثابت في وضعٍ غير طبيعي، لا يُصدق. ويضاف إلى كل ما رآه كوزيمو في لحظة واحدة وراء الغصن الذي تركه ليعود على الفور إلى مكانه ما لم يتح له الوقت لرؤيته لكنه كان يتخيله؛ خصلات كثيفة من الشعر تحيط بأقدامه لتغطي قوة مخالبه الرهيبة المتأهبة للانقضاض عليه، وذلك الذي ما زال يراه؛ تلك الومضات الصفراء التي تحدق فيه من بين الأوراق وهي تدور بداخل الحدقة السوداء؛ وذلك الذي يسمعه من زمجرة قوية عميقة؛ كل ذلك جعله يدرك أنه أمام أشرس قط بري في الغابة.

توقفت زقزقة العصافير كلها ورفرفتها. وقفز القط البري، ولكن ليس لمهاجمة الفتى، كانت قفزة رأسية لم تخف كوزيمو بقدر ما أدهشته. ولكن سرعان ما شعر بالخوف وهو يرى السنور على فرع شجرة فوق رأسه تمامًا. يقف متجمدًا يرى بطنه المغطاة بالشعر الطويل الأبيض، وأقدامه ممدودة ومخالبه مثبتة في الخشب، في حين يقوس ظهره ويزمجر، فهو يستعد بالتأكيد للانقضاض عليه. قام كوزيمو بحركة رائعة، ربما لم يفكر فيها، بالقفز على فرع في أسفل. استمر القط البري في الزئير، ويصدر هذا الصوت مع كل قفزة، واحدة هنا والأخرى هناك، ووصل مرة أخرى إلى فرع فوق كوزيمو. كرر أخي حركته، ولكنه وجد نفسه فوق آخر فرع من فروع شجرة الزان. ووجد أن القفزة التي تصل به إلى الأرض مرتفعة إلى حد ما، ولكن لم تكن بالارتفاع الذي يجعله يرفض أن يقفز إلى أسفل بدلًا من أن ينتظر ما سيفعله ذلك الحيوان بمجرد أن ينتهي من إصدار ذلك الصوت المرعب بين الزفير والمواء.

رفع كوزيمو إحدى ساقيه وكأنه يستعد للقفز إلى أسفل، ولكن لأن بداخله تتنازع الغريزتان — غريزة حب الحياة الطبيعية، وغريزة العناد التي تمنعه عن النزول حتى لو كلفه ذلك حياته — ألصق في الوقت نفسه فخذيه وركبتيه بالفرع؛ وبدا للقط أنها اللحظة

المناسبة ليلقى بنفسه عليه، والفتى أمامه يتأرجح، فقفز فوقه وشعره يتطاير، ومخالبه مشدودة وأنفاسه مرتفعة. لم يعرف كوزيمو أن يفعل ما هو أفضل من أن يغلق عينيه ويرفع سيفه، فكانت حركة غبية، تجنبها القط بسهولة، وأصبح فوق رأسه متأكدًا أن يجذبه معه إلى أسفل بمخالبه. أصابت مخالبه كوزيمو في إحدى وجنتيه، ولكن بدلًا من أن يسقط، تمدد بجسده بطول الغصن وهو ممسك به بركبتيه. وكان ذلك عكس ما توقعه القط تمامًا، والذي وجد نفسه يميل على أحد جانبيه ويسقط. أراد أن يمسك بمخالبه بالفرع ليمنع نفسه من السقوط، ودار بنفسه في الهواء. كانت لحظة، ولكنها كانت كافية لأن يقوم كوزيمو، في صحوة انتصاره، بمفاجئته بضربة عميقة في بطنه، وأن يُغمد فيه سيفه الصغير وهو يعوي.

لقد نجا، تغطيه الدماء، والحيوان البري معلق على سيفه وكأنه فوق سيخ الشواء، وإحدى وجنيته ممزقة من أسفل عينيه إلى ذقنه بثلاثة خدوش. وأخذ يصرخ من الألم ومن الانتصار، ولم يكن يفهم شيئًا، كان ملتصقًا بالفرع، وبسيفه وبجسد القط، في لحظة يأس من فاز لأول مرة، وعرف لتوه كم يكلف الانتصار، عرف أنه ملتزم الآن ليكمل الطريق الذي اختاره، وأن أحدًا لن يعطيه عذره إذا فشل.

هكذا رأيته يقترب بين الأشجار، تغطيه الدماء حتى فوق صدريته، وشعره مهوش أسفل قبعته الثلاثية التي فقدت شكلها، ويمسك ذلك القط البري الميت من ذيله، والذي يبدو الآن مجرد قط عادي ليس غير.

هرعت نحو الجنرالة في التراس وصرخت: أمي، لقد أصيب!

– ما معنى أصيب؟ وبالفعل بدأت تحملق بالنظارة المكبرة.

قلت: أصيب، أي به إصابات وجروح. وبدا أن الجنرالة قد وجدت تعريفي كافيًا، لأنها أخذت تتبعه بالنظارة المكبرة، وبينما كان يقفز بسرعة أكثر من المعتادة قالت بالألمانية: هذا حقيقي!

وعلى الفور أخذت في إعداد ضمادات وبلاسم، وكأن عليها إمداد فرقة عسكرية بالإسعافات، وأعطتني كل شيء، حتى آخذه إليه، حتى من دون أن يراودها الأمل في أن يقرر العودة لكي تجري له الإسعافات اللازمة. أخذت أجري في الحديقة ممسكًا بلفافة الضمادات، ثم انتظرته عند شجرة التوت بقرب سور عائلة أونداريفا، لأنه اختفى بالفعل داخل شجرة الماجنوليا.

وظهر هو منتصرًا، والحيوان المقتول في يده في حديقة أونداريفا. ولكن ماذا رأى في الفناء المقابل للفيلا؟! رأى عربة معدة للرحيل، والخدم يضعون الحقائب في أعلى العربة،

ووسط مجموعة من المربيات والخالات المتجهمات كانت فيولا ترتدي ملابس السفر تحتضن المركيز والمركيزة.

صرخ وهو يرفع القط من ذيله: فيولا! إلى أين أنت ذاهبة؟

رفع كل الواقفين حول العربة أنظارهم إلى فروع الأشجار وبمجرد أن رأوه ممزق الثياب، تغطيه الدماء، وبتصرفات المجانين تلك، والحيوان الميت في يده، أصابهم جميعًا الفزع: هل عاد من جديد! وبهذا المنظر أيضًا! وكأن مسًّا من الجنون أصابهن؛ أخذت الخالات جميعًا يدفعن الفتاة إلى العربة. التفتت فيولا وأنفها إلى أعلى، وبغيظ متضجر وبكل تعالٍ على عائلتها، ولكن يمكن أن يكون أيضًا تعاليًا على كوزيمو، صرخت وهي تؤكد الكلمات: إنهم يرسلونني إلى المدرسة الداخلية!

ثم استدارت لتصعد إلى العربة، ولم تمنحه حتى نظرة؛ لا هو، ولا فريسته.

أُغلق باب العربة واتخذ الحوذي مكانه، ولكن لم يقدر كوزيمو على قبول ذلك الرحيل، فحاول أن يجذب انتباهها إليه، وأن يجعلها تدرك أنه يهدي إليها هذا الانتصار الباهر، ولكنه لم يستطع أن يشرح ذلك إلا بأن يصرخ: لقد انتصرت على قط بري!

أصدرت ضربة السوط فرقعة، ورحلت العربة تلوح منها مناديل الخالات المودعة، ومن خلف الشباك سمع عبارة: يا لك من ماهر!

قالتها فيولا ولكنه لم يفهم هل كان ذلك تحمسًا منها أم استخفافًا.

كان هذا وداعهما. وشعر كوزيمو بالتوتر، وبآلام الخدوش، والإحباط لأنه لم يحصل على المجد لما فعل، والحزن على ذلك الانفصال المفاجئ. اجتمع كل هذا، وظهر في بكاء عنيف، مليء بالصرخات والعويل وتكسير الأغصان.

أخذت الخالات يصرخن وهرع خدام عائلة أونداريفا كلهم بعصِي طويلة، وهم يقذفونه بالحجارة ليطردوه: اخرج من هنا! اخرج من هنا! أيها الهمجي المتوحش! اخرج من حديقتنا!

رمى كوزيمو بالقط الميت في وجه من اقترب منه، وهو ينتحب ويصرخ. أمسك الخدم الحيوان من ذيله وألقوا به في المزبلة.

عندما عرفتُ أن جارتنا قد رحلت، لوهلةٍ تمنيت أن ينزل كوزيمو. ولا أعرف لماذا كنت أربط بها، أو بوجودها، قرار أخي بأن يمكث فوق الأشجار.

إلا أننا لم نتطرق إلى هذا. صعدت فوق الشجرة لأعطيه الضمادات والأربطة، وأخذ يعالج بنفسه الخدوش الموجودة في وجهه وذراعيه. ثم طلب مني صنارةً وخطافًا،

واستخدمهما ليصطاد بهما من أعلى شجرة زيتونٍ تطل على مقلب قمامة الأونداريفا، القطَّ الميت. وبعد أن اصطاده سلخه ودبغ جلده وصنع منه قلنسوة، كانت أول قلنسوة من الفراء، ورأيناه يرتديها طول حياته.

٧

آخر محاولة للقبض على كوزيمو قامت بها أختنا باتيستا. فعلت ذلك بمبادرة شخصية منها، ومن دون أن تسأل أحدًا، في السر كما اعتادت أن تفعل كل شيء. خرجت في وقت متأخر من الليل، ومعها وعاء مليء بالغراء وسلم متنقل، ودهنت بالغراء شجرة خروب من القمة إلى الساق، وهي شجرة اعتاد كوزيمو أن يجلس عليها كل صباح.

وفي الصباح وجدنا فوق شجرة الخروب طيور الحسون ملتصقة وهي ترفرف بأجنحتها، وطيور النمنمة ملفوفة في السائل اللزج، وفراشات ليلية، وأوراق جلبتها الرياح، وذيل سنجاب، ووجدنا أيضًا طرفًا مقطوعًا من حلة كوزيمو. ومن يدري هل جلس على أحد الأغصان ثم نجح في أن يحرر نفسه، أو — وهو الشيء الأوقع لأنني منذ فترة كنت أراه بدون بذلته — أنه هو الذي وضع ذلك الجزء متعمدًا ليسخر منا. على كل حال، ظلت الشجرة ملطخة بالغراء، ثم جفت بعد ذلك.

وبدأنا نقتنع أن كوزيمو لن يعود أبدًا، ووالدنا أيضًا، فمنذ أن بدأ أخي يقفز فوق الأشجار في كل أراضي أومبروزا لم يجرؤ البارون على الظهور في الجوار لأنه يخشى المساس بكرامة الدوقية. وأخذ وجهه يزداد شحوبًا ونحافة، ولم أكن أعرف إلى أي مدًى كان قلقه قلقًا أبويًّا وإلى أي مدًى يقلق على تأثير ذلك على استمرار اللقب في سلالته، ولكن أصبح الشيئان بالفعل همًّا واحدًا؛ لأن كوزيمو ابنه البكر، وارث اللقب، وإذا كان ما يفعله البارون شيئًا سيئًا بأن يقفز بين فروع الأشجار وكأنه طائر الحجل، فالأسوأ بكثير أن يفعل ذلك دوق، وإن كان صبيًّا، وخاصة في وجود خلاف حول اللقب ولن يدعمه سلوك الوريث هذا.

مفهوم تمامًا أن كلها هموم بلا أهمية، لأن أهل أومبروزا كانوا يسخرون من طموحات والدنا ورغباته. أما النبلاء الذين يمتلكون الفيلات من حولنا فكانوا يعدونه مخبولًا. فلقد انتشرت عادة السكنى في فيلات في المناطق الساحرة بين النبلاء، أكثر من تلك المتعلقة

بالسكنى في قلاع الإقطاعيات، وكانوا يفعلون ذلك رغبة في الحياة كمواطنين مستقلين تجنبًا للمضايقات. من ذا الذي يفكر في دوقية أومبروزا العتيقة؟

فسحر أومبروزا يكمن في أنها دار الجميع، وأنها ليست دارًا لأحد؛ فهي مرتبطة ببعض الحقوق تجاه مركيزات أونداريفا، وهم سادة كل الأراضي تقريبًا، ولكنها بلدية حرة منذ فترة تنتمي إلى جمهورية جنوة؛ ويمكننا أن نعيش مطمئنين بين تلك الأراضي التي ورثناها، والأخرى التي اشتريناها بأبخس الأثمان من البلدية في وقت كانت تعاني فيه ثقل الديون. ماذا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من ذلك؟ يعيش حولنا مجتمع من النبلاء بفيلاتهم وحدائقهم وبساتينهم وصولًا إلى البحر، والجميع يعيشون في سعادة، ويتزاورون ويذهبون إلى الصيد، والحياة تكلف القليل، والجميع يتمتعون بمزايا من يعيش في البلاط، دون الاضطرابات والالتزامات والمصروفات التي يتكبدها من لديه أسرة ملكية وعاصمة وسياسة يهتم بها. ولكن لم تكن هذه الأشياء تروق والدنا، فهو يشعر بأنه ملك مخلوع عن عرشه، فأنهى كل علاقاته بالنبلاء القاطنين في الجوار (أما أمنا، الأجنبية، يمكن أن نقول إنه لم تكن لديها علاقات قط)، وهو أمر له مميزاته، فنظرًا لأننا لم نكن نتردد على أحد؛ فلقد وفرنا مصروفات كثيرة، وأخفينا ضآلة مواردنا المالية.

ولا يمكن القول أيضًا إن علاقتنا بسكان أومبروزا كانت أحسن حالًا، فأنتم تعرفون كيف هم سكان أومبروزا؛ فهم أناس بخلاء يهتمون بشئون تجارتهم، وشهدت تلك الأزمنة بداية بيعهم لليمون بكثرة، وذلك بعد أن ظهرت وانتشرت عادة الليمونادة المثلجة المسكرة بين الطبقات الغنية؛ ولذلك أخذوا يزرعون بساتين الليمون في كل مكان، بل وأعادوا تشغيل الميناء الذي حطمته غزوات القراصنة منذ زمن بعيد وبدءوا يتاجرون مع الجميع بفضل موقعهم المتوسط بين جمهورية جنوة وممتلكات ملك سردينيا ومملكة فرنسا وأراضي الأسقفية، وكانوا لذلك أيضًا لا يعبئون بأحد، لولا تلك الضرائب التي يجب دفعها إلى جنوة، والتي تنهكهم في كل تاريخ استحقاق، حيث تدفعهم كل عام لحركات الشغب التي يقومون بها ضد جباة ضرائب الجمهورية.

يعتقد بارون روندو عندما تبدأ تلك الاضطرابات بسبب الضرائب أنهم على وشك أن يحضروا ليقدموا له تاج الدوقية. عندئذٍ يذهب إلى الميدان، ويقدم نفسه إلى سكان أومبروزا حاميًا لهم، ولكنه في كل مرة يجد نفسه وقد أطلق ساقيه هربًا تحت وابل من الليمون الفاسد. عندئذٍ يقول إنها مؤامرة دبرت ضده من الآباء اليسوعيين، كالعادة. فقد رسخ في ذهنه أن حربًا شعواء تدور بينه وبين الآباء اليسوعيين، وأن تلك الجماعة لا تفكر في شيء

سوى الإضرار به. في الواقع توجد بالفعل نزاعات بينهما، ذلك بسبب بستان ملكيته محل نزاع بين عائلاتنا وجماعة الآباء اليسوعيين، ونشأ عن هذا نزاع، واستطاع البارون، بما لديه عندئذٍ من علاقات جيدة بالأسقف، أن يبعد الرئيس الإقليمي عن أراضي الأبرشية. ومنذ ذلك الحين ووالدنا على يقين من أن جماعتهم ترسل عملاءها للنيل من حياته ومن حقوقه، ومن جهته يحاول أن يجمع ميليشيات من المؤمنين ليعملوا على تحرير الأسقف الذي — في رأيه — سقط أسيرًا لدى الآباء اليسوعيين؛ وكان يمنح حق اللجوء والحماية لمن يعلن أنه مضطهد من جانب الآباء اليسوعيين وهكذا اختار لنا كأب روحي ذلك الأب التابع، تقريبًا، ليانسن، والذي يعيش شارد الذهن.

وكان والدنا يثق بشخص واحد فقط، وهو الفارس المحامي. لدى أبي نقطة ضعف تجاه أخيه هذا، وكأنه ابن وحيد بائس؛ والآن لا أستطيع أن أجزم أننا كنا ندرك هذا بالفعل، ولكن من المؤكد أن هذا ترسخ في داخلنا وأثر على طريقتنا في النظر إلى كاريجا ببعض من الشعور بالغيرة، حيث كنا نشعر أن والدنا يحب أخاه هذا الذي يبلغ من العمر خمسين عامًا أكثر منا نحن الصبية. ثم إننا لم نكن وحدنا في النظر إليه بهذه الطريقة؛ كانت الجنرالة وباتيستا يتظاهران هما أيضًا باحترامه، إلا أنهما لم تكونا تحتملانه. أما هو فخلف قناع الخنوع ذاك مستهين بكل شيء وبالجميع، وربما يكرهنا جميعًا، حتى البارون نفسه الذي يدين له بالكثير. والفارس المحامي قليل الحديث، بل أحيانًا يعتقد البعض أنه أبكم وأصم، أو أنه لا يفهم اللغة التي نتحدث بها: من يدري كيف نجح في ممارسة مهنة المحاماة قبل ذلك، وهل اتسم بهذه الغرابة أيضًا آنذاك، قبل لقائه مع الأتراك؟ ولعله كان شخصًا مثقفًا في الماضي؛ إذ استطاع أن يتعلم من الأتراك كل تلك الحسابات الخاصة بالري وتوزيع المياه، وهي الشيء الوحيد الذي ما زال لديه القدرة على القيام به وتطبيقه الآن، والذي لأجله يمدحه والدنا إلى حد المبالغة. لم أكن أعلم جيدًا ما حدث له في الماضي، ولا مَن أمه، ولا كيف كانت علاقته في الشباب بجدنا (من المؤكد أنه هو بدوره أحبه كثيرًا؛ إذ جعله يدرس الحقوق ويحصل على لقب فارس) ولم أعرف أيضًا كيف انتهى الأمر به في تركيا. بل لم يكن واضحًا هل مكث مدة طويلة في تركيا نفسها أم في دولة بربرية أخرى، مثل تونس أو الجزائر، أي في دولة إسلامية، ويقال إنه هو أيضًا قد اعتنق الإسلام، كانوا يقولون عنه أشياء كثيرة: إنه قد تولى مناصب مهمة، مثل صاحب المقام الرفيع لدى السلطان، أو خبير الري في الديوان، وأشياء من هذا القبيل، ثم أوقعَت به إحدى مؤامرات القصر، أو غيرة نساء، أو دَين في اللعب، وبِيع كعبد. ولكننا نعلم أنهم عثروا عليه مقيدًا يجدف بين العبيد في سفينة عثمانية استولى عليها أهل البندقية، الذين قاموا بعتقه.

وفي البندقية عاش حياة المتسولين أو كاد أن يحياها، حتى فعل شيئًا آخر لا أعرف حقيقته، يقولون شجارًا، (ولكن مع من يمكنه الشجار، فهو رجل واهن، وتشهد بذلك السماء) إلا أن الأمر انتهى به من جديد بين الأغلال. افتداه والدنا — بواسطة مساعي جمهورية جنوة الحميدة — وأحضره بيننا، رجلًا صغير الحجم، أصلع، بلحية سوداء، مذهولًا، وأبكم تقريبًا (كنت طفلًا آنذاك، ولكن طُبع في ذهني مشهد ذلك المساء)، يرتدي ملابس فضفاضة ليست له. فرضه والدنا على الجميع وكأنه شخص ذو مكانة وسلطة، وعينه مديرًا، وخصص له حجرة مكتب تكدست مع الأيام بأوراق غير منظمة. وكان الفارس المحامي يرتدي قنبارًا طويلًا، وغطاء رأس على شكل طربوش كما الحال في ذلك الوقت في مكاتب النبلاء والبرجوازيين؛ إلا أنه — في الحقيقة — لم يكن يجلس قط في المكتب. وبدأنا نراه يتجول في الخارج أيضًا بالزي نفسه، في الريف. بل أصبح يحضر إلى مائدة الطعام بهذا الزي التركي، ولكن الشيء الأكثر غرابة هو أن والدنا — مع حرصه الشديد على القواعد — أبدى تسامحًا معه في ذلك.

وعلى الرغم من واجباته الإدارية، إلا أن الفارس المحامي لم يكن يتبادل كلمة مع وكلاء الزراعة أو المستأجرين أو حتى العمال، نظرًا إلى خجله الشديد، ومشكلته في التحدث، فقد كانت كل الممارسات العملية، وتوجيه الأوامر، ومتابعة العاملين هي في الواقع أشياء يقوم بها والدنا. يمسك إينيا سيلفيو كاريجا دفاتر الحسابات، ولا أعلم هل تدهورت أعمالنا بهذه الطريقة لأنه كان مسئولًا عن الحسابات، أم أن حساباته بدت بهذا السوء بسبب تدهور أعمالنا. ثم إنه يقوم بإعداد حسابات وتصميمات لشبكات ري، ويملأ سبورة كبيرة بالخطوط والأرقام، وبكلمات مكتوبة بالتركية. ومن حين إلى آخر يجتمع والدنا معه في المكتب لساعات طويلة، (هذه أطول الأوقات التي يقضيها الفارس المحامي جالسًا). وبعد قليل نستمع إلى صوت البارون الغاضب يصل إلينا من خلف الباب المغلق، ولكن لم يصل إلينا قط صوت الفارس، ثم يُفتح الباب، ويخرج منه الفارس المحامي بخطواته السريعة أسفل ذيل القنبار، والطربوش معتدل على رأسه، متجهًا إلى البستان والحقل بينما يناديه والدنا وهو يجري خلفه. إينيا سيلفيو! إينيا سيلفيو! ولكن أخاه يكون قد وصل بين خطوط الكرم، أو بين أشجار الليمون، حيث نرى فقط الطربوش الأحمر وهو يستكمل طريقه في عناد بين الأوراق.

يتبعه والدنا وهو يدعوه. وبعد ذلك بقليل نراهما عائدين، البارون يتناقش كالعادة وهو يشيح بذراعيه، والفارس الضئيل الحجم بجواره منحنيًا وقبضتيه مغلقتين في جيبَي قنباره التركي.

٨

في تلك الأيام كان كوزيمو يتحدى كل من على الأرض، تحديات في إصابة الهدف، تحديات في الخفة، ليختبر إمكاناته هو، وكل ما يمكنه عمله فوق قمم الأشجار. وكان يتحدى اللصوص الصغار في لعبة البلي، وبينما هم في أحد تلك الأماكن القريبة من بوابة كابيري بين أكواخ الفقراء والمتشردين وكوزيمو يلعب من فوق شجرة بلوط جافة وخالية من الأوراق لعبةَ البلي رأى رجلًا طويل القامة، منحنيًا قليلًا، يمتطي حصانًا، ويلتفح بعباءة سوداء يقترب من المكان. وتعرف كوزيمو على والده. تفرقت مجموعة الأولاد، ومن فوق أعتاب الأكواخ ظلت النساء ينظرن.

امتطى البارون أرمينيو جواده حتى وصل أسفل الشجرة، وكان وقت الغروب، والسماء تميل إلى الحمرة. وقف كوزيمو بين الأغصان العارية، حدق كل منهما في الآخر. كانت هي المرة الأولى — بعد غداء الحلزون — التي يرى كل منهما الآخر في هذا الوضع، وجهًا لوجه. وقد مضت أيام عديدة، وتغيرت أشياء كثيرة، وكل منهما يعرف معرفة يقينية أن موضوع الحلزون لم تعد له أية أهمية، ولا حتى طاعة الأبناء لآبائهم، وكل ما يتعلق بالسلطة الأبوية، وأن كل الأشياء المنطقية والعاقلة التي يمكنهم قولها لن يكون لها مكان، إلا أنه عليهما قول شيء ما.

بدأ الأب بنبرة تشوبها المرارة: إذن فسيادتك تقدم عرضًا رائعًا، جديرًا حقًّا بشخص نبيل! (ووجه حديثه إليه مستخدمًا «سيادتك»، كما اعتاد أن يفعل في حالات اللوم الشديدة، ولكنه استخدمه الآن ليعبر عن الشعور بالبعد والانفصال).

أجابه كوزيمو: إن الشخص النبيل، يا سيدي الوالد، يظل دائمًا نبيلًا، سواء على الأرض، أو فوق قمة الأشجار. وأضاف على الفور: ذلك إذا كان يسلك مسلكًا مستقيمًا.

اعترف البارون بجدية شديدة: يا لها من عبارة جيدة! إلا أن سيادتك لا تتمتع بهذا الآن، فسيادتك تسرق البرقوق من مستأجري الأراضي.

كان حقيقيًّا ما يقول، فقد ضبط أخي متلبسًا. فبماذا يمكنه أن يجيب؟! عندئذٍ ابتسم، لكنها لم تكن ابتسامة تعالٍ أو سخرية؛ بل ابتسامة خجل، ثم احمر وجهه.

ابتسم الوالد أيضًا، ابتسامة حزينة، ولكن من يدري لماذا احمر وجهه هو الآخر. ثم قال: الآن تعاشر أسوأ المتشردين والمتسولين.

وقال كوزيمو بثبات: لا يا سيدي، فأنا أعيش وحدي، ولكل شخص حياته.

قال البارون بصوت هادئ، يكاد يكون هامدًا: أدعوك إلى أن تنزل إلى الأرض، وأن تستعيد واجبات وضعك الاجتماعي.

قال كوزيمو: لا أنوي طاعتك أيها السيد الوالد، يؤسفني ذلك.

يشعر كل منهما بالاستياء والملل، فكل منهما يعرف حق المعرفة ما سيقوله الآخر.

قال أبي: ولكن ماذا عن دراساتك؟ وعبادتك المسيحية؟! هل تنوي أن تكبر وتنمو كأحد الهمجيين في أمريكا؟!

سكت كوزيمو، كانت أفكارًا وتساؤلات لم يطرحها بعد على نفسه، ولم يرغب في طرحها. ثم قال: أتعتقد أنه ببعدي عن الأرض بضعة أمتار لن يصلني تعليم جيد؟!

وكانت هذه أيضًا إجابة ماهرة، ولكن تضعف من قدر فعلته، فهي علامة على الضعف.

أدرك والدي هذا وبدأ يضغط قائلًا: إن التمرد لا يقاس بالأمتار، حتى وإن بدت المسافة قريبة، يمكن أن تصبح الرحلة بلا عودة.

والآن، كان يمكن لأخي أن يجيب إجابة نبيلة أخرى، ربما بحكمة من الحكم اللاتينية أيضًا، التي لا أذكر منها شيئًا الآن، ولكننا آنذاك كنا نحفظ منها الكثير. ولكنه شعر بالملل من وقوفه هكذا وأدائه لدور العظيم؛ فأخرج لسانه وصاح: ولكنني من فوق الأشجار أستطيع التبول لمسافة أبعد!

عبارة لم يكن لها أي معنًى، ولكنها أنهت المسألة برمتها.

ارتفعت صيحات المتشردين الواقفين حول بوابة كابيري، وكأنهم سمعوا تلك العبارة.

انحرف حصان بارون روندو فجأة، شد البارون اللجام وتغطى بمعطفه وكأنه يستعد للرحيل. ولكنه استدار وأخرج إحدى ذراعيه من معطفه، وصاح وهو يشير إلى السماء التي سرعان ما امتلأت بالسحب السوداء: انتبه يا بني! فهناك من يمكنه أن يغرقنا جميعًا بالمياه، ثم ابتعد.

وبدأت الأمطار التي تنتظرها الحقول منذ فترة طويلة تهطل بقوة في رذاذ قوي، وانتشر بين الأكواخ هروب المتشردين وهم يغطون رءوسهم بالأجولة ويغنون للأمطار.

واختفى كوزيمو وهو يحتمي بالأوراق المليئة بالمياه التي كانت وبمجرد لمسها تقلب رذاذ الماء فوق الرءوس.

أما أنا فبمجرد أن أدركت هطول الأمطار تألمت كثيرًا لأجله؛ فقد تخيلته مبتلًّا وهو يمسك بقوة بأحد جذوع الأشجار دون أن ينجح في أن ينجو من المياه المنهمرة. وكنت أعرف بالفعل أنه لن يكفي إعصارٌ ليثنيه عن عزمه. هرعت إلى أمنا: إنها تمطر! ماذا عسى كوزيمو أن يفعل يا أمي؟!

حركت الجنرالة الستارة، ونظرت إلى السماء الممطرة. كانت هادئة.

– إن أخطر مصاعب الأمطار هي الأراضي الموحلة، وما دام في أعلى فهو في أمان.

– ولكن هل تكفي النباتات لحمايته؟

– سيلجأ إلى مخيمه.

– أي مخيم يا والدتي؟

– لا بد وأنه قد أعده في وقته.

– ولكن ألا تعتقدين أنه سيكون من الأفضل أن أبحث عنه لأعطيه مظلة؟!

وكأن كلمة «مظلة» انتزعتها فجأة من مكان المراقبة الميدانية، وألقت بها في وسط قلقها كأم، وأخذت الجنرالة تقول: بلى، بلى، بالطبع؛ وزجاجة شراب تفاح ساخن ملفوفة في جورب من الصوف! وقطعة قماش مشمع ليفردها فوق الخشب حتى تقيه من الرطوبة ... ولكن أين سيكون الآن هذا المسكين ... أتمنى أن تنجح في العثور عليه.

خرجت تحت الأمطار حاملًا لفائف محتميًا بمظلة ضخمة خضراء اللون، بينما أحمل واحدة أخرى مغلقة تحت ذراعي لأعطيها لكوزيمو.

كنت أطلق صفيرنا، فكان يجيبني فقط خرير الأمطار المستمرة بلا انقطاع فوق الأشجار. كان الجو مظلمًا، وخارج الحديقة لم أكن أعرف أين أذهب. أخطو بلا انتباه لأجد قدمي فوق أحجار منزلقة وأعشاب مبللة، وأوحال وأنا مستمر في الصفير. ولأرسل صفيري إلى أعلى أطرح المظلة إلى الخلف، فتجلد المياه وجهي، وتغسل الصفير تمامًا من فوق شفتي. أردت أن أذهب تجاه بعض الأراضي العامة المليئة بالأشجار المرتفعة، حيث اعتقدت أنه ربما يكون قد أقام فيها ملجأه، ولكنني ضللت الطريق في ذلك الظلام، وظللت واقفًا أمسك بين ذراعي بالمظلة واللفائف، وكانت زجاجة الشراب الملفوفة بالجورب الصوفي هي الشيء الوحيد الذي يمنحني بعضًا من الدفء.

وفجأة في الظلام رأيت ضوءًا وسط الأشجار، لم يكن ضوء قمر أو نجوم. وبدا لي أنني أسمع صوت صفيره يرد على صفيري.

– كوزيمو!

– بياجو! صوت من بين الأمطار قادم من فوق، من القمة.

– أين أنت؟

– هنا سآتي إليك، ولكن أسرع وإلا أغرقني المطر!

وعثر كل منا على الآخر. كان هو ملتحفًا بغطاء، نزل إلى فرع منخفض لصفصافة ليريني كيف يمكنني الصعود، عبر شبكة معقدة من الفروع، حتى شجرة الزان ذات الجذع المرتفع، والتي منها يأتي ذلك الضوء. أعطيته المظلة على الفور وبعض اللفائف، وحاولنا أن نتسلق بالمظلات المفتوحة، ولكن كان ذلك مستحيلًا، وابتللنا تمامًا. أخيرًا وصلت إلى حيث قادني، ولم أر أي شيء، سوى وميضًا بين أطراف خيمة.

رفع كوزيمو تلك الأطراف وأدخلني. في ضوء مصباح وجدت نفسي فيما يشبه الحجرة الصغيرة، مغطاة ومغلقة من كل جانب بستائر وأبسطة، يخترقها جذع شجرة الزان، بأرضية من الألواح، وكل شيء مستند على الأفرع الضخمة. وبدت لي مقرًّا فخمًا، ولكن سرعان ما أدركت أنه ليس بهذا الثبات، ربما لأن كلَينا بداخله جعله يفقد اتزانه بعض الشيء، وأسرع كوزيمو على الفور للعمل على إصلاح العيوب والأجزاء المتساقطة. وضع في الخارج أيضًا المظلتين اللتين أحضرتهما، وهما مفتوحتان ليغطي ثقبين في السقف، ولكن أخذت المياه تتساقط من مناطق أخرى، وأغرقت المياه كلينا، وبدا الأمر كأننا نقف في الخارج. إلا أنه كانت توجد كمية كبيرة من الأغطية والتي استطعنا الاختباء أسفلها تاركين فقط رأسينا خارجها. أخذ المصباح يبعث بضوء ضعيف، مهتز، وعلى السقف وجدران تلك البناية الغريبة بدأت الأفرع والأوراق تعكس ظلالًا مركبة. أخذ كوزيمو يشرب شراب العسل في جرعات كبيرة وهو يصدر أصواتًا غريبة.

قلت: منزل جميل.

أسرع كوزيمو بالرد: أوه، لا يزال مؤقتًا. لا بد وأن أدرسه بطريقة أفضل.

– هل بنيته كله بمفردك؟

– ومع من إذن؟ إنه مكان سري.

– وهل يمكنني أن آتي إليه؟

– لا، ستُري الطريق للآخرين.

– بابا قال إنه لن يبحث عنك بعد الآن.
– يجب أن يظل المكان سريًّا مع ذلك.
– هل هذا بسبب أولئك الصبية السارقين؟ ولكن أليسوا أصدقاءك؟
– أحيانًا أجل، وأحيانًا لا.
– والفتاة التي تركب المهر؟
– ماذا يهمك منها؟
– أريد أن أقول أليست صديقتك، وتلعبان معًا؟
– أحيانًا أجل، وأحيانًا لا.
– لماذا أحيانًا لا؟
– لأنني أحيانًا لا أريد هذا، وأحيانًا لا تريده هي.
– هنا في هذا المكان، هل ستحضرها إلى هنا؟

كان كوزيمو — ووجهه قاتم اللون يحاول أن يفرد حصيرة فوق أحد الفروع ... قال بجدية — إذا أتت هنا سأتركها تصعد.

– ألا تريد هي ذلك؟

ارتمى كوزيمو راقدًا.

– لقد رحلَت.

قلت له بصوت منخفض: قل لي، هل أنتما خطيبان.

– لا. أجابني أخي ثم انسحب في صمت طويل.

في اليوم التالي كان الجو صحوًا، وكان قد تقرر أن يستأنف كوزيمو دروس الأب فوشيلافلور، ولكن لم يقل أحد كيف. فبكل بساطة، وفي حركة مفاجئة، دعا البارون الأب (بدلًا من أن يجلس هنا ويحملق في الذباب) أن يذهب ويبحث عن أخي حيث يوجد، ويجعله يترجم جزءًا من أعمال فيرجيليو. ثم خشي أن يكون قد وضع الأب في حرج شديد. فحاول تخفيف هذا العبء عنه وقال لي: اذهب وقل لأخيك أن يكون في الحديقة خلال نصف ساعة للبدء في درس اللغة اللاتينية. وقال هذا بنبرة حاول أن تكون طبيعية بقدر الإمكان، وهي النبرة التي أراد أن يتعامل بها من الآن فصاعدًا: فمع وجود كوزيمو فوق الأشجار كل شيء يجب أن يستمر كما كان.

وهكذا بدأ الدرس. جلس أخي ممتطيًا أحد فروع شجرة الدردار وساقاه تتدليان، والأب جالس في أسفل على العشب فوق مقعد صغير وهو يردد بصوت جهوري أبياتًا شعرية كنت أنا ألعب بالقرب منهما، واختفيا عن بصري لفترة. وعندما عدت وجدت الأب

هو أيضًا فوق الشجرة، يحاول بساقيه النحيفتين الطويلتين بداخل جوربيه الأسودين أن يصعد فوق أحد الفروع، وكوزيمو يساعده جاذبًا إياه من أحد مرفقيه. وأخيرًا عثرا على وضع مريح للأب المسن، وأخذا معًا ينجزان فقرة صعبة وهما منحنيان فوق الكتاب. ويبدو أن أخي أثبت مهارة شديدة.

ثم لا أعرف ماذا حدث، وكيف هرب الطالب بعيدًا، ربما لأن الأب في الأعلى قد شرد وهو يحملق في الفضاء كعادته، وواقع الأمر أنني وجدت الراهب المتشح بالأسود يقبع بين الأغصان وحيدًا، والكتاب على ركبتيه، وهو ينظر إلى فراشة بيضاء ترفرف، وكان يتبعها مندهشًا فاتحًا فمه.

وبمجرد أن اختفت الفراشة أدرك الأب أنه فوق قمة الشجرة، وانتابه الخوف. احتضن جذع الشجرة، وبدأ يصرخ: النجدة! النجدة! فهرع إليه بعض الخدم ومعهم سلم ورويدًا رويدًا هدأ وهبط من فوق.

٩

على كل حال، وبكل ما لهروبه من شهرة، كان يعيش بجوارنا تقريبًا كسابق عهده. كان وحيدًا لا يهرب من الناس، بل لعلنا نقول إنه لم يكن يهتم سوى بالناس. كان يذهب فوق الأماكن التي يوجد الفلاحون فيها يعزقون الأرض، أو ينثرون السماد، أو يحشون الحشائش، ويلقي عليهم بكلمات التحية الرقيقة. عندئذٍ يرفعون رءوسهم دهشين، فيحاول هو أن يفصح لهم على الفور عن مكانه، حيث إنه فقدَ العادة السيئة التي كثيرًا ما مارسناها ونحن نتسلق معًا الأشجار قبل ذلك؛ بأن نطلق أصواتًا، وأن نسخر من الناس الذين يسيرون على الأرض.

في الفترات الأولى، عندما كان الفلاحون يرونه وهو يعبر كل هذه المسافات فوق فروع الأشجار، لا يدركون ولا يعرفون كيف يردون تحيته؛ هل بأن يرفعوا قبعاتهم كما يفعلون مع السادة، أم بأن ينهرونه وكأنه أحد المتشردين. ثم اعتادوا الأمر، وبدءوا يتبادلون معه الحوار حول العمل، والطقس، بل يُبدون أيضًا تقديرهم للعبته وبقائه فوق الأشجار، فهي ليست لعبة أجمل أو أسوأ من ألعاب أخرى كثيرة يرون السادة يمارسونها.

وكان هو يمكث ساكنًا لأنصاف ساعات فوق الشجرة يراقب أعمالهم، ويطرح الأسئلة حول عمليات التسمين والبذر، وهو ما لم يُتَح له البتة وهو يسير فوق الأرض، حيث يعوقه ذلك الانطواء عن أن يتوجه بالحديث إلى القرويين والخدم. وأحيانًا يخبرهم إذا كان الخط الذي يعزقونه معتدلًا أم معوجًّا، أو إذا نضجت ثمار الطماطم بالفعل في حقل جارهم. وأحيانًا أخرى يتطوع بأن يقدم لهم خدمات توصيل صغيرة، مثل أن يذهب ليقول لزوجة أحد الحصادين بأن ترسل له مشحذًا، أو أن يبلغ بأن يحولوا المياه إلى أحد البساتين. وعندما يتحرك في مهام تستدعي الثقة، مثل هذه المهام، من أجل المزارعين، ويرى أثناءها العصافير تحط على أحد حقول القمح، يُحدث ضجيجًا، ويحرك قلنسوته لكي يبعدها عنه.

وفي خلال جولاته وحيدًا في الغابات كانت اللقاءات الإنسانية — على ندرتها — تترك آثارها في نفسه، تلك اللقاءات مع أشخاص لم نكن لنقابلهم قط. ففي تلك الأزمنة اعتاد أن يأتي كثير من الجوالين ليخيموا في الغابات، كالفحامين، وعمال التدفئة، وصناع الزجاج. عائلات دفعها الجوع بعيدًا عن قراها، وذلك لتحصل على طعامها من مهن غير ثابتة. يقيمون ورشهم في الهواء الطلق، ويبنون أكواخًا من فروع الأشجار ليناموا فيها. في البداية، تسبب الشاب المغطى بالفراء الذي يسير فوق الأشجار في إخافتهم، وخاصة النساء اللاتي اعتقدن أنه روح شخص مجنون. ولكنه بعد ذلك عقد معهم صداقات، وأصبح يمكث بالساعات يراقبهم وهم يعملون؛ وفي المساء عندما يجلسون حول النار، يجلس على فرع شجرة قريب ليستمع إلى القصص التي يقصونها.

كان الفحامون المقيمون في الساحة الممهدة بتراب رمادي اللون أكثرهم عددًا، وكانوا يصيحون «هورا! هوتا!» لأنهم أتوا من بيرجامو، ولم يكن حديثهم مفهومًا بالنسبة إلينا. كانوا أقوى التجمعات، منغلقين مرتبطين فيما بينهم: طائفة تنتشر في الغابات كلها، تربطهم علاقات عائلية، وعلاقات، ومشاحنات. وأحيانًا يقوم كوزيمو بدور الوسيط بين جماعة وأخرى، وينقل إليهم الأخبار، ويكلفونه ببعض المهام.

– قال لي الساكنون أسفل شجرة البلوط الحمراء أن أخبركم أن: هانفا لا هابًّا هوتا الهوك!

– لتجبهم أن: هيجن هوبت هو دي هوت!

يحفظ في ذهنه كل تلك الأصوات الهائية الغامضة، ويحاول أن يكررها، كمحاولته أن يردد تغريد الطيور التي توقظه في الصباح.

وإذا كان بالفعل قد انتشر خبر أن ابن بارون روندو لم ينزل من فوق الأشجار منذ أشهر، ظل أبونا يحاول إخفاء الخبر عمن يأتون من الخارج.

جاء لزيارتنا الكونت دي إيستوماك وعائلته، في طريقهم إلى فرنسا، فلهم في خليج طولون بعض الأملاك، وفي أثناء رحلتهم أرادوا التوقف عندنا.

ولا أعرف ما وراء هذه الزيارة من مصالح؛ ربما للمطالبة ببعض الأملاك، أو تأكيد منح الأبرشية لأحد أبنائهم وهو أسقف، كانوا بحاجة إلى موافقة بارون روندو، وبالطبع يبني والدنا على هذا التحالف، أحلامًا من المشروعات خاصة بمطالبته بالسيادة على أومبروزا.

أقيمت لهم مأدبة غداء، غاية في الملل من كثرة ما قاموا به من المبالغة في التحية، وكان مع الضيوف ابنٌ متأنق وضعيف، يرتدي الباروكة. قدم البارون الأبناء، أي أنا

فقط، وأضاف قائلًا: مسكينة ابنتي باتيستا، تعيش منعزلة. وهي تقية جدًّا، لا أدري هل سيمكنكم رؤيتها أم لا.

وإذا بتلك الغبية تحضر وهي ترتدي غطاء رأس راهبة إلا أنه موشًّى ومحلًّى بالشرائط الملونة، وتضع المساحيق على وجهها، وترتدي القفازات القصيرة. كان ينبغي أن نتفهم تصرفها، فهي منذ أن رأت ذات مرة مركيز ميلا الشاب لم ترَ شابًّا آخر سوى بعض الصبية والفلاحين. انحنى أمامها الكونت الشاب انحناءات عديدة، وأخذت هي تضحك ضحكات هيستيرية. أما البارون الذي سبق وفقد كل أمل في ابنته، بدأت تدور في ذهنه مشروعات جديدة محتملة.

ولكن الكونت حاول أن يتظاهر باللامبالاة، وسأل: ولكن أليس لديكم ابن آخر أيها السيد أرمينيو؟!

قال والدنا: نعم، ولكنه، للأسف، خرج اليوم للصيد.

ولم يكن يكذب في ذلك؛ لأنه في تلك الفترة كان كوزيمو دائمًا في الغابة يحمل بندقيته ويراقب الأرانب والعصافير. فقد أعطيته تلك البندقية الخفيفة التي اعتادت باتيستا استخدامها ضد الفئران، والتي — بعد أن أهملت عمليات الصيد — تركتها معلقة منذ فترة على أحد المسامير.

أخذ الكونت يسأل عن حيوانات الصيد الموجودة في المنطقة، والبارون يجيبه إجابات عامة؛ لأنه نظرًا لقلة صبره وعدم انتباهه للعالم من حوله، لم يكن يعرف الصيد. وتدخلت أنا في الحديث، مع أنه كان ممنوعًا أن أتفوه بكلمة وأتدخل في أحاديث الكبار.

قال الكونت: وأنت كيف تعرف هذا أيها الصغير؟!

– لأنني أذهب لأخذ الحيوانات التي يصطادها أخي وأضعها له فوق …

وكنت على وشك أن أكمل، ولكن أبي قاطعني: من الذي دعاك إلى الحديث؟ اذهب لتلعب!

كنا في الحديقة، وكان المساء والسماء مضيئة لأننا في فصل الصيف. وإذا بكوزيمو يأتي من بين أشجار الدلب والدردار، ويتقدم نحونا بكل هدوء مرتديًا قلنسوته التي صنعها من فراء القط البري فوق رأسه، وحاملًا البندقية حول رقبته، ومن الناحية الأخرى يحمل سفودًا، وساقاه في طماقهما.

نهض الكونت، وأخذ يحرك رأسه ليرى بشكل أفضل وهو يصيح مستمتعًا: من هناك؟! من الذي هناك فوق الأشجار؟!

لم ينظر والدنا في الاتجاه الذي يشير إليه الكونت، إنما أخذ ينظر إلى عيني الكونت ليتأكد أنه يرى جيدًا وقال: ماذا هناك؟ لا أعرف ... ربما بدا لك ...

أثناء ذلك وصل كوزيمو ليصبح فوقهما تمامًا، ثابتًا وساقاه منفرجتان فوق أحد الفروع.

– آه، إنه ابني، أجل، كوزيمو، أفعال صبية! ليفاجئنا، تسلق إلى قمة الشجرة ليفاجئنا ...

– أهو ابنك الأكبر؟

– نعم، إنه الأكبر بين الولدين، ولكن ليس بكثير، أتعرف أنهما ما زالا طفلين ... يلهوان.

– ولكنه ماهر جدًّا في السير فوق الفروع، وبكل تلك المعدات على كتفيه.

– آه، يلعبون ...

وبمجهود بشع بسبب عدم الثقة التي جعلت وجهه يضرج بالحمرة قال: ماذا تفعل هناك؟ هيا؟ انزل؟! تعال لتصافح السيد الكونت!

خلع كوزيمو قلنسوته المصنوعة من فراء القط، وانحنى قائلًا: تشرفنا يا سيدي الكونت.

ضحك الكونت: ها ها ها! رائع، بارع. اتركه يمكث في أعلى، اتركه يمكث في أعلى يا سيد أرمينيو! إنه شاب بارع، يسير فوق الأشجار. واستمر في الضحك.

أما ذلك الكونت الصغير الأبله فقال: شيء فريد من نوعه، فريد جدًّا؟!

فلم يكن يعرف سوى أن يكرر ما يُقال.

جلس كوزيمو على الفرع وغيَّر أبي موضوع الحديث، وأخذ يتحدث ويتحدث في محاولة منه لشغل الكونت. ولكن الكونت يرفع عينيه كل فترة لينظر إلى أخي الجالس فوق، على هذه الشجرة أو تلك، ينظف بندقيته، أو يدهن طماقه بالشحوم، أو وهو يرتدي ملابسه الثقيلة بسبب اقتراب الليل.

– آه، انظر! إنه يعرف كيف يقوم بكل شيء فوق الأشجار، ذلك الشاب! آه، كم يعجبني! آه، سأقص كل ذلك في البلاط، بمجرد أن أذهب إلى هناك! سأحكيه أيضًا لابني الأسقف! وسأقصه على خالتي الأميرة!

كاد أبي ينفجر، وكان، بالإضافة إلى ذلك، يفكر في شيء آخر؛ لم يكن يرى ابنته، وكان الكونت الصغير أيضًا قد اختفى عن الأنظار.

وكان كوزيمو قد اختفى في أحد جولاته الاستكشافية، وعاد مقطوع الأنفاس وقال: أصابته بالفواق! أصابته بالفواق!

قلق الكونت وقال: آه شيء مؤسف! إن ابني يعاني الفواق كثيرًا. اذهب أيها الشاب البارع لترى إذا كانت قد عبرت عنه وقل لهما أن يعودا.

قفز كوزيمو مبتعدًا، ثم عاد أكثر إنهاكًا من ذي قبل: إنهما يجريان، فباتيستا تريد أن تضع له سحلية حية داخل قميصه لتذهب عنه «الزغطة» ولكنه لا يريد! ثم مضى ليرى مرة أخرى.

وهكذا قضينا ذلك المساء في الفيلا، ولكنها في الحقيقة لم تكن أمسية مختلفة عن الأمسيات الأخرى، فكوزيمو من فوق الأشجار يشارك خفية في حياتنا، ولكن في هذه المرة ومعنا ضيوف، فأخذت شهرة سلوك أخي الغريب تنتشر في كل بلاطات أوروبا، وشعر لهذا والدنا بالعار. وهو عار لا مبرر له إذ أصبح لدى كونت إيستوماك انطباع حسن عن عائلتنا، وهكذا تمت خطبة أختنا باتيستا للكونت الصغير.

١٠

كانت أشجار الزيتون بمسارها المعوج طرقًا مريحة ومستوية لكوزيمو، نباتات صبورة وصديقة، لها لحاء خشن ليسير فوقها وليتوقف عليها، مع أن الفروع الضخمة قليلة كشجرة، ولا توجد فيها تفريعات كثيرة في الحركة.

ولكن فوق إحدى أشجار التين، وفي محاولة دائمة منه أن تتحمل وزنه، لم ينتهِ قط من التجوال. يمكث كوزيمو أسفل أجنحة الأوراق، ويرى من بين تضليعاتها ضوء الشمس، والثمار الخضراء وهي تنتفخ رويدًا رويدًا. ويستنشق العصارة اللبنية وهي تسيل في عنق الزهور. إن شجرة التين تحولك إلى جزء لا يتجزأ منها، تطبع عليك سائلها اللزج وتصم أذنيك بطنين زنابيرها، وبعد فترة شعر كوزيمو أنه هو ذاته بدأ يتحول إلى شجرة تين، فاستاء لذلك ورحل بعيدًا عنها.

أما على شجر الغبيراء الغليظ، وعلى شجر التوت الأسود فهو يرتاح كثيرًا، ولكنها — مع الأسف — أشجار نادرة. وهكذا أيضًا بالنسبة إلى أشجار الجوز، وهي تعجبني أنا أيضًا، فقط بالكلام، لأنني أحيانًا عندما أرى أخي وهو يختفي داخل شجرة جوز كبيرة عجوز، وكأنها قصر مكون من عدة طوابق، وعدد لا حصر له من الغرف، أشعر بالرغبة في أن أقلده، وأن أذهب وأمكث فوق؛ لما لتلك الأشجار من قوة وثبات استخدمتهما حتى صارت أشجارً، ولما لها من إصرار على أن تكون ثقيلة، وقوية ويتضح هذا أيضًا في أوراقها.

وأحبَّ كوزيمو المكوث أيضًا بين أوراق أشجار البلوط المتموجة (أو السنديان، كما أطلقت عليها طالما الأمر تعلق بأشجار حديقتنا، ربما بسبب تأثير اللغة المنتقاة التي يستخدمها والدنا). وكان يحب فيها لحاءها المتشقق، والذي اعتاد نزع أجزائه بأظافره عندما كان ينهمك في التفكير، ليس بدافع فطري لارتكاب شيء شرير، وإنما ليساعد الشجرة في مهمتها العسيرة في إعادة تجديد نفسها. ويقوم أيضًا بتقشير لحاء شجر الدلب الأبيض،

ليكتشف طبقات ذهبية اللون متعفنة. وكان يحب أيضًا الجذوع المدرجة كما لشجرة الدردار، والتي تفرز من براعمها، في مواجهة الأجسام الغريبة، أغصانًا طرية ومجموعة من الأوراق المسننة، ومن الثمار المورقة. ولكن فوق هذه الأشجار يصعب التحرك لأن أغصانها تصعد إلى أعلى، رفيعة وكثيفة، تاركة القليل من الممرات. وفي الغابات يفضل أشجار الزان والبلوط، لأنه فوق أشجار الصنوبر فروع الأغصان المتقاربة جدًّا، وهي ليست قوية، ولكنها مليئة بالإبر، لا تترك مساحة ولا مكانًا للتشبث؛ وتبدو أشجار الكستناء بأوراقها المسننة، وثمارها الإبرية، ولحائها، وأغصانها المرتفعة وكأنها خُلقت كذلك خصيصًا بغرض إبعاد البشر عنها.

وقد عرف كوزيمو تلك المميزات وتلك الفروق فيما بعد، بمرور الوقت، رويدًا رويدًا، أو على الأقل أدرك أنه يعرفها، ولكنها كانت بالفعل موجودة كجزء منه في تلك الأيام، وكأنها فطرة طبيعية. لقد أصبح العالم الآن متباينًا بالنسبة إليه، عالم من الجسور المعلقة في الهواء، ومن العقد والقشور والتجعدات التي تجعل اللحاء خشنًا، والأضواء التي تغير اخضرارها تبعًا لستار الأوراق إن كانت كثيفة أو نادرة، فترتعش مع الهواء الذي يحرك أغصانها أو التي تتحرك معه كالقلع بمجرد انحناء الأشجار. في حين أن عالمنا نحن، عالم يتسطح بعيدًا، وهيئاتنا صور غير متناسقة، وبالتأكيد لم نكن نفهم أي شيء عما يعرفه هو من أعلى، وهو الذي يقضي الليالي يستمع إلى الخشب، وكيفية ضغطه على خلاياه ليكوِّن الدوائر التي تشير إلى عمره بداخل الجذوع، وكيف تنشر الفطريات بقعها مع هبوب الرياح الشمالية، وكيف ترتعش العصافير النائمة بداخل أعشاشها وهي تحرك رءوسها برجفة لتبحث عن ريش أجنحتها الناعم، وكيف تستيقظ الشرنقة، وتفرخ بيضة طائر الصرد. وهناك أيضًا اللحظة التي فيها يختلط صمت الريف بداخل تجويف الأذن في غبار من الأصوات، مع نحيب الغراب والصفير، والحفيف السريع بين الأعشاب، وخرير المياه، والخشخشة بين الأرض والأحجار، وصرير صرصور الليل الذي يرتفع فوق كل الأصوات الأخرى. وتتوالى تلك الأصوات، ويبدأ السمع في تمييز كل ما هو جديد منها، مثله مثل اليد التي تفرد الصوف ويظهر كل خيط رفيع وقوي وقد تشابك مع خيوطٍ أرفع وأدق. وفي هذه الأثناء تستمر الضفادع في نقيقها الذي يظل كخلفية ولا يتغير تدفق الأصوات، كما لا يتغير الضوء نتيجةً لتلألؤ النجوم المستمر. ولكن مع كل هبوب للرياح وسريانها يتغير كل ضجيج ويصير جديدًا. إلا أنه يبقى دائمًا في أعمق تجاويف الأذن ظلال صوت خرير أو حفيف؛ وكان هذا هو صوت البحر.

وحل فصل الشتاء، صنع كوزيمو لنفسه معطفًا من الفراء، خاطه هو بنفسه من أجزاء جلود حيوانات متنوعة اصطادها: أرانب، ذئاب، سمور، وسناجب. وكان يضع دائمًا فوق رأسه تلك القبعة التي صنعها من فراء القط البري. صنع أيضًا سروالًا من شعر الماعز وجعل قاعدته وركبتيه من الجلد. وفيما يتعلق بالحذاء، أدرك كوزيمو أخيرًا أن أفضل شيء للسير فوق الأشجار هو الخف، وصنع خفًّا لا أعرف من أي جلد، وربما كان جلد الغُرير.

وهكذا يحتمي من البرد. وينبغي أن أقول إن الشتاء في ذلك الوقت كان معتدلًا، وليس ذلك القاسي الذي أخرج نابليون من وكره في روسيا — كما يُقال الآن — وجعل يطارده حتى قاده إلى هنا. ولكن في ذلك الوقت أيضًا لم يكن البقاء في الخلاء في الليل شيئًا هينًا.

وعرف كوزيمو نظام القربة الجلدية؛ فلم يعد يستخدم الخيام أو الأكواخ؛ صنع قربة من الجلد شعرها من الداخل، وعلقها فوق أحد الأغصان. يدخل بداخلها ويختفي تمامًا وينام منكمشًا كالأطفال. وإذا قطع صوت غير معتاد سكون الليل، تظهر أولًا القبعة الفرو من عنق القربة، تليها فوهة البندقية، ثم يخرج محملق العينين (كانوا يقولون إن عينيه قد أصبحتا مضيئتين في الظلام كعيون القطط والبوم؛ ولكنني شخصيًا لم ألحظ هذا قط).

ولكن في الصباح عندما يبدأ طائر أبو رزيق في التغريد، تخرج من القربة قبضتان ترتفعان ثم ذراعان تتسعان وهما تمتدان ببطء، ويرفع مدُّ الذراعين هذا إلى الخارج أيضًا وجهه وهو يتثاءب، يليه جذعه والبندقية معلقة في رقبته، ومعه كيس البارود، وفي النهاية يُخرج ساقيه المقوستين (كانت ساقاه قد بدأتا في التقوس لاعتياده البقاء والتحرك زحفًا أو القرفصاء). وتقفز ساقاه إلى الخارج، ثم يبسطهما. وهكذا بحركة من ظهره، وحكة أسفل سترته الجلدية، يبدأ كوزيمو يومه يقظًا ويانعًا مثل وردة من الورود.

ثم يذهب إلى النافورة، لأنه صنع لنفسه نافورةً معلقة، أو الأفضل أن نقول إنه ساعد الطبيعة وبناها؛ فحيث ينزل جدول كالشلال عند مسقط معين، وترفع بجواره شجرة بلوط أغصانها، أخذ كوزيمو قطعة لحاء من شجرة حور، طولها نحو مترين، وصنع منها ميزابًا، ينقل به المياه من الشلال إلى أغصان شجرة البلوط، وهكذا يستطيع الشرب والاغتسال. وأستطيع أن أؤكد أنه كان يغتسل لأنني رأيته يقوم بذلك مراتٍ عدة؛ ليس كثيرًا، وليس بصفة يومية، ولكنه كان يغتسل، ولديه حتى الصابون. بل عندما يرغب فجأة في ذلك كان يغسل ملابسه بالصابون أحيانًا، وأحضر لهذا الغرض وعاءً للغسيل فوق شجرة البلوط. ثم يفرد ملابسه لتجف على حبل معلق بين فرعين.

يقوم بكل شيء فوق الأشجار، وقد عثر أيضًا على الطريقة التي يشوي بها على السيخ الحيوانات التي يصطادها، من دون أن ينزل. فهو يفعل ما يلي: يشعل النار في ثمرة صنوبر

بواسطة فولاذة للقدح، ثم يلقيها على الأرض في مكانٍ معَد للنار (والذي كنت قد أعددته أنا له، ببعض الأحجار الملساء)، ثم يلقي فوقها بأغصان وفروع جافة، ويضبط النيران بمجرفة وماشات مربوطة في عصِي طويلة، بحيث يصل إلى السيخ المستند إلى فرعين. وكان كل ذلك يتطلب حرصًا شديدًا، فما أسهل أن يشتعل حريق في الغابة. ولذلك وضع الموقد هو أيضًا أسفل البلوطة، قريبًا من الشلال الذي يمكن أن يأخذ منه — في حالة الخطر — كل المياه اللازمة.

وهكذا، يأكل أحيانًا مما يصطاده، وأحيانًا أخرى يبادله مع الفلاحين بالفاكهة والخضروات فكان يعيش حياة طيبة بالفعل، من دون أن يحتاج إلى أي شيء من المنزل. وفي أحد الأيام عرفنا أنه يشرب أيضًا لبنًا طازجًا كل صباح؛ فلقد صادق عنزة تتسلق غصن شجرة زيتون، في موقع سهل على بعد شبرين من الأرض، لم تكن تتسلق؛ بل تصعد برجليها الخلفيتين، وهكذا ينزل ومعه دلو فوق الغصن ويحلبها. وجرى الاتفاق نفسه مع إحدى الدجاجات، دجاجة حمراء، من بادوا، ماهرة جدًّا. صنع لها عشًّا سريًّا، في فجوة أحد الجذوع، حيث يجد بيضة كل يومين، يشربها بعد أن يثقبها ثقبين بدبوس.

مشكلة أخرى واجهته، وهي كيف يقضي حاجته. في البداية كان يقضيها هنا أو هنالك، ليس مهمًّا، فالعالم كبير، ويفعلها حيثما شاء. ثم أدرك أن هذا لم يكن شيئًا جميلًا. عندئذٍ وجد على شاطئ مجرى ميردانزو، شجرة حور تبرز عند نقطة ملائمة ومنزوية وبها غصن يمكنه الجلوس عليه بارتياح. وكان الميردانزو مجرًى مائيًّا قاتم اللون مختبئًا بين الأعواد، تجري مياهه سريعة، وتلقي فيه البلاد المجاورة مياه المجاري. هكذا عاش الشاب البيوفيسكي دي روندو بطريقة متحضرة محترمًا جاره ونفسه.

ولكن ظلت ضرورة إنسانية تنقصه في حياته كصياد؛ فهو ينقصه كلب. كنت أنا موجودًا، فألقي بنفسي في الأدغال وبين الأعشاب لأبحث عن العصافير حمراء الذيل ودجاج الحقل والسمان التي تسقط عندما تصيبها طلقته في وسط السماء، أو ثعلبًا يرديه أرضًا بعد ليلة كاملة من المراقبة، عندما يرى ذيله الطويل ممددًا بمجرد خروجه من كهفه. ولكني عادة ما أنجح في الهروب واللحاق به في الغابات مرات معدودة وقليلة فقط؛ حيث تمنعني دروسي مع الأب الراهب، والدراسة وخدمة القداس، وتناول الوجبات مع والدي، والواجبات العديدة المتعلقة بالحياة العائلية التي كنت أخضع لها، ففي واقع الأمر كانت العبارة التي أسمعها تتكرر كثيرًا هي: «في كل عائلة يكفي وجود متمرد واحد.» وهي عبارة لها سبب وجيه، وتركت بصماتها على حياتي كلها.

لذلك اعتاد كوزيمو على الذهاب إلى الصيد دومًا بمفرده تقريبًا، وليحصل على صيده (عندما لا يصادف طائر الصفارية، والذي يمكث معلقًا على أحد الفروع بجناحيه الأصفرين اليابسين)، يستخدم شيئًا شبيهًا بآلة الصيد: سنارة وخيوط، وخطافات أو شص، ولكنه لم يكن ينجح دائمًا في ذلك، وأحيانًا تظل دجاجة الحقل وقد غطاها النمل في أعماق عليقة.

وحتى الآن لم أسرد سوى واجبات كلاب الصيد، لأن كوزيمو آنذاك لم يكن يقوم إلا بالصيد مختبئًا، كان يمكث طيلة الصباح أو الليل راقدًا على أحد الفروع منتظرًا أن يمر عصفور أحمر الذيل فوق قمة إحدى الأشجار، أو أن يظهر أحد الأرانب في إحدى فسحات المرعى. وإذا لم يحدث هذا يدور بلا هدف، متتبعًا غناء الطيور، أو محاولًا تخمين أكثر المواقع المحتمل فيها العثور على الحيوانات ذات الفراء. وعندما يسمع نباح كلاب الصيد خلف أرنب أو ثعلب، يعرف أنه يجب أن يبتعد، لأن ذلك الحيوان ليس له، فهو مجرد صياد وحيد وعشوائي. ونظرًا إلى أنه اعتاد احترام القواعد، حتى وإن كان يستطيع من مواقعه الرائعة للرؤية أن يلحظ ويصيب الحيوان المستهدف، والذي تطارده كلاب الآخرين، لم يرفع بندقيته قط. فهو ينتظر أن يصل الصياد المنهوك بأذنيه المسترقتين للسمع وعينيه الزائغتين ويشير له إلى الاتجاه الذي سلكه الحيوان.

في أحد الأيام رأى ثعلبًا يجري: بدا كموجة حمراء في وسط الحشائش الخضراء، وكنفخة وحشية وبشوارب حادة، عبر المرعى، واختفى في الكهوف. وخلفه أخذت الكلاب تنبح. وصلت الكلاب راكضة وهي تفحص الأرض بأنوفها، مرتين من دون أن تشم رائحة الثعلب ثم استدارت بزاوية مستقيمة.

وابتعدت بالفعل عندئذٍ اخترق شيء بنباحه المستمر المُلح الحشائش، وهو يقفز قفزات كالسمكة وليس كالكلب، كأنه درفيل من الدرافيل يسبح يظهر منه رأس مُدبب وأذنان مدلاتان أكثر من تلك التي لكلاب الصيد. ومن الخلف، بدا بالفعل كسمكة، بدا وكأنه يسبح محركًا زعانفه، أو خفين وكأنه طير من الطيور السابحة وكان طويل الجذع بلا سيقان. وخرج إلى الساحة الخالية من الأشجار؛ كان كلبًا من كلاب الصيد الألمانية من فصيلة الدشهند.

من المؤكد أنه انضم إلى جماعة كلاب الصيد وتأخر عنها نظرًا إلى صغر حجمه، فهو كالجرو. تحولت ضوضاء كلاب الصيد إلى زمجرة غضب لأنها فقدت الساحة، وتحول جريها معًا إلى شبكة من البحث بالأنوف حول منطقة جرداء إلا من نبات الجربارة، بنفاد صبر شديد للعثور من جديد على خيط الرائحة المفقودة وبينما هي تفقد اندفاعها استغل بعضها الوضع للتبول بجوار حجر ما.

وهكذا لحق بها الدشهند بعدوه وفمه مرفوع إلى أعلى علامةً على فوز ليس له ما يبرره، وكان يصدر — بلا سبب أيضًا — عواءً خبيثًا.

وعلى الفور اتجهت كلاب الصيد نحوه تاركة للحظة بحثها عن رائحة الثعلب، وزمجرت وهي تكاد تهجم عليه وأفواهها مفتوحة للهجوم، إلا أنها سرعان ما استدارت بلا اهتمام وجرَت بعيدًا.

أخذ كوزيمو يتابع الدشهند الذي يتحرك بخطوات غير محددة الاتجاه في هذه المنطقة، وبينما يتأرجح الدشهند بأنفه المشتتة رأى الشاب فوق الشجرة وبدأ يهز ذيله. كان كوزيمو مقتنعًا أن الثعلب ما زال مختبئًا هناك. ابتعدت كلاب الصيد، وأصبح نباحها يصل من بعيد من خلف الأجمة متقطعًا وبلا حماس، تدفعها أصوات الصيادين المختنقة والمحفزة.

قال كوزيمو للدشهند: هيا! هيا! ابحث!

بدأ الكلب الصغير في البحث بأنفه، ويلتفت كل فترة، وينظر إلى أعلى إلى الشاب الذي يقول له: هيا! هيا!

والآن لم يعد يراه. سمع صوت حركة بين الأجمات، ثم تفجر صوت العواء. فقد عثر على الثعلب!

رأى كوزيمو الحيوان يهرب في المرعى، ولكن هل يستطيع أن يطلق النار على ثعلب عثر عليه كلب يمتلكه شخص آخر؟! ترك كوزيمو الثعلب يمر ولم يطلق عليه النار. رفع الدشهند فمه نحوه بنظرة كلب لا يفهم ولا يعرف هل من حقه ألا يفهم، وألقى بنفسه من جديد بأنفه إلى أسفل خلف الثعلب.

وها هو يجبره على الدوران ويعود به، هل كان يمكنه التصويب نحوه أم لا؟ ولم يفعل. نظر الدشهند، إلى أعلى نظرة كلها ألم. لم يعد ينبح ولسانه يتدلى أكثر من أذنيه، كان منهكًا، ولكنه استمر في الجري.

شتت صوته كلاب الصيد والصيادين. وعلى الدرب يجري عجوز يحمل بندقية بارود ثقيلة.

قال له كوزيمو: هيه! هل هذا كلبك؟

صرخ فيه العجوز الذي كان يستشيط غضبًا: فلتذهب إلى الجحيم أنت وكل أهلك، هل نبدو لك من الصيادين الذين يستخدمون الدشهند؟!

أكمل كوزيمو مصرًّا، حيث إنه أراد أن يتبع القاعدة: إذن سأصيد أنا الحيوان الذي يعثر عليه الدشهند.

أجابه ذلك العجوز: ولتصطد أيضًا القديس الذي تمجده! وجرى مبتعدًا.

أحضر له الدشهند الثعلب من جديد. عندئذٍ أطلق كوزيمو النار وصاده، فلقد أصبح الدشهند كلبه، وأطلق عليه اسم ماسيمو أُتيمو.

لم يكن ماسيمو أُتيمو مِلكًا لأحد، فلقد انضم إلى جماعة كلاب الصيد هاويًا. ولكن من أين أتى؟! وليكتشف كوزيمو ذلك ترك الدشهند يقوده.

أخذ الدشهند يعبر — ملاصقًا للأرض — السياج والحفر، ثم يستدير ليرى هل سينجح الشاب الموجود في أعلى في اتباع مساره. كان الطريق غير مألوف لكوزيمو، حتى إنه لم يدرك على الفور إلى أين هم متجهان. وبمجرد أن أدرك أخذ قلبه يدق بعنف في صدره؛ كانا في حديقة مركيزات أونداريفا.

كانت الفيلا مغلقة، والنوافذ موصدة بالعوارض؛ لا توجد سوى نافذة واحدة فقط في بناء فوق سطح المنزل تتخبط بسبب الرياح. وأصبح للحديقة التي تركت بلا رعاية شكل غابة من غابات عالم آخر. وأخذ ماسيمو أُتيمو يتحرك سعيدًا بين طرقها والتي غطتها الأعشاب، وبين أحواض الزرع المليئة بالحشائش المتيبسة وكأنه في منزله، وأخذ يطارد الفراشات، واختفى فجأة، ثم عاد وفي فمه شريط. دق قلب كوزيمو بقوة أكثر: ما هذا يا ماسيمو أُتيمو؟ هيه؟ لمن هذا؟ قل لي!

وأخذ ماسيمو أُتيمو يهز ذيله.

– أحضره إلى هنا يا ماسيمو أُتيمو!

هبط كوزيمو إلى فرع منخفض، وأخذ من فم الكلب تلك الخرقة الكالحة اللون، والتي بالتأكيد أحد شرائط شعر فيولا، كما أن الكلب بالتأكيد كلب فيولا، ربما نسوه هنا عند انتقال العائلة في المرة الأخيرة. بل، يبدو الآن وكأن كوزيمو يتذكره في الصيف الماضي عندما كان جروًا صغيرًا تمسكه الفتاة الشقراء في سلة معلقة بذراعها، ولعلهم أهدوه إليها في ذلك الوقت.

– ابحث، يا ماسيمو أُتيمو!

وأخذ الدشهند يلقي بنفسه بين نباتات البامبو، ويعود ومعه تذكارات أخرى؛ الحبل الذي اعتادت أن تقفز به، قطعة من طائرة ورقية، مروحة.

وعلى قمة جذع أعلى شجرة في الحديقة حفر كوزيمو بطرف سيفه الصغير الاسمين «فيولا وكوزيمو»، ثم في أسفل بقليل — وهو واثق تمام الثقة أنه سيسعدها أيضًا، حتى لو كانت تطلق عليه اسمًا آخر — كتب: الكلب الدشهند ماسيمو أُتيمو.

ومنذ ذلك الحين، عندما نرى الصبي فوق الأشجار كنا واثقين أنه إذا نظرنا إلى أسفل وفي مواجهته أو بالقرب منه سنرى الدشهند ماسيمو أُتيمو وهو يهرول ببطنه الملامس للأرض. فقد علمه البحث، والاصطياد، وإحضار الصيد؛ الأعمال التي تقوم بها كل كلاب الصيد، ولا يوجد حيوان في الغابة لم يصطاداها معًا. كان ماسيمو أُتيمو يتسلق بمخلبيه إلى أعلى جذع يستطيع الوصول إليه ليحضر الفريسة؛ ويتدلى كوزيمو من فوق ليأخذ الأرنب أو طائر الحجل من فمه ويربت على رأسه. كانت علاقتهما الحميمة تكمن في هذا، وفي هذا تكمن أيضًا كل سعادتهما. ولكن يجري بينهما باستمرار بين الأرض وفروع الأشجار، وبين أحدهما للآخر حوار يتميز بالذكاء، نباح من مقطع واحد، تجيبه طقطقة من اللسان والأصابع. كان ذلك هو الوجود الضروري الذي يمثله الإنسان للكلب والكلب للإنسان، لم يكن أحدهما يخذل الآخر قط، مع أنهما مختلفان سواء عن كل البشر، أو عن كلاب الصيد الأخرى. من الممكن أن نقول إنهما كانا سعيدين بعلاقتهما تلك، سعادة الإنسان والكلب!

١١

ظل الصيد لفترة طويلة بالنسبة إلى كوزيمو في فترة المراهقة، هو عالمه الوحيد وصيد السمك أيضًا، لأنه يظل ينتظر بخيط الصيد ثعبان البحر، وأسماك السلمون المرقط في مستنقعات المياه الجارية. وكنا أحيانًا نعتقد أنه قد أصبحت لديه حواس وغرائز مختلفة عنا، وأضحت تلك الأقمصة الجلدية التي حاكها ليرتديها تتفق تمامًا مع التغيير الكامل لطبيعته.

من المؤكد أن مكوثه باستمرار ملاصقًا للحاء الأشجار، وعيناه معلقتان تحدقان إلى حركة الريش والفراء وقشر الأسماك وإلى تلك المجموعة الكبيرة من الألوان التي تمثلها مظاهر ذلك العالم، ثم ذلك اللون الأخضر الذي يجري كدماء من عالم آخر في عروق أوراق الأشجار؛ لكل أشكال الحياة هذه، البعيدة تمامًا عن الحياة الإنسانية، مثل ساق النبات، ومنقار العصفور، وخياشيم الأسماك، حدود العالم البري الذي اندفع هو تمامًا إلى أعماقه، كانت لكل هذه العناصر القدرة على أن تؤثر على تشكيل روحه وتفقده ملامحه الإنسانية. ولكن، ونظرًا إلى المواهب الكثيرة التي استطاع اكتسابها من وجوده وسط النباتات وصراعه مع الحيوانات، كان يتضح لي أكثر فأكثر كيف أن مكانه الحقيقي هو بالفعل هنا، في وسطنا.

ولكن، رغمًا عنه، أصبحت بعض العادات التي حاول الاحتفاظ بها نادرة، بل وبدأ يفقدها. مثلما حدث لعادة حضورنا الاحتفال بالقداس الكبير لأومبروزا. حاول كوزيمو أن يفعل ذلك في الأشهر الأولى. في كل يوم أحد عندما تخرج كل العائلة في حشد صغير مرتدية ملابس الاحتفالات، كنا نجده فوق الفروع، ونجده هو أيضًا بطريقة ما يرتدي ملابس احتفالية، فعلى سبيل المثال يضع الفراك، أو قبعته الثلاثية القرون بدلًا من قبعة الفراء. كنا ننطلق، وهو يتبعنا بين الفروع، وهكذا نسير في اختيال في طريق الكنيسة، تراقبنا كل

أعين سكان أومبروزا (ولكن سرعان ما اعتادوا ذلك، وخف أيضًا ضيق والدنا) نحن جميعًا نسير على أقدامنا، وهو يقفز في منظر غريب، وخاصة في فصل الشتاء والأشجار عارية الأوراق.

ندخل الكاتدرائية ونجلس في الصف المخصص لعائلتنا بينما يجلس في الخارج. كان يقبع على شجرة بلوط بجوار أحد الأروقة، تمامًا في ارتفاع نافذة كبيرة. ومن مقعدنا نرى من وراء الزجاج ظلال الفروع، ونلمح فوقها ظل كوزيمو ممسكًا بقبعته في صدره ورأسه منحنٍ. وباتفاق من والدنا مع أحد خدام الكنيسة تُترك تلك النافذة نصف مفتوحة في كل يوم أحد، هكذا يستطيع أخي أن يستمع إلى القداس من فوق شجرته. ولكن بمرور الوقت لم نعد نراه، وأغلقوا النافذة الزجاجية بسبب تيارات الهواء.

فقدت أشياء كثيرة بالنسبة إليه قدرًا من الأهمية، ففي الربيع كانت خطوبة أختنا. من كان يمكنه تصديق ذلك، فقط منذ عام واحد؟ جاءت عائلة كونت إيستوماك ومعهم الكونت الصغير، وكان هناك احتفال كبير. أضيئت كل حجرة في قصرنا، وجاء كل نبلاء الجوار، وبدأ الجميع يرقصون. من إذن يفكر في كوزيمو؟ لم يكن هذا حقيقيًّا، فقد كنا جميعًا نفكر فيه.

أخذت أنظر من حين لآخر خارج النوافذ لأرى هل سيحضر، وشعر والدنا بالحزن، فمن المؤكد أن كل تفكيره كان متجهًا نحوه في وسط هذا الاحتفال، نحو من استبعد نفسه، والجنرالة التي ترأس كل الحفلة وكأنها تقف في ميدان المعركة، أرادت فقط أن تهرب من آلامها لغيابه. وربما فكرت باتيستا أيضًا فيه، باتيستا المنهمكة في الرقص، والتي بدت لي غريبة من دون ملابس الراهبة، مرتدية باروكة كأنها المرزبانية وثوب بتنورة متسعة ومطرزة بالمرجان، والذي لا أعرف أية حائكة تلك التي حاكته لها، حتى هي أراهن أنها كانت تفكر فيه.

إلا أنه كان موجودًا — لم نره — ولكنني عرفت ذلك فيما بعد. وقف متواريًا في الظل في قمة إحدى أشجار الدلب، في البرد، ينظر النوافذ والضوء ينبعث منها، والحجرات مجهزة للحفلة، والأشخاص ذوي الباروكة وهم يرقصون. ما الأفكار التي مرت بذهنه؟ هل شعر بالحنين، ولو قليلًا، إلى حياتنا؟ هل فكر في كيف أن مسافة الخطوة التي تفصله عن العودة إلى عالمنا قصيرة؟ هل فكر كم هي قصيرة، وكم هي سهلة؟! لا أعرف فيما فكر، وماذا أراد وهو هناك. أعرف فقط أنه مكث طيلة الحفلة، وبعد ذلك أيضًا حتى أطفأنا الشمع واحدة تلو الأخرى، ولم تبقَ نافذة واحدة مضيئة.

واستمرت العلاقة إذن بين كوزيمو والعائلة، سواء بصورة حسنة أو سيئة. بل يمكن القول إنها توطدت مع أحد أفرادها، وفقط الآن يمكن القول إنه تعلم كيف يعرفه، وهو الفارس المحامي إينيا سيلفيو كاريجا.

ذلك الرجل المغيب تقريبًا، بل الغامض، الذي لم ينجح أحد قط في معرفة أين يذهب، وماذا يفعل. اكتشف كوزيمو أنه الوحيد في عائلتنا الذي له عدد كبير من المهام. ليس هذا فقط؛ بل اكتشف أن كل ما كان يفعله مفيد.

فهو يخرج، ربما في أكثر ساعات الظهيرة قيظًا واضعًا طربوشه على رأسه، وخطواته تتعثر في ردائه الطويل الذي يكاد يلامس الأرض، ويختفي وكأن ثغرات الأرض ابتلعته، أو السياج، أو أحجار الأسوار. حتى كوزيمو الذي يتسلى بأن يبقى دائمًا في وضع المراقبة (أو الأفضل أن نقول إنه لم يكن يتسلى، بل أصبحت تلك الآن هي حالته الطبيعية، وكأن عينيه تحتضنان أفقًا متسعًا يحتوي كل شيء)، يفقد رؤيته عند موضع معين.

وأحيانًا يجري من فرع إلى فرع تجاه المكان الذي اختفى فيه، ولا ينجح قط في معرفة أي الطرق سلك، ولكن كانت تظهر علامة ما دائمًا عند اختفائه؛ نحل يطير. وانتهى الأمر أن اقتنع كوزيمو بأن وجود الفارس مرتبط بوجود النحل، وأنه لكي يصل إليه عليه اتباع طيران النحل.

ولكن كيف يمكن ذلك؟ فحول كل نبات مزدهر يوجد طنين نحل. يجب إذن ألا ندع بعض المجموعات الهامشية والفردية تشتتنا، علينا اتباع الطريق الجوي غير المرئي الذي فيه يتكاثف طيران النحل حتى نرى سحابة مكثفة منه، ترتفع خلف سياج وكأنها الدخان. وهناك في أسفل توجد المناحل، واحد أو أكثر، موضوعة في صف فوق إحدى الموائد، وفي وسط هذا السرب من النحل يقف الفارس.

فالمناحل هذه أحد أنشطة عمنا السرية، سرية إلى حد ما، فهو بنفسه يحضر على مائدة الطعام — من حين إلى آخر — خلايا نحل مليئة بالعسل نُزعت لتوها من المنحل، ولكنه ظل نشاطًا يمارسه خارج محيط أملاكنا؛ في أماكن بالتأكيد (كما هو واضح) لم يرد أن يعرف أحد عنها شيئًا. ولا بد أنه حرص على ذلك ليبعد دخل هذه الصناعة الشخصية عن إدارة أملاك عائلتنا الخاسرة؛ أو ربما — نظرًا إلى أن الرجل لم يكن بخيلًا، ثم ماذا يمكن أن يدر عليه بعض النحل والشمع؟ — لمجرد أن يمتلك شيئًا لا يدس فيه أخوه البارون أنفه، ولا يزعم فيه أنه يقوده من يده، أو ربما أيضًا حتى لا يخلط الأشياء القليلة التي يحبها، مثل رعاية النحل، بالأشياء الكثيرة التي لا يحبها، مثل إدارة الأعمال.

على كل حال يبقى أيضًا واقع أن والدنا لم يكن سيسمح له أبدًا بأن يحتفظ بالنحل بالقرب من المنزل؛ لأن البارون يعاني فزعًا — غير مبرر — من أن تلسعه نحلة. وإذا تصادف أن اقتحمت نحلة أو دبور الحديقة يبدأ في الجري هربًا بين طرقات الحديقة، واضعًا يده على رأسه مثبتًا باروكته وكأنه يحمي نفسه من هجوم صقر. وفي إحدى المرات وهو يفعل ذلك طارت الباروكة بعيدًا، واندفعت النحلة — التي فزعت بدورها من قفزته — نحوه، وغرست إبرتها في صلعته. ومكث بعدها ثلاثة أيام يربط رأسه بمنديل كبير مبلل بالخل. فمع أنه رجل فخور وقوي فعلًا في الحالات الأكثر خطورة، إلا أن أي خدش بسيط، أو لدغة حشرة عادة ما تصيبه بالجنون.

إذن، قسم إينيا سيلفيو كاريجا تربية النحل هنا وهناك في كل أنحاء وادي أومبروزا؛ وأعطاه أصحاب الأرض الإذن بأن يحتفظ بمنحل أو اثنين أو ثلاثة في أحد أطراف مزارعهم، في مقابل بعض العسل، وكان هو دائمًا يتجول من مكان إلى آخر متنقلًا حول مناحله بحركات يبدو من خلالها وكأن لديه سيقان نحل بدلًا من يديه، وأيضًا لأنه يضعها في بعض الأحيان، حتى لا يتعرض للسع النحل، بداخل أنصاف قفازات سوداء. وعلى وجهه، أسفل طربوشه، يضع قماشًا شفافًا أسود، والذي مع كل نفس كان يلتصق بوجهه، ويرفعه عن فمه. ويشيح بأداة تطلق الدخان ليبعد عنه الحشرات أثناء تنقيبه في المناحل.

بدت كل هذه الأشياء: اندفاع النحل، والوشاح الأسود، وسحابة الدخان، لكوزيمو وكأنها سحر يمارسه ذلك الرجل، محاولًا من خلاله أن يختفي، وأن يُمحى من الوجود، أن يطير بعيدًا، ثم يولد شخصًا آخر في زمان آخر أو في مكان آخر، ولكنه كان ساحرًا متواضعًا، حيث يظهر من جديد هو نفسه، ربما وهو يمتص إحدى أصابعه التي لسعها النحل.

وفي الربيع. وفي صباح أحد الأيام رأى كوزيمو الهواء وكأنه قد أصيب بمس من الجنون. يتذبذب في صوت لم يسمعه من قبل، طنين متواصل يكاد يصل إلى صوت الانفجار، ويتخلل الهواء صوت هطول غزير، والذي بدلًا من أن يسقط أرضًا يتحرك في اتجاه أفقي، ويتلولب ببطء وينتشر، ولكنه يتبع شيئًا يشبه عامودًا أكثر كثافة. مئات من النحل؛ وحولها الزرع والورود والشمس، ولم يفهم كوزيمو ما يحدث، وشعر وكأنه أصيب بانفعال شديد ومدمر.

وأخذ يصرخ: النحل يهرب! أيها الفارس المحامي! النحل يهرب! وهو يجري بين الأشجار بحثًا عن كاريجا.

سمع صوت الفارس وهو يقول: إنه لا يهرب أيها الغبي! ورآه أسفل منه، بارزًا وكأنه نبات عش الغراب، ويشير إليه بأن يلتزم الصمت. ثم جرى على الفور واختفى. تُرى إلى أين ذهب؟ وكان موسم بناء خلايا النحل. يتبع سرب من النحل ملكة خارج الخلية القديمة. نظر كوزيمو حوله، وإذا بالفارس المحامي يظهر من جديد من أمام باب المطبخ وفي يده قدر ومقلاة، ثم أخذ يضرب بالمقلاة فوق القدر فارتفع صوت «دنج! دنج!» عاليًا جدًّا يدوي في الآذان، ثم يخفت في ذبذبة طويلة. ارتفع الصوت مزعجًا جدًّا، يكاد يؤدي إلى الصمم. يسير الفارس المحامي خلف سرب النحل وهو يقرع تلك الأدوات النحاسية كل ثلاث خطوات. ومع كل طرقة يبدو وكأن السرب أصيب برعشة، ينزل بسرعة إلى أسفل ثم يعود ليرتفع، ويضعف طنينه، ويتزعزع طيرانه.

لم يستطع كوزيمو الرؤية جيدًا، ولكن بدا له أن الأسراب الآن تتجه نحو نقطة بين الأشجار، ولم تعد ترتفع إلى أعلى. واستمر الفارس في ضرب القدر.

لحق به أخي وسأله: ماذا يحدث أيها الفارس المحامي؟ ماذا تفعل؟ غمغم هو: هيا بسرعة اذهب إلى الشجرة حيث توقف سرب النحل، ولكن حذارِ أن تحركها حتى أصل.

هبط سرب النحل في اتجاه شجرة رمَّان، وإليها وصل كوزيمو. في البداية لم يكن يرى شيئًا، ثم على الفور لمح شيئًا يشبه فاكهة ضخمة على ثمرة صنوبر، متدلية من أحد الفروع، مصنوعة من النحل المعلق الواحدة في الأخرى، وأخذ النحل يتوالى عليه فيزيده حجمًا. يقف كوزيمو فوق قمة شجرة الرمان حابسًا أنفاسه، وفي أسفل يتدلى عنقود النحل. وكلما كبر حجمه بدا أخف وزنًا، وكأنه معلق في خيط رفيع، بل أقل من ذلك في مخالب ملكة نحل عجوز، ومصنوع من عظام غضروفية رقيقة مع كل تلك الأجنحة التي ترفرف، والتي تفرد لونها الشفاف الرمادي فوق الخطوط السوداء والصفراء لجذعها.

وصل الفارس المحامي وثبًا، ممسكًا بمنحل بين يديه، ووضعه مقلوبًا أسفل عنقود النحل، وقال هامسًا لكوزيمو: هيا، هزة بسيطة سريعة.

هز كوزيمو بخفة شجرة الرمان، فسقطت الخلية المكونة من آلاف النحل، ووقعت في المنحل وكأنها ورقة شجر، وأغلق الفارس المنحل بالقاعدة الخشبية قائلًا: تمت المهمة!

وهكذا نشأ نوع من التفاهم بين كوزيمو والفارس المحامي، نوع من التعاون يمكن أن نطلق عليه أيضًا أنه نوع من الصداقة، إذا لم يكن لفظ «صداقة» يبدو مبالغًا فيه إذا أشرنا به إلى شخصين مثلهما غير اجتماعيين.

وفي مجال الري أيضًا تعاون أخي مع إينيا سيلفيو، وهو الأمر الذي يبدو غريبًا؛ حيث يصعب أن يُكون أي علاقة بالآبار والقنوات نظرًا إلى أنه قاطن بين الأشجار، ولكنني سبق

وأخبرتكم عن ذلك النظام الخاص بالنافورة المعلقة، والتي اكتشفها كوزيمو بواسطة لحاء شجرة الحور، حيث تجلب له المياه من شلال لتصل إليه بين فروع شجرة البلوط. وأما عن الفارس المحامي، وبالرغم من شروده الشديد، إلا أنه لا شيء يفوته فيما يتعلق بما يدور في شرايين مياه الحقل كله. ومن فوق منحدر المياه، مختفيًا خلف شجرة نوار أبيض تجسس على كوزيمو وهو يخرج ماسورة المياه من بين أغصان شجرة البلوط (حيث يضعها عندما لا يستخدمها بسبب تلك العادة الهمجية التي سرعان ما اكتسبها؛ بأن يخفي كل شيء)، واضعًا إياها على أحد فروع الشجرة، ومن الناحية الأخرى على بعض الأحجار البارزة، ويشرب.

وعند رؤيته لهذا المنظر من يدري ماذا دار في رأس الفارس؛ فقد اجتاحته إحدى تلك اللحظات الحماسية النادرة، خرج لفوره من وراء شجرة النوار، ضاربًا بيديه، وقفز قفزتين أو ثلاثًا وكأنه يقفز الحبل، ولامس المياه، وكاد يسقط في المنحدر ويطير إلى أسفل الهاوية. وبدأ يشرح للصبي الفكرة التي واتته. كانت الفكرة مرتبكة وشرحها أكثر ارتباكًا. اعتاد الفارس المحامي التحدث بالعامية، كنوع من التواضع أكثر من كونه يجهل اللغة، ولكن في لحظات الانفعال الزائد المفاجئة كان يتحول من الحديث بالعامية إلى الحديث بالتركية، من دون أن يدرك ذلك، ولم يكن أحد يفهم منه أي شيء.

باختصار جاءته فكرة مجاري المياه المعلقة، وذلك من خلال مواسير مياه تحملها فروع الأشجار، والتي ستسمح بوصول المياه الجارية إلى الجهة الأخرى من الوادي، حيث المنطقة الجدباء، وريها. ولاستكمال المشروع، اقترح عليه كوزيمو مُعدلًا فيه أن يستخدم في بعض المناطق جذوعًا تقوم بعمل مواسير مثقوبة ليروي المشاتل بالتنقيط، والذي حاز على إعجابه الشديد.

جرى سريعًا إلى مكتبه ليملأ الأوراق بالمشروعات. بل انشغل كوزيمو أيضًا بذلك، لأن أي شيء يمكن إنجازه فوق الأشجار يعجبه، ويبدو له أنه يعطي أهمية جديدة وسلطة لوضعه فوق، وبدا له أنه وجد في إينيا سيلفيو كاريجا رفيقًا مثاليًّا. بدآ يتواعدان أسفل أشجار معينة، يصعد الفارس المحامي عليها بسلم مثلث الشكل، وذراعاه تحملان كثيرًا من أوراق المشروعات، ويتناقشان ساعات طويلة عن التعديلات التي تزداد تعقيدًا لمجرى المياه هذا.

ولكن لم يصل هذا المشروع قط إلى المرحلة العملية؛ فلقد تعب إينيا سيلفيو، وأوقف مباحثاته مع كوزيمو، ولم يكمل قط تصميماته، وربما نسي كل شيء بعد مرور أسبوع. لم

يندم كوزيمو على ذلك؛ فسرعان ما أدرك أن هذا المشروع كان سيسبب تعقيدات مزعجة لحياته ليس إلا.

كان جليًّا أن عمنا لديه إمكانات كبيرة في مجال الري الزراعي؛ فلديه الشغف بذلك، بل ولا تنقصه أيضًا العقلية الخاصة اللازمة لذلك الفرع من الدراسة، إلا أنه لا يعرف كيف ينفذ ما يريد. يضيع ويضل الطريق حتى يصل كل اقتراح له إلى لا شيء، وكأنه مياه صارت في المجرى الخطأ، وبعد أن دارت لفترة ابتلعتها الأرض البور.

ربما لأنه أثناء رعايته للنحل يمكنه أن يفعل ذلك لحسابه الخاص، تقريبًا في السر ودون أن يطلع أحد على ما يفعله، مقدمًا من حين إلى آخر هدية من العسل والشمع لم يطلبهما منه أحد، بينما عليه — على العكس — في عمليات فتح القنوات تلك أن يضع في حسبانه مصالح هذا وذاك متحملًا آراء وأوامر البارون أو أي شخص آخر يكلفه العمل. ونظرًا إلى أنه خجول ومتردد، لم يعتد أن يعارض إرادة الآخرين، ولكنه سرعان ما يمقت العمل ويهمله.

يمكن رؤيته في كل الساعات، وسط حقل ما وحوله رجال مسلحون بالمجارف والفئوس، وهو ممسك بمقياس أمتار، وورقة ملفوفة لخريطة ما، وهو يعطي الأوامر بحفر قناة ويقوم بقياس الأرض بخطواته، والتي نظرًا إلى كونها قصيرة جدًّا عليه إطالتها بطريقة مبالغ فيها. يجعلهم يبدءون في الحفر في مكان ما، ثم ينتقل إلى آخر، ثم يتوقف، ويعود مرة أخرى إلى القياس. وبمجرد أن يحل الظلام يوقف كل شيء. وفي اليوم التالي يصبح من الصعب عليه أن يقرر استكمال العمل عند تلك النقطة، فيختفي بعد ذلك لمدة أسبوع.

كان ولعه بالري الزراعي مليء بالتطلعات، والاندفاعات، والأمنيات. حيث حُفرت ذكرى في قلبه، ذكرى تلك الأراضي والبساتين والحدائق الرائعة الجمال التي اعتنى بريها لدى السلطان، والتي لا بد وأنه عاش فيها سعيدًا، بل ربما تُعد أسعد فترة في حياته. اعتاد أن يقارن باستمرار تلك الحدائق الجميلة الأمازيغية أو التركية بحقول أومبروزا، ويدفعه ذلك إلى محاولة إصلاحها بحثًا عن مماثلتها بما لديه من ذكريات. وبما أنه برع في الري الزراعي فقد ركز أمنية التغيير لديه في ذلك، إلا أنه اصطدم باستمرار بالواقع مما أصابه بالإحباط.

وكان يمارس أيضًا التنجيم، في الخفاء، لأن ممارسة تلك الفنون الغريبة في تلك الفترة قد يؤدي إلى اتهامه بممارسة السحر. وفي إحدى المرات اكتشفه كوزيمو في أحد المراعي

وهو يقوم برقصة البيرويت باسطًا أمامه عصًا تنتهي بتفرع. وربما كانت هذه أيضًا إحدى المحاولات لتقليد شيء شاهد آخرين يقومون به، ولم يمارسه قط، لأنه لم يخرج منه بأي نتيجة.

وبالنسبة إلى كوزيمو أفاده إدراكه لطباع سيلفيو كاريجا فيما يلي: فقد أدرك أشياء كثيرة تتعلق بحياة الإنسان بمفرده، والتي أثرت على حياته فيما بعد. أقصد بذلك أنه وضع دائمًا نصب عينيه الصورة الغريبة للفارس كاريجا كنموذج لما يمكن أن يصبح عليه الإنسان عندما يفصل مصيره عن مصير الآخرين، ومن ثم نجح في ألا يتشبه به البتة.

١٢

أحيانًا يستيقظ كوزيمو ليلًا على صرخات: النجدة! اللصوص! الحقوا بهم!

عندئذٍ كوزيمو يتحرك بسرعة بين الأشجار متجهًا إلى حيث مصدر الصراخ، ربما كان بيتًا ريفيًّا لملاك صغار، وتقف في الخارج ربة عائلة شبه عارية وهي تضع يديها فوق رأسها.

– يا لشقائنا، يا لشقائنا، أتى جان البروجي وسرق كل ثمن المحصول! ويجتمع الناس.

– جان البروجي؟ هل كان هو؟ هل رأيته؟

– كان هو! هو! يرتدي قناعًا على وجهه، ويمسك بمسدس طويل هكذا، ويسير خلفه اثنان مقنعان مثله، وهو يقودهما! هو بالتأكيد جان البروجي!

– وأين هو؟ أين ذهب؟!

– آه، يا لك من ماهر، فلتقبضوا على جان البروجي! من يدري أين ذهب الآن؟!

أو ربما ارتفعت صرخات مسافر تُرك في وسط الطريق بعد أن جُرد من كل شيء؛ حصانه، وحقيبته، ومعطفه، وكل متاعه.

– النجدة! سرقوني! إنه جان البروجي!

– كيف حدث هذا؟ قل لنا!

– قفز من هناك، أسود اللون، ملتح، وسدد نحوي بندقيته. لقد نجوت بأعجوبة!

– هيا بسرعة لنتبعه! من أية جهة هرب!

– من هنا! لا، ربما من هناك! كان يجري كالريح!

وصمم كوزيمو على رؤية جان البروجي، وأخذ يجوب الغابة طولًا وعرضًا خلف الأرانب والطيور وهو يحث الدشهند: ابحث، ابحث يا ماسيمو أُتيمو!

ولكنه أراد العثور على قاطع الطريق شخصيًّا، لا ليصنع به شيئًا، أو حتى ليقول له شيئًا؛ وإنما فقط ليرى شخصًا مشهورًا بهذه الطريقة وجهًا لوجه. ولكنه لم ينجح في لقائه قط، حتى بعد أن قضى ليلة كاملة بحثًا عنه. وكان كوزيمو يقول لنفسه: «هذا معناه أنه اليوم لم يخرج.» ولكن في الصباح، هنا وهناك في الوادي، تنتشر أحاديث الناس فوق سطح أحد البيوت، أو في أحد منعطفات الطريق يعلقون على السرقة الجديدة. فيهرع كوزيمو نحوهم ويفتح أذنيه ليستمع إلى تلك الحكايات.

وفي إحدى المرات قال له أحدهم: ولكن أنت يا من تمكث دائمًا فوق أشجار الغابة، ألم ترَ قط جان داي بروجي؟

شعر كوزيمو بالخجل الشديد وقال: حسنًا ... لا على ما يبدو. ويتدخل شخص آخر: وكيف تريده أن يراه؟ إن جان البروجي لديه مخابئ لا يمكن أحدًا أن يجدها، ويسير في طرقات لا أحد يعرفها قط!

– من يقبض عليه سيعيش ملكًا حياته كلها بالمكافأة المرصودة للقبض عليه!

– فعلًا! ولكن أولئك الذين يعرفون أين هو، لديهم أيضًا الكثير ليصفوه مع العدالة تقريبًا مثله، وإذا فعلوا ذلك سينتهي أمرهم على حبل المشنقة أيضًا!

– جان البروجي! جان البروجي! ولكن هل يمكن أن يكون هو مرتكب كل تلك الجرائم!

– بالطبع، إنه متهم بالكثير من الجرائم، حتى إنه إذا استطاع تبرئة نفسه من عشر سرقات، سيشنقونه بسبب السرقة الحادية عشرة.

– لقد قام بقطع الطريق في كل غابات الساحل!

– وقتل أيضًا أحد رؤساء عصابته في شبابه!

– ولقد طارده أيضًا قطاع الطرق.

– ولذلك جاء ليختبئ في منطقتنا!

– آه ذلك لأننا أناس شجعان!

فيذهب كوزيمو ليتحدث عن أي خبر جديد مع عمال الفحم. ومن بين الذين يخيمون في الغابة، كانت توجد في تلك الأزمنة فئة من المشتبه فيهم الجائلين: عمال فحم، منجِّدي كراسي، بائعي خرق بالية، أشخاص يدورون على المنازل، وفي الصباح يدرسون السرقة التي سينفذونها في المساء. ولديهم في الغابة بالإضافة إلى معمل التجريب، الملجأ السري، ومخزن المسروقات.

– هل تعرفون أن هذا المساء هاجم جان البروجي عربة تجرها أحصنة؟!

– آه، حقًّا؟ ربما، كل شيء جائز!

– أوقف الأحصنة وهي تركض ممسكًا إياها من فكها!

– حسنًا، وربما لم يكن هو، وبدلًا من الأحصنة لم تكن سوى صراصير!

– ماذا تقول؟ ألا تصدق أنه كان جان البروجي؟!

– آه حقًّا، حقًّا، ولكن ما هذه الأفكار التي تضعها في رأسك؟ بالتأكيد جان داي بروجي!

– وهل هناك شيء لا يستطيع أن يفعله جان البروجي.

– آه آه آه!

وعندما سمعهم يتحدثون بهذه الطريقة عن جان البروجي لم يعد كوزيمو يفهم شيئًا، تجول في الغابة، وذهب ليسمع مخيمًا آخر للمتجولين.

– قولوا لي، في رأيكم هل ما حدث للعربة التي تجرها أحصنة هذه الليلة ضربة من ضربات جان البروجي؟

– إن كل السرقات يقوم بها جان البروجي، خاصة عندما تنجح، ألا تعرف ذلك؟

– لماذا عندما تنجح؟!

– لأنها عندما لا تنجح فإن هذا يعني أنها بالفعل أفعال جان البروجي!

– آه آه! ذلك الفاشل!

لم يعد كوزيمو يفهم أي شيء: جان البروجي فاشل؟

عندئذٍ يسرع الآخرون في تغيير نبرة الحديث: ولكن لا، لا، إنه لص يخيف الجميع!

– هل رأيتموه بأنفسكم؟

– نحن؟ ومن ذلك الذي رآه؟!

– وهل أنتم متأكدون من وجوده؟!

– آه، دعابة جميلة! من المؤكد أنه موجود! حتى وإن لم يكن موجودًا!

– إن لم يكن موجودًا؟!

– سيكون هذا أو ذاك ... ها ها ها!

– من المؤكد أنه يجب أن نقول هكذا: إنه جان البروجي الذي يسرق ويذبح في كل مكان، ذلك اللص الفظيع! هل تريد أن نقول إن هناك أحدًا يشك فيه؟!

– أنت أيها الصبي، هل تجد في نفسك الشجاعة لتشك في ذلك؟!

وهكذا أدرك كوزيمو أن الخوف من جان البروجي المنتشر في الوادي يتحول إلى سلوك مليء بالشك، ومثير للسخرية كلما صعدنا نحو الغابة.

وهكذا لم يعد يشعر بالرغبة الفضولية في مقابلته؛ لأنه أدرك أن جان البروجي لدى أكثر الناس خبرة لا أهمية له. وعندئذٍ التقى به.

كان كوزيمو فوق شجرة جوز في ظهيرة أحد الأيام يقرأ. حيث تملكه منذ فترة قليلة الحنين إلى بعض الكتب؛ فالبقاء طوال اليوم في انتظار فريسة لاقتناصها شيء ممل جدًّا. ولذلك جلس يقرأ رواية «جيل بلاس» لآلان رينيه ليساج ممسكًا بالكتاب في يد والبندقية في اليد الأخرى. وماسيمو أُتيمو الذي يتضايق من أن يقرأ سيده يدور حوله محاولًا إيجاد أسباب لتشتيته؛ فكان مثلًا ينبح وراء فراشة ليرى هل سينجح في جعله يسدد بندقيته نحو الهدف.

وإذا برجل ملتحٍ في حالة سيئة وغير مسلح يجري لاهثًا من اتجاه الجبل في الممر وخلفه يجري شرطيان ممسكين بخناجر، ويلوِّحان بها صارخين: أوقفوه! إنه جان داي بروجي. لقد أخرجناه أخيرًا من مخبئه. واستطاع اللص الابتعاد قليلًا عن الشرطيين، ولكنه إذا استمر في التحرك باضطراب، كمن يشعر بالخوف من أن يضل الطريق أو السقوط في شرَك ما، سيصلان إليه على الفور. ولا تقدم شجرة الجوز التي يجلس عليها كوزيمو أية وسيلة تشبث لمن يريد تسلقها، ولكن كوزيمو لديه على الفرع حبل من الحبال التي يحملها دائمًا معه ليتخطى بها المسافات الصعبة، فألقى بأحد طرفيه أرضًا، وعقد الآخر في الفرع. رأى اللص ذلك الحبل يسقط أمامه مباشرة، فأبعده بيديه لوهلة بعدم ثقة، ثم أمسك بالحبل وتسلقه بسرعة، كاشفًا عن أنه واحد من أولئك المندفعين المترددين، أو المترددين المندفعين الذي يبدون وكأنهم لا يعرفون دائمًا كيفية استغلال اللحظة المواتية، إلا أنهم يصيبون الهدف في كل مرة.

ووصل الشرطيان بعد أن رُفع الحبل بسرعة، واختبأ جان البروجي بجوار كوزيمو بين أغصان شجرة الجوز. وكان هناك طريق متقاطع، فأخذ كل من الشرطيين طريقًا، ثم التقيا ولم يعودا يعرفان إلى أين يتجهان، وإذ بهما يجدان أمامهما ماسيمو أُتيمو الذي يهز ذيله في الجوار. قال أحد الشرطيين للآخر: أليس هذا كلب ابن البارون، ذلك الساكن بين الأشجار؟ إذا كان الصبي قريبًا ربما يستطيع إخبارنا بشيء.

صرخ كوزيمو: أنا هنا فوق. ولكنه لم يكن في تلك اللحظة فوق شجرة الجوز حيث كان في البداية وحيث يختبئ اللص؛ فقد انتقل بسرعة ليصبح فوق شجرة الكستناء المقابلة، وهكذا رفع الشرطيان رأسيهما على الفور في ذلك الاتجاه من دون النظر فوق الأشجار المحيطة، وقالا: صباح الخير يا سيدي، ألم ترَ سيادتك مصادفةً اللص جان البروجي وهو يجري؟

أجاب كوزيمو: لا أعرف من الذي رأيته، ولكن إذا كنتما تبحثان عن رجل قصير يجري، فلقد رأيته يتجه إلى الوادي.

– رجل قصير؟ إنه رجل فارع الطول ومخيف!

– ربما! ولكن من هنا فوق تبدون جميعًا صغار الحجم.

– شكرًا يا سيدي! وأطلقا ساقيهما تجاه الوادي.

عاد كوزيمو فوق شجرة الجوز وعاد ليقرأ «جيل بلاس» وكان جان البروجي ما زال ممسكًا بالفرع، وهو شاحب الوجه وشعر رأسه ولحيته الخشن ذي اللون الأحمر، تمامًا مثل نبات الخلنج، معلقة به أوراق الشجر الجافة، وثمار الكستناء الصغيرة وإبر الصنوبر. أخذ يحدق في كوزيمو بعينين خضراوين مستديرتين وشاردتين، وكان دميمًا، قبيح الوجه.

وقرر أن يسأل: هل رحلا؟

قال كوزيمو بلطف: أجل، أجل. هل سيادتك اللص جان البروجي؟

– كيف عرفتني؟

– آه، هكذا، من شهرتك.

– وأنت إذن الذي لا ينزل أبدًا من فوق الأشجار؟

– نعم. وكيف عرفت هذا؟

– أنا أيضًا ... من شهرتك.

أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر بفضول، وكأنهما شخصان يلتقيان مصادفة، وشعر كل منهما بالسعادة لأن كل واحد منهما يعرف شيئًا عن الآخر.

ولم يعرف كوزيمو ماذا يقول أكثر من هذا، فعاد يقرأ.

– ماذا تقرأ؟!

– أقرأ «جيل بلاس» لليساج.

– كتاب جيد؟

– آه جدًّا.

– هل ما زال أمامك الكثير لتنتهي من قراءته؟

– لماذا؟ تقريبًا نحو عشرين صفحة.

– لأنني أريد أن أطلب منك أن تعيرني إياه بعد أن تنتهي من قراءته.

وابتسم مضطربًا بعض الشيء وأكمل: أتعرف؟ أقضي الأيام مختبئًا، ولا أجد شيئًا أفعله. أقصد أنه لو كان لدي كتاب من حين إلى آخر ... في إحدى المرات سرقت حافلة بها أشياء قليلة، وكان بها كتاب وأخذته، وحملته معي إلى مخبئي وأخفيته أسفل سترتي،

أعطيتهم كل الغنيمة، في سبيل الاحتفاظ بالكتاب. وفي المساء، أشعلت مصباحي، وحاولت القراءة، ولكنه كان باللاتينية! لم أفهم كلمة واحدة! — وهز رأسه — فأنا لا أعرف اللاتينية.

قال كوزيمو: بالطبع، فاللاتينية لغة صعبة حقًّا، وشعر أنه رغمًا عنه بدأ يشعر بأنه يحتاج أن يحمي نفسه، وقال: هذا الكتاب بالفرنسية …

قال جان داي بروجي: فرنسي، توسكاني، بروفنسي، قشتالي، كلها لغات أفهمها، بل وبعض الكاتالاني أيضًا، وبدأ يردد عبارات بلغات مختلفة.

وفي نصف ساعة انتهى كوزيمو من القراءة، وأعار الكتاب لجان البروجي.

وهكذا بدأت العلاقة بين أخي واللص. فبمجرد أن ينتهي جان البروجي من قراءة كتاب، يجري ليعيده إلى كوزيمو ليستعير منه كتابًا آخر، ويهرب ليختبئ في مخبأه السري ويغرق في القراءة.

وكنت أنا أزود كوزيمو بالكتب من مكتبة المنزل، وعندما ينتهي من قراءتها يعيدها إلي. وفي تلك الفترة أصبح يحتفظ بها لفترات أطول؛ لأنه بعد الانتهاء من قراءتها يعيرها لجان البروجي، وكثيرًا ما تعود مفكوكة، وبها بقع عفن، وآثار خطوط حلزون. من يدري أين يضعها اللص.

في أيام محددة يلتقي كوزيمو وجان البروجي على شجرة مُتفق عليها ليتبادلا الكتب، ثم يهرب جان البروجي بسرعة؛ لأن الغابة مكتظة دائمًا برجال الشرطة. وتلك العملية البسيطة خطيرة جدًّا لكل منهما، حتى بالنسبة إلى أخي الذي لا يعرف كيف سيبرر صداقته بأحد المجرمين!

ولكن أصيب جان البروجي بنوع من حمَّى القراءة جعلته يلتهم الروايات. رواية تلو الأخرى، ونظرًا إلى أنه يمكث اليوم كله مختبئًا يقرأ، فهو ينتهي في يوم واحد من قراءة بعض الكتب التي يمكن لأخي أن يقرأها في أسبوع، وبالطبع لم يكن يستطيع الانتظار، فيطلب كتابًا آخر، وإذا لم يحدث ذلك في اليوم المتفق عليه، يبدأ في البحث عن كوزيمو بين الحقول مخيفًا بذلك عائلات تسكن في الأكواخ، ومحركًا إثره بهذه الطريقة كل القوى الرسمية في أومبروزا.

وأصبحَت — بهذه الطريقة، ونظرًا إلى أنه مضغوط دائمًا بطلبات اللص — الكتب التي أنجح أنا في تزويده بها غير كافية، وعليه أن يبحث عن آخرين ليزوده بالكتب. وتعرَّف إلى تاجر كتب يهودي، شخص يُدعى أوربيكي، يزوده أعمالًا أدبية تتكون من أكثر من جزء. يذهب كوزيمو ليطرق على نافذته من بين أغصان شجرة خروب، ويعطيه أرانب، وطيور سمان، وحجلًا في مقابل تلك الكتب.

ولكن كان لجان البروجي ذوقه الخاص في القراءة، وصعب إعطاؤه أي كتاب، وإلا عاد في اليوم التالي إلى كوزيمو كي يغيره له.

وكان أخي في السن التي فيها يبدأ المرء التمتع بالقراءات الأكثر عمقًا، ولكنه يشعر بضرورة قراءتها ببطء، منذ أن أعاد إليه جان البروجي «مغامرات تليماك» وهو يقول له إنه إذا أعطاه مرة أخرى كتابًا مملًّا هكذا فسيقطع الشجرة التي يجلس عليها.

عندئذٍ أراد كوزيمو أن يفصل بين الكتب التي يرغب في قراءتها وحده، وبهدوء عن تلك التي يأخذها فقط ليعيرها للص. ولكن هيهات، فعليه أن يلقي نظرة سريعة على تلك الكتب أيضًا؛ لأن جان البروجي يزداد إلحاحًا وارتيابًا، وقبل أن يأخذ كتابًا يطلب أن يحكي له أخي الموضوع قبل أن يقرأه، ويا لشقائه إذا خدعه. فقد حاول أخي أن يمرر إليه روايات حب، إلا أن اللص عاد إليه وقد استشاط غضبًا وسأله عما إذا كان يراه آنسة صغيرة. ولم يستطع كوزيمو أن يعرف ما يعجبه بالفعل.

وهكذا، ونظرًا إلى وجود جان البروجي ملاصقًا له، تحولت القراءة بالنسبة إلى كوزيمو من مجرد تسلية لبعض الوقت إلى شغله الشاغل، وهدف يومه. وبسبب حماسته لإحضار المجلدات، وفحصها ومقارنتها، وضرورة أن يعرف دائمًا أكثر وكل ما هو حديث، وبين القراءات التي يقوم بها لجان البروجي، والحاجة المتزايدة لديه لقراءاته الخاصة، أصبح كوزيمو مولعًا بالآداب وبكل فروع المعرفة الإنسانية، ولم تعد تكفيه الساعات من الفجر إلى الغروب لينتهي مما يرغب في قراءته، وأصبح يستكمل القراءة أيضًا في الظلام على ضوء المصباح.

وأخيرًا اكتشف روايات صامويل ريتشاردسون، والتي أعجبت جان البروجي، وبمجرد أن ينتهي من واحدة يرغب في أخرى. استطاع أوربيكي أن يزوده بكمية من المجلدات، وأصبح لدى اللص ما يقرؤه لمدة شهر، وهكذا عثر كوزيمو على بعض الهدوء. وانغمس في قراءة حيوات بلوتارخ.

أما جان البروجي فكان يجلس مستلقيًا على مرقده، وشعره المجعد الأحمر المليء بالأوراق الجافة يتدلى على جبهته المتجعدة، يقرأ بعينيه الخضراوين واللتين احمرَّتا بسبب إجهادهما في القراءة. يقرأ وهو يحرك مقلتيه في الْتهامٍ سريع للكلمات، مثبتًا إحدى أصابعه المبتلة بلعابه في وضع استعداد دائم ليقلب الصفحة. ومن خلال قراءته لريتشاردسون اجتاحه شعور كامن في نفسه، تلك الرغبة في الحياة المعتادة والعائلية، في الشعور بالعائلة والمشاعر الأسرية، والفضائل، وعداوة الشرور والرذائل، وفقد كل ما حوله أهميته بالنسبة إليه، بل أصبح يملؤه بالنفور.

ولم يعد يخرج قط من كهفه إلا ليهرع نحو كوزيمو ليتبادل معه الكتب، وخاصة إذا كانت رواية من أكثر من مجلد، وما زال في منتصف القصة. أصبح يعيش هكذا، منعزلًا، من دون أن يدرك شيئًا عن عاصفة الحقد التي تتصاعد حوله أيضًا من سكان الغابة، الذين كانوا يومًا أعوانه المخلصين، ولكنهم الآن شعروا بالتعب من الاحتفاظ بينهم بلص غير عامل، وخاصة لو كان يجذب خلفه كل قوى الشرطة.

ففي الأزمات الماضية التف حوله من في الجوار مطاردًا من قبل العدالة، ربما بسبب أشياء صغيرة، سرقات عادية، مثل أولئك المتشردين الذين يطلون الأواني، أو جرائم حقيقية وفعلية مثل رفاقه اللصوص المطاردين. وفي كل سرقة أو خطف يتمتع أولئك اللصوص بسلطته وخبرته، بل يحتمون باسمه المتداول بين الناس، ويتركهم هم في الظل. حتى من لم يشارك منهم في الجرائم يفيد بطريقة ما مما حصلوا عليه؛ لأن الغابة امتلأت بمسروقات وأشياء متنوعة يتبادلها اللصوص فيما بينهم، والتي يجب إخفاؤها أو إعادة بيعها، وبالتالي يعثر أولئك المتسكعون على ما يهربونه ويربحون منه. أما من يرتكب سرقات لحسابه، بدون علم جان البروجي، فيتسلح بهذا الاسم البشع ليخيف الضحايا، ويأخذ منهم كل ما لديهم، ولهذا يعيش الناس في رعب، ويرون في كل واحد من هؤلاء الأشقياء جان البروجي أو أحد أفراد عصابته، فيسرعون بحل أكياس نقودهم.

واستمرت تلك الأزمنة الجميلة طويلًا، ورأى جان البروجي أنه يستطيع أن يعيش بما لديه. ورويدًا رويدًا أصبح هزأة. اعتقد هو أن كل شيء مستمر كالسابق، ولكن النفوس تغيرت، ولم يعد اسمه يُقابَل بالاحترام كالسابق.

مَن المستفيد إذن من جان البروجي؟ فلقد كان مختبئًا ودموعه في عينيه يقرأ الروايات، لم يعد يسطو على أحد، ولم يعد يحضر أي غنائم. وفي الغابة لم يعد أحد يتمكن من أداء أعماله، فرجال الشرطة يحضرون كل يوم بحثًا عنه، وبمجرد العثور على بائس يشبهه قليلًا يأخذونه معهم إلى المخفر. وإذا أضيف إلى ذلك إغراء المكافأة المرصودة للقبض عليه يتضح أن أيام جان البروجي معدودة بالفعل.

ولكن أراد اثنان من اللصوص وهما شابان سبق وانتشلهما، ولم يعرفا كيف يستسلمان لفكرة فقْد رئيس العصابة المفضل لديهما، أن يمنحاه الفرصة ليعيد تأهيل نفسه. يدعى الشابان أوجاسو وبيل لوري. كانا ضمن عصابة صبية سارقي الفاكهة. والآن، وبعد أن أصبحا شابَّين، تحولا إلى لصَّي طريق.

لذلك ذهبا لزيارة جان البروجي في كهفه، فوجداه مستلقيًا فوق القش، قال دون أن يرفع عينيه عما يقرؤه: نعم، من هناك!

– جئنا لنقترح عليك شيئًا يا جان البروجي.

– حسنًا ... ماذا؟

واستمر يقرأ.

– هل تعرف أين يقع منزل كوستانزو محصل الضرائب.

– نعم، نعم ... ماذا؟ مَن محصل الضرائب هذا؟

تبادل بيل لوري وأوجاسو نظرة ذات معنًى، إذا لم يبعد هذا الكتاب اللعين عن عينيه لن يفهم منهما كلمة واحدة.

– اطوِ الكتاب لحظةً يا جان البروجي واستمع إلينا.

أمسك جان داي بروجي الكتاب بكلتا يديه وقام على ركبتيه، وهو على وشك ضمه إلى صدره مفتوحًا حيث توقف، ثم اجتاحته الرغبة الشديدة في استكمال القراءة، فرفعه، وهو يمسكه بقوة، حتى وضع أنفه بداخله.

واتت بيل لوري فكرة عندما رأى عش عنكبوت وبه عنكبوت كبير. رفع بيل لوري بخفه العش بالعنكبوت فوقه وألقاه فوق جان داي بروجي بين الكتاب وأنفه. نظرًا لأن البائس البروجي قد أصبح مرتخي الأعصاب إلى حد أنه خاف من العنكبوت. شعر فوق أنفه بعقد أقدام العنكبوت، وبتلك الخيوط المتلاصقة، وقبل أن يدرك حقيقة الأمر صرخ فزعًا، وترك الكتاب يسقط من بين يديه وأخذ يلوح بهما أمام وجهه وعيناه تحدقان وهو يبصق من فمه.

ألقى أوجاسو بنفسه أرضًا، ونجح في أن يمسك بالكتاب قبل أن يضع جان البروجي قدمه فوقه.

– أعطني هذا الكتاب. قال جان البروجي محاولًا بإحدى يديه أن يتحرر من العنكبوت والعش، ومحاولًا باليد الأخرى أن ينزع الكتاب من يد أوجاسو.

– لا، أولًا استمع إلينا. قال أوجاسو وهو يخفي الكتاب خلف ظهره.

– كنت أقرأ كلاريسا، أعطني الكتاب! كنت في لحظة حاسمة!

– استمع جيدًا. هذا المساء سننقل حمولة حطب إلى منزل الجابي، وفي الجوال، وبدلًا من أن نضع الحطب سنضعك أنت، وعندما يحل المساء، تخرج من الجوال ...

– وأنا أريد أن أنتهي من قراءة كلاريسا! — كان قد نجح في تخليص يديه من بقايا عش العنكبوت وحاول أن يتصارع مع الشابين.

– اسمع ... عندما تخرج ليلًا من الجوال، وأنت مسلح بمسدسين، تأخذ من الجابي كل حصيلة الجباية التي جمعها في الأسبوع، والذي يحتفظ بها في الخزانة فوق فراشه ...

– على الأقل اتركاني أُكمل نهاية الفصل ... كونا لطيفين ...!

تذكر الشابان الوقت الذي كان فيه إذا تجرأ أحد واختلف مع جان داي بروجي؛ كان يصوب طلقتين إلى معدته، وشعرا بحنينٍ مر.

– ستأخذ أنت أكياس النقود. حسنًا؟! — أصرَّا بحزن — ستحضرها لنا، ونحن سنعطيك كتابك ويمكنك القراءة كما تشاء. اتفقنا؟ هل ستذهب؟

– لا، لم نتفق، ولن أذهب!

– إذن لن تذهب ... آه لن تذهب إذن ... انظر ما سنفعله!

وأخذ أوجاسو صفحة من آخر الكتاب، (لا! — صرخ جان البروجي) ونزعها (لا! توقف) كرمشها وألقى بها في النار.

– آه، أيها الكلب! لا يمكنك هذا! لن أعرف أبدًا كيف كانت النهاية، وجرى خلف أوجاسو ليأخذ منه الكتاب.

– إذن ستذهب إلى جابي الضرائب؟

– لا، لن أذهب!

– نزع أوجاسو صفحتين أخريين.

– توقف! لم أقرأ تلك الصفحات! لا يمكنك حرقها!

– كان أوجاسو قد ألقى بهما في النار بالفعل.

– أيها الكلب، كلاريسا، لا ...!

– إذن، ستذهب؟

– أنا ...

نزع أوجاسو صفحتين أخريين، وألقى بهما في النار. جلس جان البروجي واضعًا رأسه بين يديه، وقال: سأذهب، ولكن عِداني بأن تنتظراني ومعكما الكتاب أمام منزل الجابي.

اختبأ اللص في جوال، وفوق رأسه حزمة من الحطب، وحمل بيل لوري الجوال على كتفيه. وخلفه سار أوجاسو والكتاب في يده. وعندما كان جان داي بروجي — أحيانًا — يُظهر بركلة، أو بعواء من داخل الجوال أنه على وشك أن يندم، كان أوجاسو يسمعه صوت صفحة ممزقة، فكان جان البروجي يلتزم الصمت على الفور.

وبهذه الطريقة أوصلاه وهما متنكران في زي الحطابين إلى داخل منزل جابي الضرائب وتركاه داخله، وذهبا ليختبئا بالقرب منه، خلف شجرة زيتون، منتظرين الساعة التي يجب أن يلحق بهما فيها بعد انتهائه من السطو.

ولكن جان البروجي كان متعجلًا جدًّا، فخرج قبل أن يحل الظلام بينما لا يزال كثير من الناس في المنزل.

– ارفعوا أيديكم إلى فوق.

ولكنه لم يكن كسابق عهده، وبدا ذلك واضحًا عليه، وكان يشعر بأنه سخيف.

– قلت لكم ارفعوا أيديكم ... على الجميع في هذه الحجرة أن ينظروا إلى الحائط.

ولكن هيهات، فلم يكن هو نفسه يصدق ما يفعله، فهو يفعل كل هذا لينتهي منه ليس إلا.

– هل أنتم جميعًا هنا؟

ولم ينتبه أن طفلة قد هربت.

على كلٍّ كانت عملية لا يجب أن يفقد فيها دقيقة واحدة، إلا أنهم ماطلوه طويلًا. تظاهر الجابي بالغباء، وبأنه لا يعثر على المفتاح، وأدرك جان البروجي أنهم لم يعودوا يخشونه، وفي أعماقه شعر بالسعادة بما حدث.

وأخيرًا خرج وهو يحمل على ذراعيه أكياسًا مليئة بالنقود، وجرى وهو لا يرى أمامه شيئًا تقريبًا تجاه شجرة الزيتون المتفَق عليها للتسليم.

– إليكم كل ما كان هناك! أعطوني كلاريسا.

وإذا به يجد أربع أذرُع، ثم سبعًا ثم عشرًا قد طوقته لتشل حركته من الكتف حتى القدمين، ورفعته فرقة الشرطة كالبضاعة وهو مربوط كاللحم المجفف.

– سترى كلاريسا في السجن.

وألقوا به في الزنزانة.

كان السجن عبارة عن برج صغير على شاطئ البحر، وتوجد بقعة من أشجار الصنوبر البحري بالقرب منه. ومن قمة شجرة إلى أخرى من تلك الأشجار وصل كوزيمو تقريبًا إلى ارتفاع زنزانة جان البروجي، ورأى وجهه من خلف القضبان.

لم يكن اللص يهتم بأي شيء لا التحقيق ولا المحاكمة، أينما ذهب سيشنقونه في النهاية، ولكن ما يقلقه هو تلك الأيام الخالية التي يقضيها في السجن من دون أن يتمكن من القراءة، وتلك الرواية التي تركها ولم يستطع إتمام قراءتها. نجح كوزيمو في أن يحضر له نسخة أخرى من كلاريسا، وأحضرها له فوق شجرة الصنوبر.

– أين توقفت؟!

– عندما هربت كلاريسا من بيت الدعارة!

أخذ كوزيمو يتصفح الكتاب ثم: آه، ها هي إذن. وبدأ يقرأ له بصوت مرتفع وهو ينظر إلى القضبان التي تتعلق بها يدا جان البروجي!

استمر التحقيق طويلًا، واللص يقاوم حكم الإعدام شنقًا، ولجعله يعترف بكل جرائمه التي لا حصر لها تطلَّب الأمر أيامًا عدة. وهكذا كان كل يوم، قبل التحقيقات وبعدها، يجلس ليستمع إلى كوزيمو وهو يقرأ له. وبمجرد أن انتهت كلاريسا، وعندما شعر به وقد انتابه الحزن، أدرك كوزيمو أن قراءة روايات ريتشاردسون له هكذا وهو في السجن شيء مثير للإحباط، وفضل أن يبدأ في قراءة رواية لفيلدينج؛ لكي يعوضه قليلًا بأحداثها الشيقة المليئة بالحركة عن حريته المفقودة. وفي أيام المحاكمة، لم يكن في ذهن جان البروجي سوى قضايا جوناثان وايلد.

وقبل الانتهاء من الرواية جاء يوم تنفيذ الحكم، وفوق العربة، وبصحبة أحد الرهبان قطع جان البروجي رحلته الأخيرة وهو ما زال حيًّا.

تتم عمليات الشنق في أومبروزا على شجرة بلوط عالية وسط الميدان، واجتمع حوله السكان جميعًا في دائرة.

وعندما وضعوا الحبل حول عنقه، سمع جان البروجي حفيفًا بين الفروع، رفع وجهه فرأى كوزيمو ومعه الكتاب مغلقًا.

فسأله: قل لي كيف انتهى أمره.

أجابه كوزيمو: يؤسفني أن أقول لك يا جان، لقد انتهى الأمر بجوناثان وهو معلق من رقبته.

– أشكرك. ستكون هذه نهايتي أنا أيضا! الوداع!

وركل هو بنفسه السلم وبقي معلقًا من رقبته.

وبمجرد أن سكن جسده انصرفت الجموع ولكن كوزيمو مكث بجواره ممتطيًا الفرع الذي يتدلى منه المشنوق حتى الظلام. وفي كل مرة تقترب الغربان لتقرض عين الميت أو أنفه، يُبعدها كوزيمو بقبعته.

١٣

إذن فبالتردد إلى اللص أصبح لدى كوزيمو شغف بلا حدود للقراءة وللدراسة، والذي صاحبه طوال حياته. وبدا الشكل المعتاد الذي نقابله به الآن هو أن نراه ممسكًا كتابًا مفتوحًا في يده وهو ممتطٍ أحد الفروع المريحة، أو مستندًا إلى أحد الجذوع وكأنه في مقعد المدرسة، واضعًا ورقة على مائدة صغيرة، والمحبرة في أحد ثقوب الشجرة، ويكتب بريشة إوزة طويلة.

والآن أصبح هو من يذهب ليبحث عن الأب فوشيلافلور ليعطيه الدرس، حتى يشرح له تاسيتس وأوفيديوس والأجرام السماوية وقوانين الكيمياء، ولكن الكاهن العجوز إذا ابتعد عن بعض قواعد النحو التي يعرفها وبعض اللاهوت يغرق في بحر من الشكوك والثغرات، ويفرد أمام أسئلة تلميذه ذراعيه ويرفع عينيه نحو السماء.

– سيدي الكاهن، كم زوجة يمكن أن يتزوجها الرجل في إيران بلاد فارس؟ سيدي الكاهن، من هو أسقف سافويار؟ سيدي الكاهن، هل يمكنك أن تشرح لي النظام الطبيعي للينيوس؟

وكان الأب يبدأ في أن يقول: إذن ... الآن ... لنرى ... ثم يغرق في التفكير، ولا يكمل أي شيء بعد ذلك.

ولكن كوزيمو الذي يلتهم كل أنواع الكتب، ويقضي نصف وقته في القراءة والنصف الآخر في الصيد ليدفع حساب أوربيكي صاحب المكتبة، لديه دائمًا حكاية ليقصها عليه. عن روسو الذي يتجول فوق حشائش غابات سويسرا، عن بنيامين فرانكلين الذي يمسك البرق بالطائرات الورقية، وعن بارون الهونتان الذي يعيش سعيدًا مع هنود أمريكا.

يصغي فوشيلافلور العجوز إلى تلك الأحاديث باهتمام ودهشة، ولا أعرف بدافع من اهتمام حقيقي أو فقط لأنه استراح من دور المعلم، بل أصبح يجيب ويتحاور معه قائلًا: لا!

قل لي أنت! ... عندما يوجه كوزيمو إليه السؤال: وهل تعرف كيف أن ...؟! أو يجيب الأب: فعلًا! شيء غريب! عندما يجيبه كوزيمو، وأحيانًا أخرى بصيحات: يا إلهي! والتي يمكن أن تكون تمجيدًا لعظمة الله التي تتكشف في تلك اللحظات، ويمكن أيضًا أن تعبر عن الحزن بسبب وجود قوى الشر، والذي يسيطر، بكل الطرق، على العالم بلا منازع.

وكنت أنا ما زلت صغيرًا جدًّا، وليس لكوزيمو أصدقاء إلا في الطبقات غير المتعلمة، لذلك يُفرغ حاجته إلى نقد الاكتشافات التي يقوم بها في الكتب بأن يُلقي على رأس معلمه المُسن بالأسئلة والتفسيرات.

وكما نعرف، فلدى الأب ذلك الاستعداد الخاضع والمجامل، والذي مصدره هو الإدراك السامي أن كل شيء إلى زوال، وكوزيمو يستغل هذا. وهكذا انقلبت علاقة التلمذة بينهما، أصبح كوزيمو هو المعلم، وفوشيلافلور هو التلميذ. وأصبحت لأخي سلطة عظيمة عليه، حتى إنه نجح في أن يجر الأب المسن المرتجف وراءه في ارتحاله فوق الأشجار، بل جعله يقضي ظهيرةً كاملة وقدماه النحيفتان تتدليان من أحد فروع شجرة كستناء هندي، في حديقة أونداريفا، متأملًا النباتات النادرة، والغروب الذي ينعكس في حوض الحديقة، وهو يتأمل في الممالك والجمهوريات وفي الصواب والخطأ فيما يتعلق بالأديان المختلفة والطقوس الصينية، في زلزال لشبونة وقارورة ليدن، وفي المذهب الحسي.

في ذلك اليوم كان موعد درسي في اللغة اليونانية ولم نعثر على المعلم. انزعجت كل العائلة، ودُق جرس الإنذار للبحث عنه، إلى حد أنهم بحثوا في أحواض السمك خوفًا من أن يكون سقط فيها — لشروده — وغرق. ثم عاد في المساء وهو يشكو من آلام في المفاصل أصابته لجلوسه بطريقة غير مريحة لساعات طويلة.

ولكن لا يجب أن ننسى أن بداخل ذلك الجانسيني المسن حالة القبول السلبية تلك لكل شيء تتبدل في لحظات يستعيد فيها ولعه الأصلي بالصرامة الروحية، وأنه إذا استقبل — بالرغم من شروده واستسلامه — من دون أن يقاوم أية فكرة جديدة أو تحررية، على سبيل المثال المساواة بين البشر أمام القانون، أو الأمان للشعوب الهمجية، أو التأثيرات الوخيمة للخرافات، فإنه بعد ربع ساعة تقريبًا، وبعد أن تهاجمه طفرة من النزعة التقشفية والمطلقة، يتمثل تلك الأفكار التي قبلها منذ برهة ببساطة، وإليها يحيل كل احتياجه إلى التناغم الداخلي، وإلى القسوة الروحية. عندئذٍ تتحول واجبات المواطنين الأحرار والمتساوين، أو قيم الإنسان الذي يتبع الديانات الطبيعية إلى قوانين صارمة تطبق بلا هوادة وأنظمة إيمان متطرف. ويبدأ في رؤية كل شيء خارج ذلك الإطار حالك السواد بسبب الفساد، وأن

كل الفلاسفة الجدد ليسوا سوى أشخاص لطفاء وسطحيين في رفضهم للشر، وأن طريق الكمال — رغم صعوبته — لا يسمح بالتوافقات أو الحلول الوسط.

وأمام تلك الهجمات المفاجئة للأب، لم يكن كوزيمو يجرؤ على النطق بكلمة، خوفًا من أن تُقابل بالرفض لكونها غير مناسبة أو غير قاطعة، ويتيبس أمامه ذلك العالم الذي يحاول إحياءه في ذاكرته، ويصبح كأنه رخام مقابر. ولكن لحسن الحظ سرعان ما يتعب الأب من انفعالات الإرادة تلك ويجلس منهوك القوى، وكأن محاولة تجريد كل مفهوم من شوائبه ليحوله إلى جوهرٍ صرف هي عملية تتركه تائهًا في ظلال مفككة ساكنة. يرمش بعينيه، ثم يتنهد، ثم يتحول تنهده إلى تثاؤب يدخل بعده في حالة سكون تام. ولكن بغض النظر عن استعداده النفسي، فقد كان يكرس في ذلك الوقت أيامه ليتابع الدراسات التي يقوم بها كوزيمو، ويقوم بدورات مكوكية بين الأشجار حيث يعيش كوزيمو، وبين متجر أوربيكي ليطلب له كتبًا يحضرها إليه من مكتبات في أمستردام أو باريس، أو ليستلم الكتب الجديدة التي وصلت بالفعل.

وهكذا أعد بنفسه لمصيره المؤلم؛ لأن إشاعة وجود كاهن في أومبروزا يتابع كل الكتب المرفوضة والمحرمة من الكنيسة في أوروبا وصلت بالفعل إلى محاكم التفتيش.

وفي ظهيرة أحد الأيام، ظهروا في فيلتنا ليفتشوا حجرة الأب، وعثروا بين كتبه على أعمال بيير بايل، ومع أن الكتب مُغلفة لم تفتح بعد، إلا أن ذلك كان يكفي لأن يقبضوا عليه متلبسًا ويأخذوه معهم.

كان مشهدًا حزينًا جدًّا في تلك الظهيرة الملبدة بالغيوم. أتذكر كيف أخذت أراقب ما يحدث بدهشة من نافذة حجرتي، وتوقفت عن استذكار درس تصريف الأفعال اليونانية؛ لأنني لن أتلقى دروسًا بعد اليوم. ابتعد الأب المسن فوشيلافلور بين هؤلاء المسلحين المتوحشين، وهو يرفع عينيه تجاه الأشجار، وفي إحدى اللحظات واتته اندفاعة، وكأنه أراد أن يهرب تجاه أحد الفروع ويتعلق به، ولكن قدميه لم تسعفاه. في ذلك اليوم كان كوزيمو قد خرج للصيد، ولم يكن يعرف أي شيء، وهكذا لم يودع أحدهما الآخر.

لم نستطع عمل أي شيء لمساعدته. وأغلق والدنا عليه باب حجرته، ورفض تذوق الطعام خوفًا من أن يدس الآباء اليسوعيون فيه السم. وقضى الأب ما بقي له من أيام بين السجن والدير في ردة مستمرة حتى وافته المنية، ومن دون أن يفهم — بعد حياة كاملة كرسها للإيمان — بأي شيء يؤمن، ولكنه حاول بشدة أن يستمر في الإيمان بذلك الشيء حتى آخر لحظة في حياته.

على كل حال، لم يكن القبض على الأب ذا تأثير سلبي في مسيرة تعليم كوزيمو؛ فقد بدأت في تلك الفترة مراسلاته الكتابية مع أبرز الفلاسفة والعلماء في أوروبا، والذين كان يلجأ إليهم ليجيبوا له عن تساؤلاته أو اعتراضاته، أو فقط للاستمتاع بالمناقشة مع عقول أفضل، وفي الوقت نفسه ممارسة اللغات الأجنبية. مع الأسف لم نعثر قط على أوراقه كلها، والتي اعتاد أن يضعها في تجويف أشجار يعرف هو فقط أماكنها. لا بد أنها بهتت بسبب السناجب، أو غطتها الفطريات؛ لأن من بينها كنا سنجد خطابات كتبها أشهر علماء القرن بخط أيديهم.

بنى كوزيمو في أكثر من موقع أنواعًا من المكتبات المعلقة للاحتفاظ بالكتب، والتي أعدها بأفضل الوسائل ضد الأمطار والقوارض، ولكنه كان يغير أماكنها باستمرار، تبعًا لما يدرسه، وما يعجبه في فترة معينة؛ لأنه طالما اعتقد أن الكتب تشبه الطيور، ولم يرغب في رؤيتها ساكنة أو محبوسة، وإلا — كما يقول — ستشعر بالحزن. وفوق أكبر تلك الأرفف المعلقة وضع أجزاء موسوعة ديدرو ودالمبير بمجرد أن وصلت إليه من مكتبة ليفورنو. وإذا كان في الفترات الأخيرة، وبسبب بقائه وسط الكتب، بعيدًا شاردًا عما يدور حوله، إلا أنه الآن، وبفضل قراءة الموسوعة، ساعدته بعض المداخل الجميلة في الموسوعة، مثل نحلة، شجرة، غابة، حديقة، على إعادة اكتشاف كل الأشياء التي حوله وكأنها جديدة بالنسبة إليه. وبدأت تظهر بين الكتب التي يطلبها أيضًا الكتب العلمية، كتب فن زراعة الأشجار على سبيل المثال، ويتلهف لتجربة المعلومات الجديدة.

لطالما استهوى العمل الإنساني كوزيمو، ولكن حتى تلك اللحظة كانت حياته فوق الأشجار وتنقلاته ورحلات الصيد كلها استجابة لنزوات ودوافع منعزلة، وبلا مبرر، وكأنه طائر صغير. أما الآن فلقد أصبح بحاجة إلى أن يصنع الخير لجاره. وسنجد هذا أيضًا، إذا فكرنا قليلًا، شيئًا تعلمه من علاقته باللص، متعة أن يشعر بفائدته، وأن يقوم بخدمة ضرورية للآخرين.

تعلم فن تقليم الأشجار، وقدم عمله لزراع الفاكهة، وخاصة في الشتاء عندما تصبح الغابة متاهات غير منتظمة بسبب فروعها، وتبدو وكأنها لا تتمنى شيئًا سوى أن تتحول إلى أشكال أكثر تهذيبًا مليئة بالأشجار والأزهار والثمار. وكان كوزيمو يقلم الأشجار جيدًا بأجر زهيد، وهكذا لم يوجد مالك صغير أو صاحب بساتين إلا وطلب منه أن يمر عليه، وكنا نراه في ضوء الصباح الكريستالي، لتلك الفترات، وهو يقف على قدميه فوق الأشجار المنخفضة العارية وهو يلف رقبته بوشاح يصل حتى أذنيه، يرفع مقص الأشجار الذي نسمع ضرباته. وبتلك الضربات الواثقة تتطاير الفروع الصغيرة والثانوية بعيدًا. استخدم

هذا الفن نفسه في الحدائق على نبات الظل ونبات الزينة، مزودًا بمنشار قصير، وفي الغابات حيث استخدم بدلًا من البلطة التي يستخدمها قاطعو الأشجار، والتي تصلح فقط في تسديد الضربات لساق أحد الجذوع الثانوية ليسقطه كله أرضًا، استخدم بلطة صغيرة، سريعة، استخدمها فقط مع الفروع المرتفعة، ومع قمم الأشجار.

ومن ثم جعله حبه لهذا العمل بين الأشجار أيضًا — مثلما يحدث في كل حالات الحب الحقيقية — عديم الرحمة ومؤلمًا، حيث يجرح ويزيل ليسمح بالنمو والتشكيل. من المؤكد أنه اعتنى وهو يهذب الأشجار أن يخدم ليس فقط مصلحة مالك النبات، ولكن أيضًا مصلحته هو الشخصية كشخص جوال بحاجة إلى أن يحسن الطرق التي يسير فيها، ولذلك قام بعمله بحيث ينقذ دائمًا الفروع التي يستخدمها كجسر من شجرة إلى أخرى، بل عمل على أن يزيدها قوة بأن ينزع ما حولها من فروع. وهكذا أسهم بفنه في أن يجعل من تلك الطبيعة الخاصة لأومبروزا، والتي يجدها بالفعل حسنة جدًّا، طبيعة أفضل بالنسبة إليه، وبهذا أصبح في آن واحد صديقًا لجاره وللطبيعة ولنفسه أيضًا، واستطاع أن يستمتع بعمله هذا الحكيم، وخاصة عندما تقدمت به السن، عندما أصبحت أشكال الأشجار تتناسب أكثر مع فقدانه لقواه. وبعد ذلك عند ظهور أجيال لا عقل لها، يحكمها الجشع، أناس ليسوا أصدقاء لشيء ولا حتى لأنفسهم، تغير كل شيء، ولم يكن بإمكان أي شخص مثل كوزيمو التدخل لإنقاذ الأشجار.

١٤

ومع تزايد عدد أصدقاء كوزيمو، زاد أيضًا عدد أعدائه، إذ ساءت حالة متشردي الغابة للغاية بعد اهتداء جان البروجي للقراءات الجيدة ثم سقوطه الذي تلا ذلك. وفي إحدى الليالي، وبينما ينام أخي في قربته معلقًا على شجرة دردار في الغابة أيقظه نباح كلبه الدشهند، فتح عينيه، ولمح ضوءًا آتيًا من أسفل، ووجد الشجرة تحترق عند ساقها، والنيران تمتد لتصل إلى الجذع.

حريق في الغابة! ما الذي أحدثه؟ وكان كوزيمو متأكدًا أنه لم يقرب الزناد في تلك الليلة. إذن فهي ضربة من أولئك الأشرار! أرادوا أن يحرقوا الغابة لينهبوا الخشب، وفي الوقت نفسه يلقوا باللوم على كوزيمو، ليس هذا فحسب، وإنما أرادوا أيضًا أن يحرقوه حيًّا.

وبمجرد حدوث هذا لم يفكر كوزيمو في الخطر الذي يهدده وهو يقف بالقرب من النيران؛ ولكنه فكر في أن تلك المملكة الممتدة، المليئة بطرق وملاجئ، ملكه هو وحده تتعرض للدمار، وهو الشيء الوحيد الذي يرعبه. هرب ماسيمو أُتيمو بالفعل حتى لا يحترق، وهو يستدير كل فترة ليطلق صيحة يائس؛ فالنيران بدأت تنتشر في الجزء السفلي من الغابة.

لم يفقد كوزيمو الأمل، فقد نقل على شجرة الدردار، ملجأه آنذاك — كما يفعل دائمًا — أشياء كثيرة، ومن بينها زجاجة كبيرة مليئة بمشروب الشعير واللوز، وذلك ليروي عطشه في الصيف. تعلق حتى وصل إليها، وكانت السناجب والخفافيش تهرب بين فروع الشجرة خوفًا، وبدأت الطيور تترك أعشاشها. أمسك بالزجاجة، وكاد يفتح غطاءها ويغرق جذع الشجرة لينقذه من النيران. عندما أدرك أن الحريق قد بدأ بالفعل ينتشر بين الحشائش، ويمتد إلى الأوراق الجافة، وإلى باقي الشجر، وسيلتهم كل ما حوله من أشجار قرر أن

يخاطر: «فلتحترق شجرة الدردار إذن! إذا كنت أستطيع بواسطة مشروب الشعير واللوز أن أبلل الأرض حولها، حيث لم تصل النيران بعد، سيمكنني أن أوقف ذلك الحريق.»

فتح غطاء الزجاجة، وبدأ بدفعات متموجة ودائرية يوجه دفعاته إلى الأرض، وعلى ألسنة النار الخارجية فأطفأها. وهكذا وجدت النيران في الجزء الأسفل من الغابة نفسها وسط دائرة من الأعشاب والأوراق المبتلة، ولم تتمكن من الانتشار.

ومن فوق قمة الشجرة قفز كوزيمو فوق شجرة زان قريبة. وفعل ذلك في اللحظة المناسبة؛ فلقد هوى الجذع المحترق بالنيران متحطمًا بين أعشاش السناجب الفارغة.

ولكن هل يتوقف الحريق عند هذا الحد؟! فقد طارت شظايا وشعلات بالفعل وانتشرت حول المكان؛ فمن المؤكد أن الحاجز الضعيف من الأوراق المبتلة لم يمكنه منع النيران من الانتشار. وهكذا بدأ كوزيمو يصرخ بكل قوته: حريق! حريق! حريق!

وأجابت أصوات: ماذا هناك؟ من يصرخ؟!

وبالقرب من هذه الغابة يوجد معسكر للفحامين، حيث تنام فرقة من أصدقائه القادمين من برجامو في أحد الأكواخ.

– النجدة ... النيران!

وسرعان ما دوى صراخه في المنطقة الجبلية كلها. ونشر الفحامون الخبر في الغابة بلهجتهم غير المفهومة. وها هم يهرعون من كل اتجاه، ونجحوا في إخماد الحريق.

كانت لا بد أن تخيفه هذه المحاولة الأولى للحريق الكيدي من وجود خطر على حياته، وأن تدفعه للابتعاد عن الغابة. ولكنه على العكس بدأ يهتم بكيفية حمايتها من الحرائق. ففي صيف أحد تلك الأعوام الجافة، شديدة الحرارة، اشتعل في الغابات الساحلية من جهة بروفنسا منذ أسبوع حريق صعبت السيطرة عليه، وفي الليل رأينا ألسنة النيران المرتفعة فوق الجبال وكأنها بقايا ضوء الغروب.

فالهواء الجاف، والنباتات والأغصان الجافة تعمل كصمام إشعال ضخم، وبدا وكأن الرياح قد نشرت النيران تجاه مراعينا. ومع أنه لم يحدث قط أن اشتعل هنا أي حريق بالمصادفة أو بسوء نية، إلا أنه بإضافة هذا الحريق الذي شمل الساحل كله لتلك العوامل، أصبحت أومبروزا تعيش تحت وطأة هذا الخطر وكأنها قلعة سقفها مصنوع من القش يهاجمها الأعداء من مشعلي الحرائق. ولم تكن السماء أيضًا خالية من تلك الحمولة النارية؛ في كل ليلة تعبر النجوم الساقطة بكثافة وسط صفحة السماء، وكنا نتوقع دائمًا أن نراها تسقط فوقنا.

وفي تلك الأيام، ووسط الذهول العام، جلب كوزيمو براميل، وثبتها بعد أن ملأها بالمياه في قمة الأشجار التي تقع في أماكن مركزية. «ربما لا تكون ذات فائدة كبيرة، ولكن لا بد أنها ستساعد على شيء ما.» ولم يشعر بالرضا، أخذ يدرس نظام مجاري المياه التي تعبر الغابة، الجافة تقريبًا، والمنابع التي تبعث فقط بخط مياه صغير، وذهب ليتشاور مع الفارس المحامي.

صاح إينيا سيلفيو كاريجا وهو يضرب بإحدى يديه: آه، فعلًا ... أحواض مياه! سدود! يجب أن نقوم بعمل مشروعات! وانفجر في صرخات قصيرة وقفزات حماسية، في حين اندفعت إلى ذهنه أفكار متدفقة.

تركه كوزيمو ليقوم بعمل حسابات وتصميمات، وفي الوقت نفسه أثار اهتمام ملاك الغابات الخاصة، ومتعهدي الغابات العامة، وقاطعي الأخشاب، والفحامين. وأخذوا جميعًا — تحت قيادة الفارس المحامي (أو أصبح الفارس المحامي تحت قيادتهم جميعًا، ومجبرًا على قيادتهم، وعلى ألا يشرد أبدًا) ومع كوزيمو الذي يراقب الأعمال من فوق — يبنون أماكن لتخزين المياه، بحيث يعرفون عند أية نقطة يندلع فيها حريق كيف يبدءون في ضخ المياه.

ولكن لم يكن هذا يكفي. كان لا بد أن ينظموا فرقًا من المطافئ، فرقًا تعرف على الفور — في حالة إطلاق الإنذار — كيف تنظم نفسها في صف، بحيث يمررون من يد إلى يد دلاء المياه، وبذلك يوقفون الحريق قبل أن ينتشر. ونتج من ذلك فرقة أخرى تقوم بعمل دوريات حراسة وتفتيش ليلي. وقد جندهم كوزيمو من بين فلاحي أومبروزا وعمالها.

وسرعان — كما يحدث عادة في أية مؤسسة — ما نشأت روح الفريق وروح التآزر بين الفرق، وشعروا بأنهم على استعداد لإنجاز أشياء عظيمة. وكوزيمو أيضًا شعر بقوة جديدة، وشعر بالرضا؛ فلقد اكتشف قدرته على تجميع الناس وقيادتهم، وهي الموهبة التي — لحسن حظه — لم يسئ استخدامها قط؛ بل استخدمها فقط مرات قليلة جدًّا في حياته، ودائمًا بغرض تنفيذ أشياء مهمة، وعادة ما كُللت بالنجاح.

وأدرك هذا: أن العمل الجماعي يمنح الإنسان قوة، بل يبرز أفضل المواهب لدى الأفراد، ويمنح تلك السعادة التي نادرًا ما يشعر بها الإنسان وهو يعمل بمفرده، سعادة أن يرى كم يوجد من الشرفاء والماهرين والقادرين، ولذلك يستحق الأمر أن يرغب الشخص في عمل الخير (في حين أنه إذا عاش الشخص بمفرده، فإنه غالبًا ما يحدث له العكس، بأن يرى الوجه الآخر للناس، ذلك الوجه الذي لأجله لا بد من أن يضع المرء دائمًا يده فوق سيفه ويكون على أهبة الاستعداد).

وهكذا كان ذلك الصيف، صيف الحرائق، صيفًا جيدًا؛ حيث تسبب مشكلة مشتركة قلق الجميع، ويرغبون في حلها، وأعطى كل منهم أولوية لهذه المشكلة، وقدمها قبل مشاغله، ويجد مقابلًا عن كل ما يقدمه في الشعور بالرضا لأن يجد نفسه في اتفاق وموضع تقدير أشخاص آخرين رائعين.

وفيما بعد، سيدرك كوزيمو أنه عندما تنتهي هذه المشكلة المشتركة، لن تصبح الجمعيات جيدة كذي قبل، ومن الأحرى أن يعود شخصًا عاديًّا ويتخلى عن دور الزعيم. ولكن في ذلك الوقت، ومع كونه الزعيم، كان يقضي الليالي بمفرده تمامًا في الغابة للحراسة، فوق إحدى الأشجار مثلما كان يعيش.

وإذا حدث ورأى اشتعال نيران الحريق كان لديه فوق قمة الشجرة جرس، يمكن أن تصل دقاته إلى مسافات بعيدة، فيحذر المنطقة. وبهذا النظام استطاعوا إطفاء النيران في الوقت المناسب في ثلاث أو أربع مرات اندلعت فيها الحرائق، ومن ثم تم إنقاذ الغابات.

ونظرًا إلى أن الأمر كان يتدخل فيه عنصر المكائد، اكتشفوا أن الجناة هم قاطعا الطريق أوجاسو وبيل لوري، ونفوهما من أراضي المقاطعة. وبنهاية أغسطس بدأ موسم هطول الأمطار، وزال خطر الحرائق.

في تلك الفترة كنا لا نسمع سوى الكلام الجيد عن أخي في أومبروزا. وكانت تلك الآراء المؤيدة له تصل إلى منزلنا: «إلا أنه بارع جدًّا.» و«لكنه يستطيع إنجاز بعض الأشياء جيدًا.» وذلك بنبرة مَن يمدح بطريقة موضوعية شخصًا من ديانة مختلفة، أو من حزب مختلف، ويريد أن يظهر كإنسان منفتح يستطيع أيضًا أن يقبل الأفكار البعيدة عن أفكاره.

كانت ردود فعل الجنرالة تجاه تلك الأخبار مفاجئة ومتسرعة، وكانت تسأل عندما يتحدثون معها عن الحراسة ضد الحرائق التي نظمها كوزيمو: هل لديهم أسلحة؟ هل يتدربون؟

لأنها كانت تفكر في تكوين الفرق المسلحة التي يمكنها، في حالة اندلاع حرب، أن تشترك في العمليات العسكرية.

أما والدنا فقد كان يستمع فقط في هدوء وهو يهز رأسه، ولم نكن نفهم هل كان كل خبر يصله عن ابنه يزيد من ألمه، أو يبدي استحسانًا متأثرًا بما بداخله من آمال خادعة، حيث إنه لا ينتظر شيئًا آخر سوى أن يعلق آماله عليه من جديد. ولا بد أن الأمر كان كذلك بالفعل، حيث إنه بعد بضعة أيام امتطى جواده، وذهب بحثًا عنه.

والتقيا في مكان مفتوح حوله صف من الأشجار. دار البارون بحصانه إلى الأمام وإلى الخلف مرتين أو ثلاثًا دون أن ينظر إلى ابنه، ولكنه رآه. أما الابن فمن أعلى شجرة أخذ يقفز حتى وصل إلى أقرب الأشجار إلى الأرض.

وعندما أصبح في مواجهة أبيه نزع قبعته المصنوعة من القش (والتي كان يضعها صيفًا بدلًا من القبعة المصنوعة من فراء القط) وقال: صباح الخير أيها السيد الوالد.

– صباح الخير يا بني.

– هل سيادتك بخير؟

– في توافُق مع سني ومع الأحداث المؤسفة.

– يسعدني رؤيتك بخير.

– وهذا ما أريد أن أقوله عنك يا كوزيمو. سمعت أنك تعمل لأجل المصلحة العامة.

– إنني أهتم بسلامة الغابات التي أعيش فيها يا سيدي الوالد.

– أتعرف أن جزءًا من الغابة ملك لنا، ورثناه عن جدتك المسكينة إليزابيثا رحمها الله؟

– أجل يا والدي. في منطقة بيرليو. وتنمو فيها ثلاثون شجرة كستناء، واثنتان وعشرون شجرة زان، وثمانية من أشجار الصنوبر، وشجرة إسفندان. لدي نسخة من كل الخرائط. وبصفتي عضوًا في عائلة مالكة لغابات أردت أن أشرك معي كل من يهمهم الأمر لإنقاذها.

قال البارون، وهو يستحسن الإجابة: هكذا إذن. ثم أضاف: ولكنه قيل لي إنها جمعية من الفرانين والمزارعين والحدادين.

– بل يا سيدي الوالد من كل المهن ما دامت مهنًا شريفة.

– هل تعلم أن بإمكانك أن تحكم مقاطعة النبلاء بلقب دوق؟!

– أعرف أنني عندما أمتلك أفكارًا أكثر من الآخرين، ثم أعطي للآخرين تلك الأفكار ويقبلونها، فإن هذا معناه أنني أحكم.

وكاد البارون أن يقول له «وهل ليحكم أحدهم هذه الأيام أصبحت العادة الجلوس فوق الشجر؟» ولكن ما فائدة أن يتطرق لهذا الموضوع الآن؟

تنهد غارقًا في أفكاره، ثم فك الحزام الذي يعلق فيه سيفه.

– أصبح عمرك الآن ثمانية عشر عامًا ... وحان الوقت لأعتبرك ناضجًا ... لن يكون أمامي الكثير لأعيشه ...

ثم أمسك بسيفه مسطحًا بين يديه: هل تتذكر أنك بارون روندو؟!

– بالطبع يا سيدي الوالد أتذكر اسمي!

– هل تريد أن تصبح جديرًا بالاسم واللقب اللذين تحملهما؟

– سأحاول قدر استطاعتي أن أكون مستحقًّا للقب إنسان، وسأحاول أيضًا أن أكون مستحقًّا لأيٍّ من صفاته.

– خذ هذا السيف، سيفي. ثم وقف فوق ركاب السرج.

وانحنى كوزيمو على فرع الشجرة، واستطاع البارون أن يربط له حزام السيف حول وسطه.

– أشكرك يا والدي، وأعدك أن أستخدمه استخدامًا جيدًا.

– وداعًا يا بني.

– أدار البارون الحصان، وحرك عنانه، وابتعد ممتطيًا إياه ببطء.

مكث كوزيمو لوهلة يفكر هل عليه أن يحييه بالسيف، ثم فكر أن أباه لا بد أن يكون أعطاه السيف ليستخدمه في الدفاع، وليس ليقوم بحركات استعراضية، فتركه في الغمد.

١٥

وفي ذلك الوقت، ونظرًا إلى أنه كان يتردد إلى الفارس المحامي، أدرك كوزيمو أنه يوجد شيء غريب في تصرفاته، أو من الأفضل أن نقول شيء مختلف عن المعتاد، أكثر أو أقل غرابة من المعتاد. وكأن استغراقه لم يعد بسبب شروده، ولكن بسبب فكرة تسيطر عليه. وتكررت اللحظات التي يبدو فيها ثرثارًا بكثرة. وإذا لم يكن في وقت ما، ونظرًا إلى كونه غير اجتماعي، لا يضع قدميه قط في المدينة، فإنه أصبح الآن موجودًا تقريبًا طوال الوقت في الميناء، وفي التجمعات، أو جالسًا فوق الأسوار مع أصحاب السفن أو البحارة المسنين، معلقًا على وصول المراكب أو رحيلها، وشرور القراصنة.

وعلى المدى البعيد لسواحلنا، ما زالت مراكب قراصنة بلاد المغرب تندفع وتتعرض لتجارنا. وكانت قرصنة الوقت الحالي قليلة الإمكانات، لم تعد مثل ذلك الوقت الذي فيه إذا قابل أحدهم قرصانًا يصبح على الفور عبدًا في تونس أو الجزائر، أو يفقد أنفه وأذنيه. فعندما ينجح العرب، حاليًّا، في الوصول إلى أحد مراكب أومبروزا فإنهم يأخذون حمولتها: براميل البكالا، أنواع مختلفة من الكاشو الهولندي، حزم القطن ... وهكذا. وأحيانًا يكون تجارنا أسرع، فيفلتون منهم، ويطلقون طلقة مدفع ضد أشرعة الفلوكة، وكان المغاربة يجيبونهم بصقًا، وبإيماءات سيئة وصراخات.

على كل حال، كان هذا نوعًا من القرصنة البسيطة، والتي استمرت بسبب بعض القروض التي اعتقد الباشا زعيم تلك البلاد أنه يجب أن يطالب بها تجارنا وصانعي السفن، نظرًا إلى أنهم — حسب ما يدعون — لم يحصلوا على خدمة جيدة في بعض الحمولات، بل تم خداعهم أيضًا. فهم بهذا يحاولون أن يصفوا هذا الحساب تدريجيًّا بالسرقات، ولكن في الوقت نفسه استمرت التبادلات التجارية، واستمرت المجادلات والمفاوضات.

لم يكن إذن في مصلحة أي من الطرفين أن يتمسك بفظاظته، ولذلك كان الإبحار زاخرًا بالمفاجئات والمخاطر، إلا أنه لم يتحول قط إلى مآسٍ.

والقصة التي سأنقلها لكم الآن حكاها كوزيمو بطرائق مختلفة، وسأتوقف عند تلك الغنية بالتفاصيل الكثيرة، وأكثرها منطقية. ومع أنني متأكد من أن أخي وهو يحكي مغامراته يضيف إليها الكثير من خياله، أحاول، نظرًا إلى أنه لا توجد لدي مصادر أخرى، أن أتمسك حرفيًّا بما قاله.

في إحدى المرات، رأى كوزيمو، والذي اعتاد بسبب نوبات الحراسة ضد الحرائق أن يسهر ليلًا، ضوءًا يهبط في الوادي. أخذ يتبع هذا الضوء في صمت بين فروع الأشجار بخطواته التي تشبه خطوات القط، ورأى إينيا سيلفيو كاريجا وهو يسير في عجالة بطربوشه وعباءته ممسكًا في يده بمصباح.

ماذا يفعل الفارس المحامي في الخارج في تلك الساعة، وهو الذي اعتاد أن يأوي إلى فراشه مبكرًا كالدجاج؟! عندئذٍ تبعه كوزيمو، وأخذ حذره من أن يصدر أي ضجيج مع أنه يعلم أن العم عندما يسير بهذه الطريقة المتحمسة يصبح أصم، ولا يرى سوى على بعد خطوة واحدة.

وعبر الدروب الجبلية والطرق المختصرة وصل الفارس المحامي إلى شاطئ البحر، في منطقة من الشاطئ مليئة بالحصى، وأخذ يحرك مصباحه. ولم تكن ليلة مقمرة، ويصعب رؤية أي شيء في البحر، فيما عدا حركة زبد الأمواج القريبة. وقف كوزيمو فوق شجرة صنوبر، بالقرب من الشاطئ، إذ الأشجار لا تصل إلى هناك، فليس أمرًا سهلًا الوصول إلى كل مكان من فوق الأشجار. إلا أنه يرى هذا المسن جيدًا وهو يرتدي طربوشه العالي على الشاطئ الخالي محركًا المصباح تجاه ظلام البحر. وفجأة، ومن وسط ذلك الظلام، أجابه ضوء مصباح آخر قريب، وكأنه أُشعل للتو، وطفا بسرعة مركب صغير ذو شراع مربع قاتم اللون ومجاديف، مركب مختلف عن مراكب المنطقة، ووصل إلى الشاطئ.

ورأى كوزيمو، على الأضواء المتموجة للمصابيح، رجالًا يرتدون العمائم على رءوسهم؛ بعضهم مكث في القارب واضعين إياه في محاذاة الشاطئ بضربات ضئيلة من المجاديف؛ وبعضهم الآخر هبط، وكانوا يرتدون سراويل فضفاضة حمراء اللون، ويضعون سيوفًا عريضة على خصورهم. شحذ كوزيمو عينيه وأذنيه. وأخذ العم والبرابرة يثرثرون فيما بينهم، بلغة لم تكن مفهومة، إلا أنها بدت مفهومة في معظم الوقت. من المؤكد أنها كانت اللغة التجارية المشهورة.

ومن حين إلى آخر يفهم كوزيمو كلمة بلغتنا يصر عليها إينيا سيلفيو وهو يضعها في سياق كلمات أخرى غير مفهومة، وكانت تلك الكلمات هي أسماء مراكب، وأسماء مشهورة لمراكب أحادية الصاري أو ثنائية يمتلكها صانعو السفن في أومبروزا، والتي كانت تقوم بجولات مكوكية بين مينائنا وموانئ أخرى.

استطاع أن يدرك على الفور ما يقوله الفارس! فهو يخبر أولئك القراصنة عن أيام رُسوِّ سفن أومبروزا وإبحارها، وبالحمولة التي تحملها، وخط سيرها، وبالأسلحة التي على متنها.

وابتعد عنهم بسرعة، في حين صعد القراصنة على القارب من جديد، واختفوا في البحر المظلم. ومن الواضح من الطريقة السريعة التي أجريت بها المحادثة أنها شيء معتاد. من يدري منذ متى بدأت الهجمات البربرية تحدث في أعقاب إخباريات عمنا.

مكث كوزيمو فوق شجرة الصنوبر، وهو لا يقدر أن يتحرك من مكانه، من ذلك الميناء الخالي. كانت الرياح عاصفة، والأمواج تصطدم بالصخور، وأخذت الشجرة تئن من كل فروعها، وأسنان أخي يصطك بعضها ببعض، ليس بسبب البرد الخارجي؛ ولكن بسبب الصقيع الذي أصابه من ذلك الاكتشاف المحزن. فذلك المسن الخجول والغامض، الذي اعتدنا ونحن صغار أن نحكم عليه بأنه غير محل للثقة، والذي اعتقد كوزيمو أنه تعلم بالتدريج كيف يقدره ويتعاطف معه، يكشف عن حقيقته كخائن لا يمكن التسامح معه، وشخص جاحد لا يتورع عن إيذاء البلد الذي احتضنه كبائس بعد حياة حافلة بالأخطاء.

لماذا؟! ألهذا الحد يدفعه حنينه إلى تلك الأوطان وأولئك الناس الذين لا بد وقد شعر بالسعادة في فترة من فترات حياته، أم أنه يختزن شعورًا بالحقد القاسي تجاه ذلك البلد الذي يحصل فيه على كل لقمة عيش بالهوان. وانقسم كوزيمو بين دافع أن يجري ليعلن خطط الجاسوس، وينقذ بضائع تجارنا، وبين تفكيره في الألم الذي سيشعر به والدنا بسبب تلك العاطفة التي تربطه — بلا مبرر واضح — بأخيه من أبيه. وبالفعل بدأ كوزيمو في تخيل المشهد؛ الفارس والقيود في يديه يسير وسط الضباط، بين صفين من أهل أومبروزا يكيلون له السباب، ويقودونه إلى الميدان، ويضعون له حبل المشنقة في رقبته، ثم يشنقوه …

وكان كوزيمو قد أقسم بعد أن شهد موت جان البروجي بأنه لن يحضر مرة أخرى تنفيذ حكم بالشنق، وإذ به يجد نفسه يحكم بالإعدام على أحد أقاربه!

وأخذت هذه الفكرة تعذبه الليلة كلها، واستمر الحال في اليوم التالي، وهو يعبر بغضب من فرع إلى آخر، ويركل بقدمه، أو يرفع نفسه بذراعيه، أو يتزحلق بين الجذوع مثلما يفعل دائمًا عندما يقع فريسة لفكرة ما. وأخيرًا اتخذ قراره، واختار حلًّا وسطًا؛ وذلك بأن

يخيف القراصنة وعمه، ومن ثم يقطعون تلك العلاقة الآثمة من دون الحاجة إلى تدخل العدالة. سيختبئ على شجرة الصنوبر تلك في الليل، ومعه ثلاث أو أربع بنادق معبأة؛ وعندما يلتقي الفارس القراصنة سيبدأ هو في إطلاق نيران بنادقه، الواحدة تلو الأخرى، جاعلًا الطلقات تمر من فوق رءوسهم. وبمجرد سماعهم لتلك الطلقات سيفر القراصنة والعم كل منهم في طريقه.

أما الفارس، الذي لم يكن بالتأكيد رجلًا شجاعًا، فإنه بعد أن ينتابه الشك أن شخصًا ما قد كشف أمره، ومن ثم يتأكد أن هناك من راقب تلك المقابلات على الشاطئ، سيتوخى الحذر ولن يعود مرة أخرى إلى علاقته مع طاقم القراصنة العرب.

وبالفعل، انتظر كوزيمو ومعه بنادقه المعدة للإطلاق فوق شجرة الصنوبر ليلتين متتاليتين. ولم يحدث أي شيء، وها هو المسن، في الليلة الثالثة، مرتديًا طربوشه يهرول متعثرًا في حصى الشاطئ، ويبدأ في إعطاء الإشارات بالمصباح، وها هو المركب يرسو وبه البحارة ذوو العمائم.

استعد كوزيمو واضعًا إصبعه على الزناد، إلا أنه لم يطلق النيران؛ لأن في هذه المرة بدا كل شيء مختلفًا. وبعد قليل من المداولات قام اثنان من القراصنة من جهة الشاطئ بالإشارة تجاه المركب، وبدأ الآخرون في تفريغ أشياء: براميل وصناديق، حزمًا وأجولة، إجانات ونقالات مليئة بالجبن. ولم يكن مركبًا واحدًا، بل كانت مراكب كثيرة، وجميعها محملة بالبضائع، وانطلق صف من مرتدي العمائم من الشاطئ يسبقهم عمنا، والذي كان يقودهم بخطواته غير الواثقة حتى وصلوا إلى مغارة وسط الصخور. وهناك وضع العرب كل بضائعهم، ومن المؤكد أنها ثمار سرقاتهم الأخيرة.

لماذا إذن يحضرونها إلى الشاطئ؟! فيما بعد سهل إعادة صياغة الأحداث: نظرًا إلى أن فلوكة المغاربة كان عليها أن ترسو في واحد من موانينا (بسبب إحدى الاتفاقيات القانونية والتي تمت بينهم وبيننا عادة في وسط عمليات السرقة)، ونظرًا إلى أنهم لا بد وأن يخضعوا للتفتيش الجمركي، احتاجوا أن يخفوا البضائع المسروقة في مكان أمين، ليأخذوها بعد ذلك في طريق العودة. وهكذا تثبت السفينة براءتها فيما يتعلق بالسرقات الأخيرة، ومن ثم يوطدون العلاقات التجارية مرة أخرى مع بلدنا.

كل هذه الخلفية عُرفت بوضوح فيما بعد. ولكن في لحظة الحدث نفسها لم يتوقف كوزيمو ليطرح على نفسه أسئلة، فكنز القراصنة مخبأ في مغارة، وسيعود القراصنة إلى مراكبهم ويتركونه هناك، ولا بد من الاستيلاء عليه في أقرب فرصة. ولوهلة فكر أخي أن

يذهب ليوقظ تجار أومبروزا، فلا بد وأنهم المُلَّاك الشرعيون للبضائع، إلا أنه سرعان ما تذكر أصدقاءه الفحامين الذين يعانون الجوع في الغابة مع عائلاتهم. ولم يتردد: جرى بين الفروع متجهًا إلى المناطق التي فيها ينام القادمون من بيرجامو في أكواخ خشنة، في الساحة الممهدة بتراب رمادي اللون.

– هيا بسرعة! تعالوا جميعًا! لقد اكتشفت كنز القراصنة!

وتحت الخيام وأسقف الأكواخ بدأ انطلاق أصوات الأنفاس، واندفاعات وسباب، وفي النهاية أصوات تعجب وأسئلة: ذهب؟ فضة؟

قال كوزيمو: لم أرَ جيدًا، ولكن من الرائحة أعتقد أنها كمية من الأسماك المجففة وجبن الماعز.

وعند سماع تلك الكلمات قام كل الرجال في الغابة، من لديه بنادق أخذها، وآخرون أخذوا فئوسًا وأسياخًا، معاول ومجارف، ولكنهم أخذوا معهم أيضًا آنية ليضعوا فيها الأشياء، بل أخذوا معهم أيضًا سلال الكربون المتسخة والأكياس السوداء.

وانطلق موكب كبير، وتعالت الصيحات: هورا، هوتا، حتى النساء أخذن يهبطن والسلال الفارغة فوق رءوسهن، والصبية وهم يضعون الأكياس فوق رءوسهم ممسكين بالمصابيح. تقدمهم كوزيمو من فوق شجرة صنوبر في الغابة، إلى شجرة زيتون، ومن شجرة زيتون إلى شجرة صنوبر بحرية.

وبينما هم على وشك الالتفاف حول منحنى الصخرة التي خلفها تفتح المغارة، ظهر على قمة شجرة تين معوجة ظل أبيض لقرصان، رفع حسامه، وصاح محذرًا الآخرين. وبقليل من القفزات أصبح كوزيمو على فرع فوقه تمامًا وسدد سيفه إلى رئته حتى ألقى الأخير بنفسه من الجرف.

وفي المغارة وجدوا اجتماعًا لرؤساء القراصنة (ولم يكن كوزيمو قد انتبه، في البداية في أثناء عملية الذهاب والإياب لتفريغ البضائع، أنهم مكثوا هناك). وعندما سمعوا صراخ الحارس خرجوا ووجدوا أنفسهم محاصرين من شرذمة الرجال والنساء المصبوغين برواسب الدخان على وجوههم، يرتدون أكياسًا على رءوسهم، ومسلحون بالمجارف. رفعوا سيوفهم، وألقوا بأنفسهم للأمام محاولين فتح ممر. وهكذا بدأت المعركة: هورا! هوتا! إن شاء الله!

كان عدد الفحامين أكثر، ولكن القراصنة مسلحين، إلا أنه لا يوجد شيء أفضل في مواجهة الحسام من المجارف. وتعالت أصوات الاصطدام: دنج! دنج! وبدأت أنصال

المغاربة تتراجع وقد تعرجت. أما البنادق القديمة فقد سببت دويًّا ودخانًا ثم لاشيء. وبعض القراصنة أيضًا (من الواضح أنهم ضباط) كانت لديهم بنادق تبدو جميلة جدًّا بمجرد رؤيتها، فجميعها فاخرة، ولكن في المغارة أصابت الرطوبة أحجار الاشتعال وأصبحت بلا فائدة. وكان الأذكى بين الفحامين يحاولون أن يسببوا الدوار للضباط من القراصنة بضربات من المجارف على رءوسهم لينزعوا منهم بنادقهم. ولكن بسبب العمائم التي فوقها وصلت كل ضربة إلى هؤلاء المغاربة خفيفة وكأنها من على وسادة، وبدا من الأفضل ضربهم بواسطة الركب في معدتهم لأن بطونهم كانت عارية.

نظرًا إلى أن الشيء الوحيد المتوافر بكثرة كان الحصى، أخذ الفحامون يلقون عليهم بالحجارة. عندئذ، بادلهم العرب الضربات. وأخيرًا، وبفضل الحصى، اتخذت المعركة شكلًا منظمًا، ولكن نظرًا إلى أن الفحامين كانوا يرغبون في دخول المغارة منجذبين إلى روائح السمك المجفف التي تنبعث منها، والمغاربة يحاولون أن يهربوا تجاه قاربهم الراسي على الشاطئ، لم يكن بين الجانبين دوافع عظيمة للتقاتل. وعند لحظة معينة حدث هجوم من أهل برجامو فتح لهم مدخل المغارة، ومن جهة العرب كانوا ما زالوا يقاومون أسفل تساقط الحصى، بمجرد أن رأوا أن الطريق إلى البحر أصبح خاليًا تساءلوا: ولماذا إذن يقاومون؟ من الأفضل أن يرفعوا شراعهم ويرحلوا.

وبمجرد أن وصلوا إلى المركب الصغيرة، فرد الشراع ثلاثة من القراصنة، جميعهم ضباط نبلاء. بقفزة من شجرة صنوبر قريبة من الشاطئ ألقى كوزيمو بنفسه على الشجرة، وتعلق بعارضة السارية، ومن فوق، ومستندًا إلى ركبتيه أشهر سيفه، ورفع القراصنة الثلاثة أحسمتهم، أما أخي فبضربات من اليمين ومن اليسار أوقف ثلاثتهم. أخذت السفينة الراسية تتأرجح يمينًا ويسارًا، وفي هذه اللحظة ظهر القمر فأضاء السيف الذي منحه البارون لابنه، وأضاء أيضًا أنصال سيوف العرب. تزحلق أخي إلى أسفل السارية وغرس سيفه في صدر أحد القراصنة الذي سقط في الماء، وبسرعة السحلية صعد مدافعًا عن نفسه بصد ضربتين من الآخرين، ثم هبط مرة أخرى وطعن الثاني، ثم صعد من جديد وتبادل المبارزة قليلًا مع الثالث، وبانزلاقة أخرى طعنه.

كان القراصنة الثلاثة ممددين على الشاطئ نصفهم في المياه والنصف الآخر خارجها، وذقونهم مليئة بالأعشاب البحرية. أما القراصنة الآخرون في مدخل المغارة فلقد غشي عليهم من ضربات الحصى والمعاول. أما كوزيمو فأثناء تعلقه بسارية المركب، وهو ينظر حوله بانتصار، رأى الفارس المحامي يقفز خارجًا من المغارة وكأنه قطة حُرق ذيلها، حيث

مكث حتى هذه اللحظة مختبئًا بالداخل. أخذ يجري تجاه الشاطئ ورأسه منحنٍ، ودفع القارب مبتعدًا به عن الشاطئ، وقفز بداخله، وأمسك بمجدافيه وأخذ يجدف بهما بكل قوته مبحرًا تجاه عرض البحر.

أخذ كوزيمو يصرخ وهو متعلق بالعارضة: أيها الفارس! ماذا تفعل! هل أصابك الجنون، عد إلى الشاطئ، إلى أين نحن ذاهبون؟! ولكن هيهات. بات واضحًا أن إينيا سيلفيو كاريجا يريد الوصول إلى سفينة القراصنة ليحتمي بها، فلقد اكتشفت خيانته التي لا تغتفر، وإذا مكث على الشاطئ سينتهي أمره فوق حبل المشنقة بالتأكيد. وهكذا أخذ يجدف ويجدف. أما كوزيمو، فمع أنه ما زال واقفًا وسيفه يقطر دمًا في يده ومع أن المسن أعزل وضعيف، إلا أنه لم يكن يعرف ماذا يجب أن يفعل. في نهاية الأمر يؤسفه أن يستخدم العنف ضد عمه، ثم إنه لكي يصل إليه لا بد أن يهبط من فوق السارية، ومسألة أن ينزل على مركب تساوي نزوله على الأرض، أو أن فكرة مخالفته بالفعل قوانينه الداخلية بأن يقفز من شجرة بجذور إلى سارية مركب كانت أمرًا مركبًا جدًّا ليطرحه أمام نفسه في تلك اللحظة. هكذا لم يفعل أي شيء بل جلس على سارية المركب واضعًا قدمًا في ناحية وأخرى في الناحية الأخرى، وترك نفسه ليذهب مع الأمواج ورياح خفيفة ترفع الشراع، ولم يتوقف الشيخ عن التجديف.

سمع نباحًا، وغمرته السعادة، كان كلبه ماسيمو أُتيمو، والذي اختفى أثناء المعركة مختبئًا في مؤخرة القارب، يهز ذيله وكأن لا شيء يحدث. وأخذ كوزيمو يفكر، ففي نهاية الأمر لم يكن هناك شيء مؤلم إلى هذا الحد؛ كان في وسط عائلته، مع عمه، وكلبه يبحر في قارب، وهو الأمر الذي يعد متعة مختلفة بعد الأعوام العديدة التي عاشها وسط الأشجار.

انعكس ضوء القمر على صفحة المياه، وقد أنهك الشيخَ التعب، فأخذ يجدف بصعوبة وهو يبكي، ثم أخذ يقول: آه يا زهيرة، آه، آه يا الله ... زهيرة ... آه زهيرة ... إن شاء الله ... وهكذا تكلم بالتركية، بلا تفسير، وهو يردد بين دموعه اسم هذه المرأة، وهو اسم لم يسمعه كوزيمو قط من قبل. سأله: ماذا تقول أيها الفارس؟ ماذا أصابك؟ أين نحن ذاهبون؟!

أخذ الشيخ يقول: زهيرة ... آه ... زهيرة ... الله، الله ...

– مَن زهيرة هذه أيها الفارس؟ هل تعتقد أننا ذاهبون إلى زهيرة من هنا؟

فأومأ إينيا سيلفيو كاريجا برأسه بالإيجاب، وأخذ يتحدث بالتركية بين دموعه ويصرخ للقمر بهذا الاسم.

وحول زهيرة تلك بدأ ذهن كوزيمو على الفور في تدوير الافتراضات. ربما أوشك أن يكتشف أعمق سر لذلك الرجل الزاهد والغامض. إذا كان الفارس بذهابه تجاه سفينة

القراصنة ينوى اللحاق بزهيرة تلك، ربما تعلق الأمر إذن بامرأة في تلك البلاد العثمانية. ربما الحنين إلى تلك المرأة هو الذي سيطر على حياته كلها. ربما هي صورة السعادة المفقودة التي طالما بحث عنها في تربية النحل، أو في حفر قنوات المياه. ربما كانت حبيبة، عروس تركها هناك، في حدائق بلاد ما وراء البحار، أو ربما ابنته، ابنة لم يرها منذ طفولتها. ربما بغرض البحث عنها حاول لأعوام كثيرة أن يعقد علاقات مع أية سفينة تركية أو عربية تصل إلى موانينا، وربما نقلوا إليه أخبارها. وربما عرف أنها أصبحت عبدة، وأنه لكي يحررها عرضوا عليه أن يزودهم بمعلومات عن رحلات سفن أومبروزا. أو ربما كان هذا هو الثمن الذي دفعه هو ليضموه مرة أخرى بينهم، وليبحر معهم إلى بلد زهيرة.

والآن، وبعد أن انكشفت مؤامرته، أصبح مجبرًا على الهرب من أومبروزا، وهؤلاء المغاربة لا يمكنهم الآن أن يرفضوا اصطحابه معهم ليصل إليها. وفي أحاديثه الدهشة والمتقطعة تتضارب نبرات الأمل مع التوسل والخوف أيضًا؛ الخوف من أنه ليس الوقت المناسب، وأن هناك كارثة أخرى في انتظاره لتبعده مرة أخرى عن المخلوقة التي يتمناها. ولم يعد في استطاعته أن يدفع المجدافين أكثر من ذلك، عندما اقترب ظل ما، قارب آخر بربري. ربما سمعوا من السفينة ضوضاء المعركة على الشاطئ فأرسلوا مستكشفين.

هبط كوزيمو إلى منتصف سارية السفينة، ليختبئ خلف الشراع. بدأ الشيخ يصرخ بلغته أن يأخذوه، وأن يصعدوه إلى السفينة، ومد إليهم ذراعيه. وفي الواقع لبوا طلبه؛ فبمجرد أن اقترب منهم، أمسكه اثنان من الإنكشاريين المعممين من كتفيه ورفعاه إلى فوق حيث إنه كان خفيف الوزن، وأدخلاه قاربهما. أما القارب الذي يقبع كوزيمو فوقه فقد ابتعد بسبب الاصطدام، وأبعدت الرياح الشراع بعيدًا، وهكذا نجا أخي من موت محقق.

وبابتعاده بفضل الرياح، أخذت تصل إلى كوزيمو من قارب القراصنة أصوات وكأنها الصدى. كلمة نطقها العرب والتي بدت مثل: نذل! وصوت الشيخ، والذي كان يسمعه يردد مثل الأبله: آه، زهيرة! ولم تدع الأصوات مجالًا للشك أنه جاء دور الفارس. من المؤكد أنهم اعتبروه مسئولًا عن غزو المغارة، وفقدان الغنيمة، وموت أتباعهم، ويتهمونه بالخيانة ...

ثم سمع صرخة، أعقبها سقوط جسم في المياه، ثم الصمت. وتذكر كوزيمو صوت أبي، بوضوح وكأنه يستمع إليه، عندما يصرخ: إينيا سيلفيو، إينيا سيلفيو ... وهو يتبع أخاه في الحقول، وأخفى وجهه في الشراع.

صعد مرة أخرى إلى قمة الصاري، ليرى إلى أين يتجه المركب، ولكن رأى شيئًا طافيًا في وسط المياه وكأن الرياح تحمله، شيء ما، شيء وكأنه علامة طافية، ولكن علامة لها

ذيل ... وهبط فوقها شعاع من ضوء القمر، ورأى أنها ليست شيئًا، بل رأس، رأس فوقها طربوش بخصلة، وتعرف تحته على الوجه المنعكس للفارس المحامي الذي كان ينظر نظرته الشاردة المعتادة، وفمه مفتوح، وكان باقي جسمه بداية من ذقنه غير ظاهر تحت المياه، وصرخ كوزيمو: أيها الفارس! أيها الفارس! ماذا تفعل؟ لماذا لا تصعد إلى القارب؟ اقترب من القارب! الآن سأجذبك! أيها الفارس!

ولكن العم لم يكن يجيبه؛ أخذ يطفو ويطفو ناظرًا إلى أعلى بتلك النظرة الشاردة وكأنه لا يرى شيئًا.

وقال كوزيمو: هيا ... هيا يا ماسيمو أُتيمو! ألق بنفسك في المياه! أمسك الفارس من ياقته! أنقذه! أنقذه!

قفز الكلب المطيع، وحاول أن يمسك بأسنانه الياقة ولكنه لم يتمكن، فأمسكه من لحيته.

كرر كوزيمو بإصرار: من ياقته يا ماسيمو أُتيمو، قلت لك من ياقته، ولكن الكلب رفع الرأس ممسكًا باللحية ودفعها حتى متن القارب، ورأى كوزيمو أنه لا وجود لياقة، بل لم يعد هناك جسد، مجرد رأس، رأس إينيا سيلفيو كاريجا والتي قُطعت بضربة حسام.

١٦

حكى كوزيمو نهاية الفارس المحامي في البداية بطريقة مختلفة تمامًا، فعندما حملت الرياح المركب الذي كان معلقًا على ساريتها إلى الشاطئ وماسيمو العظيم يتبعه وهو يسحب الرأس المقطوع، حكى للذين استجابوا لندائه — من فوق الشجرة التي انتقل بسرعة فوقها مستعينًا بحبل — قصة أبسط من ذلك بكثير؛ وهي أن القراصنة خطفوا الفارس ثم قتلوه. ربما قصة أملاها عليه قلقه على والدنا، والذي سيصاب بالألم الشديد عند سماع خبر موت أخيه، ورؤية أشلائه المثيرة للشفقة؛ ولذلك لم يستطع كوزيمو أن يزيد من حزنه بالكشف عن خيانة الفارس، بل بعد ذلك حاول، عندما سمع عن الحزن الذي غرق فيه البارون، أن يحيك حول عمنا قصة مجد زائفة، مخترعًا صراعًا سريًّا وجسورًا لهزيمة القراصنة كرس نفسه له منذ أمد طويل، بمجرد أن أدرك القراصنة ذلك اقتصوا منه. ولكنها كانت قصة متناقضة ومليئة بالثغرات، أيضًا لأنه يوجد شيء آخر أراد كوزيمو إخفاءه، وهو وصول غنائم القراصنة إلى المغارة، وتدخل الفحامين. وفي الواقع، إذا انتشر هذا الأمر لصعد كل سكان أومبروزا إلى الجبل ليستعيدوا بضائعهم من الفحامين، ولعاملوهم كلصوص.

وبعد بضعة أسابيع، عندما تأكد أن الفحامين قد تخلصوا من البضاعة، حكى قصة الهجوم على المغارة، ومن أراد الذهاب لاستعادة أي شيء عاد خالي الوفاض، فلقد قسم الفحامون كل شيء فيما بينهم بالعدل؛ الأسماك المجففة، واللحوم المملحة، والجبن، وكل ما تبقى أعدوا به وليمة كبيرة في الغابة استمرت اليوم كله.

كان والدنا قد طعن كثيرًا في السن، وأثر الحزن على موت إينيا سيلفيو كاريجا كثيرًا في طباعه. انتابته رغبة شديدة في المحافظة على أعمال أخيه، ولذلك أراد أن يعتني بنفسه بالمناحل، وأعد نفسه لهذا بكثير من التفاخر، مع أنه لم ير قط منحلًا من قريب. وليتزود

بالنصائح يلجأ إلى كوزيمو، والذي تعلم شيئًا ما من الفارس المحامي، ولم يكن يوجه إليه أسئلة مباشرة، ولكنه يقود الحديث ليوجهه إلى تربية النحل، ويستمع لما سيقوله كوزيمو، ثم يكرره كالأوامر للفلاحين بنبرة غاضبة وواثقة وكأنها أشياء معروفة لديه من قبل.

وحاول ألا يقترب كثيرًا من المناحل؛ وذلك خوفًا من أن يلسعه النحل، ولكنه أراد أن يثبت أنه بإمكانه التغلب على هذا الخوف، ومن يدري كم كلفه هذا من عناء. وبالطريقة نفسها يعطي الأوامر لحفر بعض القنوات، أو لإنجاز مشروع بدأه إينيا سيلفيو المسكين. ولو نجح في ذلك فهي مجرد مصادفة؛ لأن المرحوم نفسه لم يُنهِ قط أيًّا من تلك المشروعات.

ولكن مع الأسف استمر هذا الشغف المتأخر الذي أصاب البارون فترة وجيزة. ففي أحد الأيام بينما يقف بين المناحل والقنوات منهمكًا وعصبيًّا، وفي إحدى الالتفاتات المفاجئة رأى نحلتين تقتربان منه فتملكه الذعر، وبدأ يحرك يديه في الهواء فانقلبت إحدى المناحل، فأخذ يجري تتبعه سحابة من النحل. وفي جريه هذا المندفع سقط في تلك القناة التي يحاولون ملأها بالمياه، وأخرجوه منها مبتلًّا.

مكث في الفراش، بسبب الحمى التي أصابته من قرص النحل، وتلك التي أصابته من الإصابة بالبرد لسقوطه في القناة، استمرت لمدة أسبوع ثم شفي بعدها. ولكنه أصيب بعدها بحالة من الإحباط، لم يرغب بسببها في النهوض.

لزم الفراش، وفقد كل رغبة في الحياة. فهو لم ينجح في أي شيء أراد إنجازه، فلم يعد أحد يتحدث عن الدوقية، وما زال ابنه البكر يعيش بين الأشجار، حتى بعد أن صار رجلًا، مات أخوه مقتولًا، وتزوجت ابنته وعاشت بعيدًا مع أشخاص أكثر سخافة منها، وكنت أنا ما زلت صغيرًا حتى أقف بجواره، وزوجته نشيطة جدًّا ومتسلطة. وبدأ يهذي ويقول إن الآباء اليسوعيين قد احتلوا منزله، وإنه لا يستطيع الخروج من غرفته. هكذا مات كمدًا بالمرارة والجنون اللذين رافقاه طوال حياته.

سار كوزيمو أيضًا في الجنازة، قافزًا من شجرة إلى أخرى، ولكنه لم ينجح في دخول المدفن لأنه لا يمكن التعلق بأشجار السرو الكثيفة. حضر معنا أثناء عملية الدفن، ولكن بعيدًا فوق السور. وعندما ألقينا جميعًا بحفنة التراب على الصندوق؛ ألقى هو أيضًا بفرع شجرة مورق. وأعتقد أننا جميعًا كنا بالنسبة إلى والدنا بعيدين دائمًا، تمامًا مثل بعد كوزيمو فوق الأشجار.

والآن، أصبح كوزيمو هو بارون روندو. ولكن حياته لم تتغير. بدأ، بالطبع، يهتم بكل مصالح أملاكنا، ولكن بطريقته المعتادة دائمًا. عندما يبحث وكلاء الزراعة أو المستأجرون عنه لا يعرفون قط أين هو، وعندما يرغبون في الاختباء منه يظهر هو فوق أحد الفروع.

للعناية أيضًا بالأعمال العائلية كان كوزيمو كثيرًا ما يظهر في المدينة، ويتوقف على شجرة الجوز الكبيرة في الميدان، أو على أشجار البلوط القريبة من الميناء. أحبه الناس باحترام، ونادوه بلقب «السيد البارون»، واتخذ هو أوضاع الشخص المسن، كما يحب أن يفعل الشباب أحيانًا، وكان يتوقف ليتسامر مع حلقة من سكان أومبروزا تقف تحت الشجرة.

استمر في أن يقص، بطرائق مختلفة في كل مرة، نهاية عمنا، ورويدًا رويدًا تكشفت حقيقة الصلة بين الفارس والقراصنة، ولكن ليسيطر على الاستياء الفوري الذي أصاب المواطنين، أضاف قصة زهيرة، وكأن الفارس قد قصها عليه سرًّا قبل موته، وهكذا يقودهم إلى التعاطف والتأثر بالمصير الحزين الذي انتهى إليه المسن.

وأعتقد أنه انطلاقًا من اختراعاته الصرفة وصل كوزيمو في النهاية، نظرًا إلى محاولته الاقتراب تدريجيًّا من الحقيقة، إلى تكوين قصة تحاكي تقريبًا جميع الأحداث. وقصها بالطريقة نفسها مرتين أو ثلاث مرات؛ ثم، ونظرًا لأن أهل أومبروزا لم يملوا قط من سماع القصة، ولأنه يضم إليهم مستمعين آخرين، والجميع يسألون عن تفاصيل جديدة اضطر إلى أن يضيف أجزاء، وتوسعات، ومغالاة في الأحداث وأن يُدخل شخصيات جديدة وأحداثًا وهكذا تشوهت القصة، وأصبحت قصة خيالية أكثر مما كانت عليه في البداية.

والآن أصبح لكوزيمو جمهور يمكث ليستمع إلى كل ما يقصه بدهشة وأصبح هو يستمتع بالحكي، وتحولت حياته فوق الأشجار والصيد، أو اللص جان البروجي، وكلبه ماسيمو أُتيمو إلى مصادر حكايات لا نهاية لها. (كثير من الأحداث عن ذكريات حياته نقلتها كما حكاها هو تمامًا بناء على إلحاح جمهوره من المستمعين، وأقول هذا لأطلب الصفح إذا لم يبد كل ما أكتبه حقيقيًّا ومناسبًا لرؤية متناغمة للإنسانية وللوقائع.)

على سبيل المثال سأله أحد هؤلاء المتسكعين: هل حقيقي أنك لم تضع قدميك قط إلا على الأشجار يا سيدي البارون؟

وأجابه كوزيمو: نعم، في إحدى المرات، ولكن بطريق الخطأ، صعدت على قرني وعل، اعتقدت أنني أعبر فوق شجرة إسفندان، ولكنها في الحقيقة قرنا وعل، هرب من فرق الصيد الملكية، ووقف ثابتًا في تلك البقعة. شعر الوعل بثقلي وبدأ يهرب في الغابة. ولا يمكنني أن أصف لك كم التمزقات! وأنا جالس على رأسه شعرت أنني أصطدم من كل ناحية، بين تلك الأطراف المدببة لقرنيه، والأشواك وفروع الغابة التي تصدمني كلها في وجهي ... أخذ الوعل يقفز محاولًا أن يتخلص مني، ولكنني تشبثت بقوة ... وتوقف عن الحكي، وعندئذٍ سأله ذلك الشخص: وكيف انتهى الأمر يا سيدي؟

وفي كل مرة كان يُبدع نهاية جديدة: أخذ الوعل يجري، ويجري حتى وصل إلى قبيلة من الوعول، والتي بمجرد أن رأته يصل ومعه رجل معلق فوق قرنيه أخذت وهلة تبتعد عنه، ووهلة تقترب منه بفضول. أخذت أنا أصوب بالبندقية التي أعلقها دائمًا حول عنقي، وأصبت كل وعل رأيته، حتى قتلت منها خمسين …

– وفي أي مكان يوجد خمسون وعل في غاباتنا؟ سأله واحد من أولئك العاطلين.

– الآن لم يعد يوجد المزيد من هذا النوع؛ لأن هذه الخمسين التي قتلتها كانت الإناث كلها، هل فهمت؟ في كل مرة يحاول الوعل الذي أمتطيه الاقتراب من أنثى وعل، أطلق النار، فتسقط صريعة. ولم يستطع الوعل أن يتصرف وسقط فريسة لليأس. عندئذٍ … قرر أن ينهي حياته، هرع فوق صخرة، ألقى بنفسه من أعلاها، ولكنني تعلقت بشجرة صنوبر بالقرب من الصخرة، وها أنا ذا!

أو أنها معركة اندلعت بين وعلين وتشابكا بالقرون، وأنه مع كل ضربة يقفز من قرنَي أحدهما إلى الآخر، حتى وجد نفسه على قمة شجرة بلوط إثر تصادمٍ قوي …

على كل حال، أصابه ذلك الولع الذي يصيب ذلك الذي يقص الحكايات، ولا يعرف هل تلك التي حدثت له حقًّا، والتي باستعادتها يستعيد معها ساعات طويلة مرت عليه بما فيها من مشاعر دقيقة من المضايقات ومن السعادة، من التردد والمجد الزائد، ومن الملل، أجمل أم أن القصص التي ينسجها حول تلك الأحداث ويقتطع منها الكثير ليبدو فيها كل شيء سهلًا أجمل. ولكنها كلما تغيرت كلما أدرك أنه يعود مرة أخرى للتحدث عن الأشياء التي حدثت له بالفعل أو تلك التي أدركها من الواقع الذي يعيشه.

كان كوزيمو في السن التي فيها تمنح الرغبة في الحكي رغبة في الحياة، والتي فيها يعتقد المرء أنه لم يعش بعدُ ما يكفي ليحكي عنها، وهكذا يخرج للصيد، ويتغيب لمدة أسابيع، ثم يعود مرة أخرى ليقف فوق أشجار الميدان ممسكًا بين يديه نُموسًا وحيوانات الغرير والثعالب من ذيولها، ويقص على أهل أومبروزا حكايات جديدة. تتحول القصص الحقيقية إلى نسج من الخيال عندما يحكيها، ويتحول الخيال إلى حقائق.

ولكن مع كل هذا الشغف، ظل بداخله شعور عميق بعدم الرضا، شيء ما ينقصه؛ ففي بحثه هذا عن أناس يستمعون إليه يبحث عن شيء آخر مختلف. لم يكن كوزيمو قد عرف الحب بعد، وما معنى التجارب في حياة المرء دون أن يقع في الحب؟! ما قيمة أن يخاطر المرء بحياته وهو لا يعرف بعدُ المذاق الحقيقي للحياة؟!

تعبر الفتيات العاملات في الحقل أو في بيع الأسماك في ميدان أومبروزا، وتعبره أيضًا الآنسات في عرباتهن، يلقي كوزيمو عليهن جميعًا نظرات سريعة، ولم يفهم بعدُ جيدًا لماذا

بهن جميعًا شيء يبحث عنه ولم يجده بأكمله في أي منهن. وفي الليل، عندما تُطفأ الأضواء في كل المنازل، ويمكث كوزيمو وحده تصحبه تلك الأعين الصفراء للبوم، ويشعر بحاجة إلى أن يحلم بالحب.

وكان يشعر بالإعجاب والحقد تجاه الأحباء الذين يتواعدون خلف السياج، وبين صفوف الأشجار، ويتبعهم بنظراته وهم يختفون في الظلام، ولكن إذا استلقوا عند جذع شجرته يهرب بعيدًا وقد اعتراه الخجل. عندئذ، وليتغلب على الحياء الطبيعي لعينيه، يتوقف ليراقب الحب لدى الحيوانات. ففي فصل الربيع يبدأ عالم التزواج فوق الأشجار؛ فتتزاوج السناجب بحركات وأصوات شبه آدمية، والعصافير تتزاوج وهي ترفرف بأجنحتها، حتى السحالي تجري متحدة وأذيالها معقودة كل منها بالآخر؛ وتبدو القنافذ وكأنها أصبحت أكثر نعومة ليصبح عناقها أكثر عذوبة. ولم يكن ماسيمو أُتيمو يشعر بالخجل من كونه الدشهند الوحيد في أومبروزا، فكان يتودد إلى أنثى كلاب الراعي، أو الكلاب الذئاب بجرأة شهوانية معتمدًا على اللطف الطبيعي الذي يميزه. وكثيرًا ما عاد حزينًا من العقر؛ ولكن يكفيه لقاء حب واحد سعيد ليعوضه عن كل هزيمة تعرض لها.

وكوزيمو أيضًا، مثل ماسيمو أُتيمو، يُعد النموذج الوحيد من نوعه. فيرى في أحلام اليقظة نفسه محبوبًا من فتيات غاية في الجمال؛ ولكن كيف يمكنه أن يجد الحب فوق الأشجار حيث يعيش؟ في خياله تحدُث كل هذه الأشياء في مكان غير محدد، سواء على الأرض أو على الأشجار حيث يمكث، مكان لا وجود له، يتخيله في عالم يصل إليه كلما اتجه إلى أعلى، وليس إلى أسفل. ربما كان يحلم بشجرة عالية جدًّا عندما يصعد عليها يصل إلى عالم آخر، إلى القمر.

وفي الوقت نفسه، بدأ يشعر بأنه غير راضٍ عن نفسه باستمراره في تلك الأحاديث في الميدان. وفي أحد الأيام ومنذ أن قال أحد التجار، شخص ما قادم من مدينة أوليفاباسا القريبة: آه، أنتم أيضًا لديكم إسباني!

وعندما سألوه ماذا يقصد بذلك أجاب: في أوليفاباسا يوجد جنس من الإسبان يعيشون فوق الأشجار!

لم يشعر كوزيمو منذ تلك اللحظة بالراحة إلا عندما بدأ رحلة عبور أشجار الغابة متجهًا إلى أوليفاباسا.

١٧

كانت أوليفاباسا بلدًا غير ساحلي. وصل إليها كوزيمو بعد نحو يومين من السير، وخاطر بعبور مناطق نادرة الأشجار. وفي الطريق، وبالقرب من المناطق السكنية، يطلق من لم يره قط من قبل صيحات الدهشة، وبعضهم كان يلقيه بالأحجار، ولذلك حاول أن يسافر خفية قدر المستطاع. ولكن بالتدريج وباقترابه من أوليفاباسا لاحظ أنه إذا رآه أحد الحطابين أو الصيادين أو جامعي الزيتون لم يكن يبدي أي تعجب، بالعكس يحييه الرجال رافعين قبعاتهم وكأنهم يعرفونه، ويقولون كلمات بالتأكيد لا صلة لها بلهجتهم الأصلية، لأنها تبدو غريبة في أفواههم مثل: Seňor! Buenos días, seňor!

كان فصل الشتاء، وبعض الأشجار عارية الأوراق. وفي أوليفاباسا يعبر صفان من أشجار الدلب والدردار في المناطق السكنية. وعندما اقترب أخي رأى أنه بين الفروع العارية يوجد أشخاص، واحد أو اثنان بل ثلاثة على كل شجرة، جالسين أو واقفين، بطريقة جادة. وصل إليهم ببضع قفزات.

كانوا رجالًا يرتدون ملابس النبلاء، وقبعات ثلاثية فوقها الريش، معاطف فخمة، للنساء مظهر النبيلات أيضًا، يرتدين الخمار على رءوسهم ويجلسن، اثنتان وثلاثة منهن على فروع الأشجار، بعض النساء يطرزن وهن ينظرن كل فترة إلى أسفل، إلى الطريق بحركة خاطفة جانبية من جذوعهن، وهن يسندن أذرعهن بطول الفرع، وكأنه حافة نافذة.

يوجه الرجال إليه التحية وكأنهم ممتلئون بنوع من التفهم المر: صباح الخير أيها السيد! فيرفع كوزيمو قبعته. وبدا له أن أحدهم، هو أكثرهم سلطة؛ شخص سمين مستند على فرع مزدوج لشجرة الدلب، وبدا وكأنه لن يستطيع الخروج منه، جلده يبدو من لونه أنه مريض بالكبد، وتبدو ظلال شاربه ولحيته المحلوقين سوداء بالرغم من تقدمه في السن،

وبدا أنه يسأل جاره، وهو شخص هزيل، نحيف يرتدي اللون الأسود، وهو أيضًا يبدو ذقنه أسود اللون من حلاقتها؛ عن هوية ذلك الغريب الذي يتقدم فوق صف الأشجار.

ورأى كوزيمو أنه حانت اللحظة التي فيها يجب أن يقدم نفسه. وصل إلى شجرة الدلب وتقدم من الشخص السمين، وانحنى وقال: البارون كوزيمو بيوفاسكو من روندو في خدمتك.

– روندوسن؟ روندوس؟ من أجريجنتو؟ أم من خاليتشانو؟

– لا يا سيدي.

– كاتالاني؟

– لا يا سيدي، إنني من هذه الجهة.

– Desterrado también?

شعر السيد النحيف أن عليه التدخل ليقوم بدور المترجم، وبأسلوب غاية في التكلف بدأ: يقول صاحب الفخامة فيديريكو ألونسو سانشيه دي جواتامورا أي توباسكو، إذا كنت سيادتك أيضًا لاجئًا، نظرًا إلى أنك تقفز فوق الأشجار.

– لا يا سيدي. أو على الأقل لست لاجئًا بناءً على قرار شخص آخر.

– Viaja usted sorbe los arboles por gusto?

والمترجم: فخامة فيديريكو ألونسو يرغب في أن يسأل سيادتك هل تسلك هذا الطريق عن طيب خاطر؟

فكر كوزيمو قليلًا وأجاب: لأنني أعتقد أن هذا الوضع يناسبني أكثر، بالرغم من أن أحدًا لا يفرضه علي.

صاح فيديريكو ألونسو سانشيه متنهدًا: Feliz usted! Ay de mì, ay de mì!

وأخذ الشخص المرتدي اللون الأسود يشرح، بتصنع متزايد: يقول فخامته إن سيادتك سعيد الحظ جدًّا لأنك تستمتع بتلك الحرية، والتي لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من مقارنتها بحالتنا الإجبارية، والتي مع ذلك كله نتحملها لأنها إرادة الله، ورشم الصليب.

وهكذا، وبين صيحة مختصرة من الأمير سانشيه، وبشرح مُفصل من السيد الذي يرتدي الأسود، استطاع كوزيمو أن يبني قصة المستعمرة القائمة فوق أشجار الدلب.

كانوا جميعًا نبلاء من إسبانيا تمردوا على الملك شارل الثالث بسبب تعارض في مصالح ملكيات الأراضي، وهكذا تم نفيهم مع عائلاتهم وعند وصولهم إلى أوليفاباسا، منعوهم من استكمال رحلتهم؛ فتلك الأراضي في الواقع، وبناءً على اتفاقية قديمة مع بابا الكاثوليك، لم تكن تستطيع استقبال، أو حتى السماح بعبور الأشخاص المنفيين من إسبانيا.

وكان وضع تلك العائلات النبيلة غاية في الصعوبة، ولا حل له، ولكن قضاة أوليفاباسا، والذين لم يرغبوا في أن تصبح بينهم وبين تلك الوفود الأجنبية أية مضايقات، وحيث لم تكن لديهم أسباب لمعاداة أولئك المسافرين الأثرياء، وصلوا إلى حل: كانت المعاهدة تنص على أن المنفيين لا يجب أن «يلمسوا تراب تلك الأراضي، يكفي إذن أن يمكثوا فوق الأشجار، وسيسير كل شيء وفقًا للقانون». وهكذا صعد المنفيون فوق أشجار الدلب والدردار، بسلالم من الحبال منحتها لهم البلدية، والتي نُزعت بعد ذلك. وكانوا قد استقروا فوقًا منذ بضعة أشهر، معتمدين على أن يصدر شارل الثالث، في ظل هذا الوضع الهادئ، قرارًا بالعفو عنهم، ومعتمدين على العناية الإلهية. وكان لديهم ذخيرة مضاعفة أتوا بها من إسبانيا وكانوا يشترون المأكولات، وهكذا ازدهرت حركة التجارة في المدينة.

وليجذبوا الأطباق إلى أعلى، جهزوا بعض المصاعد، وعلى أشجار أخرى وضعوا مظلات يناموا أسفلها، أي أنهم استطاعوا ضبط حياتهم بطريقة جيدة، أو يمكن القول إن أهل أوليفاباسا ساعدوهم في الحصول على تلك المعدات، لأن وجودهم كان يدر عليهم عائدًا جيدًا. أما المنفيون، فمن جهتهم لم يكونوا يحركون إصبعًا واحدة طوال اليوم.

وكانت بالنسبة إلى كوزيمو المرة الأولى التي يتقابل فيها مع أشخاص آخرين يعيشون فوق الأشجار، وبدأ يطرح أسئلة عملية: وعندما تمطر ماذا تفعلون؟

– Sacramos todo il tempo, seňor.

والمترجم الأب سولبيتشو دو جوادليتي، التابع لجماعة اليسوعيين والمنفي هو أيضًا منذ أن طردت إسبانيا جماعته الرهبانية يردد: نحتمي بمظلاتنا، ثم نوجه أفكارنا إلى الله، شاكرين إياه على ذلك القليل الذي يكفينا!

– وهل تذهبون إلى الصيد؟

– Seňor, algunas veces con il viscio.

– أحيانًا بعض منا يدهن أحد الفروع بالغراء ليلهو.

ولم يتعب كوزيمو قط من اكتشاف كيف استطاعوا حل كل المشكلات التي واجهته هو أيضًا.

– ولتغتسلوا! لتغتسلوا، ماذا تفعلون لتغتسلوا؟!

قال دون فيديريكو رافعًا كتفيه: Por lavar? Hay lavanderas.

– نعطي ملابسنا لغسالات المدينة — ترجم ذلك دون سولبيتشو ولتحري الدقة أضاف — ننزل لهم سلة الملابس المتسخة كل يوم اثنين.

– لا أقصد القول لتغسلوا وجوهكم وأجسامكم.

أصدر دون فيديريكو صوتًا كالخوار، ورفع كتفيه، وكأن هذه المشكلة لم تقابله قط. واعتقد دون سولبيتشو أنه يجب أن يفسر ذلك: في رأي فخامته هذه أشياء شخصية تخص كل واحد بمفرده.

– ولكن، اعذرني، وأين تقضون حاجتكم؟

– Ollas, Seňor.

ودون سولبيتشو، بنبرته المتواضعة كالعادة: في الواقع نستخدم بعض الأصص لهذا الغرض.

وبعد أن أذن له دون فيديريكو بالانصراف، قاد الأب سولبيتشو كوزيمو ليزور أعضاء المستعمرة المختلفين في شجرة إقامة كل منهم.

وكان كل هؤلاء النبلاء والنبيلات محتفظين — بالرغم من المضايقات الكثيرة التي يتعرضون لها بسبب إقامتهم بهذه الطريقة — بسلوكهم المعتاد والرزين. ولكي يجلس بعض الرجال ممتطين فروع الأشجار وضعوا فوقها أسراج الأحصنة، وهي فكرة أعجبت كوزيمو كثيرًا، والذي بالرغم من أعوامه الطويلة التي قضاها فوق الأشجار لم يفكر في هذه الطريقة (وهذه طريقة مفيدة جدًّا لوجود السقاطات — والتي لاحظها على الفور — فهي تبعد المضايقة التي تسببها ضرورة ترك القدمين مدلاتين، مما يسبب التنميل بعد فترة). وكان بعض منهم يضع النظارات المعظمة البحرية (وكان أحدهم برتبة أدميرال)، والتي ربما كانت تفيدهم فقط في أن ينظر بعضهم إلى بعض من شجرة إلى أخرى، وذلك لإشباع فضولهم والثرثرة.

أما السيدات والآنسات فقد كن يجلسن جميعًا على وسائد صنعوها بأنفسهن، وهن يقمن بأشغال الإبرة (كن الوحيدات العاملات، بطريقة ما)، أو يربتن على ظهور قططهن الضخمة. وفوق الأشجار يوجد عدد كبير من القطط، والعصافير أيضًا، الموضوعة في أقفاص (ربما كانوا ضحايا الصيد بالغراء)، فيما عدا بعض الحمائم التي تطير حرة وتقف على يد الصغيرات اللاتي يربتن عليها بحزن.

واستقبلوا كوزيمو بجدية شديدة في أحد تلك الصالونات المقامة فوق الأشجار. قدموا له القهوة، ثم على الفور بدءوا في التحدث عن قصورهم التي تركوها في إشبيلية، وفي غرناطة، وعن أملاكهم، ومخازن الحنطة، وإصطبلاتهم، بل دعوه إلى أن يذهب ليزورهم عندما يستردون أملاكهم. أما عن الملك الذي طردهم فكانوا يتحدثون عنه بنبرة كانت مزيجًا من العداء المتطرف والاحترام الواجب، قادرين على أن يفصلوا تمامًا بين الشخص الذي تصارعت عائلاتهم معه، وبين اللقب الملكي الذي بسلطته منحهم ما لديهم من ألقاب.

ولكنهم أحيانًا يخلطون بين الطريقتين المتناقضتين للنظر في الأمور باندفاعة لاشعورية. أما كوزيمو، ففي كل مرة يتحدثون فيها عن الملك، لم يكن يعرف كيف يتصرف.

وكانت تخيم على كل إيماءات المنفيين وأحاديثهم هالة من الحزن والحداد، تناسب طبيعتهم إلى حد ما، وبدت اختيارًا ذاتيًّا أيضًا، كما يحدث أحيانًا في أعماق من يحارب لأجل قضية غير محددة الملامح، ويحاول أن يعوض ذلك بفرض نوع من الوقار عليها.

وكان يشتعل حماس داخل الشابات منهم، واللاتي بَدَوْنَ من النظرة الأولى لكوزيمو أن جميعهن مشعرات بدرجة كبيرة، وجلودهن غليظة، ولكنهن كن يوقفنه في الوقت المناسب. تلعب اثنتان منهن بقذف كرة الريشة من شجرة دلب إلى أخرى، ثم تنطلق صرخة رقيقة، فقد وقعت الريشة في الطريق. يلتقطها أحد الصبية المتشردين في أوليفاباسا، ويقذفها إلى أعلى مقابل بيزيتا.

وعلى الشجرة الأخيرة، شجرة دردار، يجلس شيخ يدعى إلكوندي، لا يرتدي الباروكة، وملابسه متواضعة. وبالاقتراب منه، خفض الأب سولبيتشو صوته، ومن ثم قلده كوزيمو. كان إلكوندي يحرك أحد الفروع بذراعه — من حين إلى آخر — وينظر إلى منحدر الهضبة، أو الأرض المسطحة، أو تلك الخضراء، أو الجافة التي تختفي كلما نظر إلى أبعد.

همس سولبيتشو لكوزيمو قصة ابن إلكوندي المحبوس والمعذب في سجون الملك شارل. وأدرك كوزيمو أنه بينما كل أولئك النبلاء منفيين فقط بالاسم، وعليهم كل فترة أن يستدعوا من ذاكرتهم ويكرروا على أنفسهم السبب والكيفية اللذين وصلوا بهما إلى هنا، فإن هذا المسن هو فقط من يتألم بالفعل. فحركة إبعاد الفرع التي يكررها، وكأنه يتوقع أن يرى أرضًا أخرى تظهر، وذلك التحول البطيء لنظرته في امتداد ذلك التموج وكأنه يتمنى ألا يلتقي بخط الأفق، وأن ينجح في أن يرى بلده بالرغم من بعدها، أولى علامات النفي الحقيقي التي رآها كوزيمو. وأدرك أيضًا أهمية وجود إلكوندي بالنسبة لأولئك النبلاء، وكأن هذا الوجود هو الذي يوحدهم معًا، ويعطي لحياتهم معنًى. ربما هو الأفقر بينهم، وبالتأكيد أقلهم سلطة في بلادهم، إلا أنه هو الذي يخبرهم بما يجب عليهم التألم منه، بل ما يجب عليهم أن يأملوه.

وعند عودته من الزيارات رأى كوزيمو فتاة على شجرة حور، فتاة لم يرها قبل ذلك، وبقفزة وقف أمامها.

كانت عينا الفتاة لونهما رائع كلون زهرة العناقية السماوي، وجسدها تنبعث منه رائحة العطر، وتمسك بدلو.

– كيف إذن لم أرك حينما زرت الآخرين؟

ابتسمت: كنت آخذ المياه من البئر.

وتساقطت المياه قليلًا من الدلو المائل، فساعدها على حمله.

– إذن أنتم تنزلون من فوق الأشجار؟

– لا، يوجد فرع شجرة كرز يظلل البئر، ومنه ننزل الدلاء. تعالَ.

سارا على أحد الفروع، ثم تسلقا سور أحد القصور، وقادته هي في طريق فوق شجرة الكرز، وكان البئر في الأسفل.

– هل ترى أيها البارون؟

– كيف عرفت أنني بارون؟

– أنا أعرف كل شيء — ثم ابتسمت وأضافت — قالت لي أختاي عن زيارتك.

– هل هما من كانتا تلعبان بالكرة الريشة؟

– تمامًا، إيرنيا ورايموندا.

– بنات دون فيديريكو؟

– أجل.

– واسمك؟

– أورسولا.

– ولكنك تسيرين فوق الأشجار أفضل منهم جميعًا.

– لأنني كنت أصعد فوق الأشجار وأنا طفلة؛ في غرناطة لدينا أشجار ضخمة في بلاطنا.

– وهل تستطيعين إحضار هذه الوردة؟ وفوق قمة أحد الأشجار كانت توجد وردة متسلقة مزدهرة.

– مع الأسف، لا.

– حسنًا، سأقطفها لك أنا.

ابتعد وعاد بالزهرة. ابتسمت أورسولا، ومدت يدها لتأخذها.

– أريد أن أضعها لك بنفسي، قولي لي أين.

– على رأسي. أشكرك. وساعدته هي بيديها.

سألها كوزيمو: والآن قولي لي، هل تعرفين كيفية الوصول إلى شجرة اللوز تلك؟

ضحكت: كيف هذا؟ فأنا لا أعرف الطيران.

– انتظري، وجذب كوزيمو حبلًا، إذا تركتني أربطك بهذا الحبل وأدفعك إلى هناك.

– لا ... أخاف!

ولكنها قالت ذلك وهي تضحك.

– إنها طريقتي، أنا أسافر منذ أعوام، وأفعل كل شيء بمفردي.

– يا أمي!

نقلها إلى هناك، ثم لحق بها، كانت شجرة لوز رقيقة ولكنها ضيقة، فجلس ملاصقًا لها. وأورسولا ما زالت تنهج، وجهها مضرج بالحمرة من ذلك الطيران.

– خائفة؟

– لا.

ولكن قلبها كان ينبض بقوة.

– لم تقع الوردة.

قال هذا ثم لمسها ليصحح وضعها.

وهكذا، وهما جالسان متجاوران فوق الشجرة الضيقة كانا يتعانقان عند أي حركة.

قالت هي: آه.

ثم بدأ هو، وقبلها. وهكذا بدأ الحب، كان الفتى سعيدًا ومدهوشًا. أما هي فشعرت بالسعادة، ولكنها لم تندهش (فلا شيء يحدث للفتيات مصادفة).

بدا ذلك الحب الذي انتظره كوزيمو طويلًا، والذي وصل إليه دون أن يتوقعه، وكان جميلًا إلى حد أنه لم يفهم كيف استطاع أن يتخيله جميلًا قبل ذلك.

وأجمل ما في هذا الشيء الجديد هو بساطته الشديدة، وبدا للفتى في تلك اللحظة أن الأمر يجب أن يستمر دائمًا بهذه البساطة.

١٨

أزهرت أشجار الخوخ واللوز والكرز، وكوزيمو وأورسولا يقضيان أيامهما معًا فوق الأشجار المزهرة، وكان الربيع يلون بالسعادة حتى مظهر الحداد للأقارب المحيطين بهما.

وفي مستعمرة المنفيين استطاع أخي على الفور إثبات فائدته، وذلك بأن علمهم الطرائق المختلفة ليعبروا من شجرة إلى أخرى، وبتشجيعه للعائلات النبيلة لأن تخرج من سلوكها الرسمي المعتاد لتتحرك قليلًا. بل إنه أرسى جسورًا من الحبال تسمح للمنفيين المسنين بأن يتبادلوا الزيارات. وهكذا، وفي نحو سنة قضاها مع الإسبان، زود المستعمرة بمعدات كثيرة اخترعها بنفسه؛ خزانات للمياه، أفران صغيرة، قِرب من الجلد لينا موا بداخلها. ودفعته رغبته في اختراع أشياء جديدة إلى أن يتبع عادات أولئك النبلاء، حتى عندما تتعارض مع أفكار كُتَّابه المفضلين. وهكذا، وعندما لاحظ رغبات أولئك الأشخاص الصالحين ممارسة سر الاعتراف بانتظام، حفر حجرة للاعتراف بداخل أحد جذوع الأشجار، والتي يمكن للأب الرفيع دون سولبيتشو أن يدخل بداخلها، ويمكنه من خلال نافذة صغيرة وعليها ستارة وشبكة حديدية أن يستمع لاعترافاتهم.

لكن شغفه الصرف بالاختراعات التقنية لم يكفِ لإنقاذه من استحواذ عاداته اليومية عليه، فلقد كانت تلزمه الأفكار. كتب كوزيمو لأوريكي صاحب المكتبة، والذي أصبح يرسل إليه بالبريد من أومبروزا إلى أوليفاباسا الكتب التي تصل إليه في أثناء غيابه، وهكذا استطاع أن يجعل أورسولا تقرأ «باولو وفرجينيا» و«إلويزا الجديدة».

كثيرًا ما يعقد المنفيون اجتماعات فوق شجرة بلوط مترامية الأطراف، شيئًا كالبرلمان يقومون في أثنائه بصياغة خطابات للملك. امتلأت تلك الخطابات في البداية بالاعتراضات الشديدة والتهديدات، تكاد تكون تحذيرات أخيرة، ولكن في وقت ما، بدأ بعضهم اقتراح

صيغ أكثر لطفًا واحترامًا، وهكذا وصلوا إلى كتابة خطاب توسل، فيه ينحنون بتواضع عند أقدام صاحب الفخامة المعظم، طالبين منه العفو.

عندئذٍ كان إلكوندي يقف، فتُعقد ألسنة الجميع، ويبدأ في التحدث وهو ينظر إلى أعلى بصوت منخفض ومتهدج، ويقول كل ما في قلبه. وعندما يعاود الجلوس يمكث الآخرون جادين وصامتين، ولا يعود أحد منهم يشير إلى خطاب التوسل.

أصبح كوزيمو الآن عضوًا في هذه الجماعة، ويشترك معهم في اجتماعات البرلمان. وبحماسة الشباب الساذج، بدأ يشرح لهم أفكار الفلاسفة وأخطاء الملوك، وكيف يمكن أن تُحكم الدول بالعقل والعدل. ومن بين الجميع لم يكن يستمع إليه سوى: إلكوندي، والذي مع كونه مسنًّا، ينهك نفسه دائمًا بحثًا عن طريقة للفهم والتصرف، وأورسولا التي قرأت بعض الكتب، وفتاتين أكثر يقظة من الأخريات. أما بقية المستعمرة فكانت رءوسهم فارغة كالنعال التي يمكن تثبيتها بالمسامير.

وهكذا، وبدلًا من أن يمكث إلكوندي هذا في مكانه المعتاد ليتأمل المناظر الطبيعية، بدأ يرغب في قراءة الكتب. بدا له روسو صعبًا، ولكن أعجبه مونتيسكيو، وبدت هذه خطوة إلى الأمام. أما النبلاء الآخرون فلم يهتموا بشيء، مع أن بعضهم طلب من كوزيمو، بعيدًا عن أعين الأب سولبيتشو، أن يعيره رواية «الصبية» ليقرءوا فيها الصفحات الممنوعة. وهكذا، وبوجود إلكوندي الذي يلتهم الأفكار الجديدة، اتخذت اجتماعات شجرة البلوط منحًى آخر، فالآن أصبح الجميع يتحدثون عن الذهاب إلى إسبانيا والقيام بالثورة.

في البداية لم يتوقع الأب سولبيتشو الخطر، فهو لم يتمتع بالذكاء، ونظرًا لأنه كان منفصلًا تمامًا عن كل التنظيم الهيكلي لرؤسائه، لم يعد مطلعًا على سموم الضمائر. ولكن بمجرد أن استطاع إعادة ترتيب أفكاره (أو بمجرد، كما قال آخرون، تلقي خطابات عليها الختم الأسقفي) بدأ يقول إن الشيطان قد تسلل إلى مجتمعهم، وإنه لا بد من توقع وابل من النيران ستحرق الأشجار ومن عليها.

وفي إحدى الليالي أيقظ كوزيمو صوت أنين، هرع ممسكًا مصباحًا، وفوق شجرة الدردار الخاصة بإلكوندي رأى الشيخ مقيدًا في الجذع، والأب اليسوعي يعقد القيود بقوة.

– أيها الأب، ماذا يحدث هناك؟

– إنها يد محاكم التفتيش المقدسة يا بني! إنه دور هذا الشيخ البائس، حتى يعترف بالهرطقة ويبصق الشيطان. ثم سيأتي دورك أنت أيضًا!

استل كوزيمو سيفه وقطع القيود — احترس أيها الأب — توجد أذرع أخرى أيضًا تخدم العقل والعدل!

استل الأب اليسوعي من معطفه سيفًا حادًّا وقال: بارون روندو، إن لدى عائلتك منذ زمن حساب مع نظامي الرهبني!

– إذن كان أبي رحمه الله على حق — صاح كوزيمو مهاجمًا — إن جماعتكم الرهبانية لا تعرف الصفح!

وأخذا يتبارزان فوق الفروع. وكان دون سولبيتشو مبارزًا ماهرًا، ووجد أخي نفسه في وضع سيئ أكثر من مرة. وفي بداية جولتهما الثالثة استعاد إلكوندي وعيه وبدأ في الصراخ. استيقظ المنفيون الآخرون وهرعوا نحو الصوت، وتدخلوا بين المتبارزين. أخفى سولبيتشو سيفه بسرعة، وأخذ يحاول أن يأمر الجميع بالهدوء.

لم يعد كوزيمو يشعر بالأمان بالتأكيد بعد ما حدث، وأثناء تجوله فوق الأشجار مع أورسولا يخشى دائمًا أن يتجسس عليه الأب اليسوعي. فهو يعرف أنه سيذهب ويسمم أفكار دون فيديريكو حتى لا يسمح لابنته بالخروج معه. في الحقيقة تربت تلك العائلات النبيلة على عادات غاية في الانغلاق. ولكن فوق الأشجار، في المنفى، لم يمنحوا اهتمامًا كبيرًا لأشياء كثيرة، وبدا كوزيمو لهم شابًّا ماهرًا، يحمل لقبًا، ويعرف كيف يكون نافعًا، ويعيش معهم دون أن يفرض أحد ذلك الأمر عليه، حتى وإن فهموا أن بينه وبين أورسولا علاقة خاصة، ويرونهما يبتعدان كثيرًا بين أشجار الفاكهة بحثًا عن الزهور والفاكهة، فهم يغلقون أعينهم حتى لا يجدوا ما يمكن أن يُقال.

أما الآن، وقد بدأ دون سولبيتشو يوعز إلى دون فيديريكو بالشر، فإنه — أي دون فيديريكو — لم يعد يستطيع أن يتظاهر بعدم المعرفة. فاستدعى كوزيمو ليتحدثا معًا على شجرة الألب الخاصة به، ويجلس بجواره سولبيتشو، طويلًا وأسود.

– أيها البارون، قيل لي إنك تظهر كثيرًا مع ابنتي.

– نعم عظمتك، فهي تعلمني كيف أتحدث لغتكم.

– كم عمرك؟

– لم أكمل بعد التاسعة عشرة.

– ما زلتَ شابًّا، شابًّا صغيرًا جدًّا! إن ابنتي في سن الزواج. لماذا تتجول معها؟

– أورسولا عمرها سبعة عشر عامًا ...

– هل تفكر حقًّا في الاستقرار؟

– في ماذا؟

– يبدو أن ابنتي تعلمك لغة كاتالانيا بطريقة سيئة، أقول لك هل تفكر في أن تختار لنفسك زوجة، وتؤسس منزلًا.

مد كل من كوزيمو وسولبيتشو أيديهما إلى الأمام في حركة تعجب، فلقد بدأ الحديث يتخذ منحنًى، لم يكن هو المراد لدى اليسوعي ولا حتى لدى أخي.

– إن منزلي ... — قال كوزيمو وهو يشير حوله تجاه الفروع الأكثر ارتفاعًا والسحالي — إن منزلي في كل مكان، في كل مكان يمكنني الصعود إليه، في كل مكان متجه إلى أعلى ...

– لا أتحدث عن هذا.

وهز الأمير فيديريكو ألونسو رأسه بالنفي.

– أيها البارون، إذا أردت أن تأتي غرناطة عندما نعود إليها سترى أكثر الإقطاعات ثراء في المنطقة كلها.

ولم يستطيع دون سولبيتشو أن يلتزم الصمت أكثر من ذلك: ولكن فخامتك، هذا الشاب يتبع أفكار فولتار ... لا يجب أن تكون له أية علاقة بابنة عظمتك ...

– آه إنه شاب، ما زال شابًّا، فالأفكار تروح وتجيء. بمجرد أن يصبح لديه منزل ويتزوج سينسى هذا كله، تعال معنا إلى غرناطة، تعال.

– أشكرك جزيل الشكر يا صاحب السعادة، سأفكر في هذا.

وتراجع كوزيمو بانحناءات كثيرة وهو ممسك قبعته المصنوعة من فراء القط ويديرها بيديه.

وعندما رأى أورسولا مرة أخرى كان مهمومًا.

– أتعرفين يا أورسولا، لقد تحدث معي أبوك ... قال لي بعض الأشياء ...

ارتعدت أورسولا: ألا يريدنا أن نتقابل بعد اليوم؟!

– ليس هذا ... إنه يريدني أن آتي معكم غرناطة عندما ينتهي نفيكم.

– آه حقًّا! كم هذا جميل!

– ولكني ... أترين؟ إنني أحبك كثيرًا، ولكنني عشت دائمًا فوق الأشجار، وأريد أن أظل فوقها.

– آه يا كوزيمي، لدينا أشجار جميلة هناك أيضًا.

– نعم، ولكن لأرحل معكم يجب أن أنزل، وأنا إذا نزلت ...

– لا تقلق يا كوزيمي. فنحن منفيون الآن، وربما نظل هنا حياتنا كلها.

ولم يقلق أخي بعد ذلك.

ولكن كانت توقعات أورسولا خاطئة. فبعد فترة وجيزة وصل خطاب إلى دون فيديريكو عليه الأختام الملكية الإسبانية. لقد تم رفع الحظر بسبب تدخلات البابا الكاثوليكي، وأصبح من الممكن للنبلاء المنفيين أن يعودوا إلى منازلهم وممتلكاتهم.

وعلى الفور عمت الحركة فوق أشجار الدلب: سنعود! سنعود! مدريد، إشبيلية.

وانتشر الخبر في المدينة، ووصل أهل أوليفاباسا ومعهم السلالم والحبال. واحتفل الشعب بالمنفيين بمجرد نزولهم، ويجمع لهم حقائبهم.

صاح إلكوندي: ولكن الأمر لم ينتهِ بعد! يجب أن يستمع إلينا من البلاط! وصاحب العرش! ونظرًا إلى أن رفاقه في المنفى في تلك اللحظة لم يُبد أي منهم استعداده للإصغاء إليه، ولأن السيدات كن قلقات على ملابسهن التي لم تعد آخر صيحة، والتي يجب تجديدها، أخذ هو يلقي بالخطب العصماء على شعب أوليفاباسا: والآن سنذهب إلى إسبانيا وسترون! هناك سنصفي حساباتنا! فأنا وهذا الشاب سنطبق العدالة!

وكان يشير إلى كوزيمو، أما كوزيمو فأخذ يشير بالنفي مضطربًا.

نُقل دون فيديريكو على الأذرع ووصل إلى الأرض: هيا أيها الشاب الغريب — صرخ في كوزيمو — هيا أيها الشاب النابه! انزل! تعال معنا إلى غرناطة!

أخذ كوزيمو يشير بالرفض وهو منكمش على نفسه فوق أحد الفروع.

والأمير: كيف لا؟ ستكون مثل ابني!

قال إلكوندي: انتهى النفي، أخيرًا نستطيع أن ننفذ ما تأملناه لمدة طويلة. ماذا تفعل فوق هذه الأشجار أيها البارون؟ لم يعد سبب لذلك!

فرد كوزيمو ذراعيه: لقد صعدت إلى هنا قبلكم أيها السادة، وسأمكث فوقها بعد رحيلكم!

صاح إلكوندي: أتريد الانسحاب؟

أجاب كوزيمو: لا، المقاومة.

وكانت أورسولا، والتي نزلت بين أوائل من نزلوا ومعها أختاها، منهوكة في وضع حقائبهم فوق إحدى العربات، فهرعت تجاه الشجرة.

– إذن سأمكث معك! سأمكث معك، وجرت تجاه السلم! أوقفها أربعة أو خمسة أشخاص، نزعوها من هناك، وأزالوا السلالم من فوق الأشجار.

قال كوزيمو وهو لا يرى أورسولا وهم يجرونها بالقوة لتركب العربة المنطلقة: وداعًا يا أورسولا! كوني سعيدة!

وانفجر نباح احتفالي، كان الكلب الدشهند ماسيمو أُتيمو، والذي كان طول مدة مكوث سيده في أوليفاباسا يبدي استياء شرسًا، وربما غاضبًا من المشاجرات المستمرة بينه وبين قطط الإسبان، الآن يبدو وأنه عاد إلى سعادته. وأخذ يطارد، ولكن كمن يلهو، القطط القليلة الباقية التي ربما نسوها فوق الأشجار، والتي أخذت ترفع فراءها وتزمجر.

ورحل المنفيون، بعضهم على ظهر حصان، وبعضهم الآخر في عربات تجرها الخيول، وبعضهم في مركبات، وأصبح الطريق خاليًا. ومكث أخي وحيدًا على أشجار أوليفاباسا.

ظل فوق الفروع بعض من الريش والشرُط والخيوط التي تحركها الرياح، وقفاز وشمسية بدانتيلا، ومروحة وفردة حذاء طويل بمهماز.

١٩

تميز الفصل الذي عاد فيه البارون من جديد ليظهر في أومبروزا بأنه صيف ذو ليالٍ قمرية، وبأصوات الضفادع وصفير الحسون. بدا أخي فريسة لقلق يشبه قلق الطيور؛ يجري من فرع إلى آخر، يدس أنفه في كل شيء، يحيط به الغموض، وغير حاسم. وعلى الفور انتشرت شائعة؛ أن فتاة ما تدعى كيكينا، من الوادي، هي محبوبته. كانت هذه الفتاة تعيش وحيدة في المنزل مع خالة مصابة بالصمم، ويوجد فرع من فروع شجرة الزيتون يمر بالقرب من نافذتها. وتناقش العاطلون في الميدان حول حقيقة هذا الأمر.

– لقد رأيتهما، هي على حافة النافذة، وهو على الفرع. يحرك هو ذراعيه كالخفاش بينما هي تضحك.

– وفي ساعة معينة يقفز هو!

– ما الذي تقوله؟ وإذا سبق وأقسم أنه لن ينزل من فوق الأشجار طيلة حياته ...

– حسنًا، لقد وضع هو لنفسه القاعدة، ويمكن أن يضع لنفسه أيضًا الاستثناءات ...

– آه، وإذا بدأ بالاستثناءات ...

– ولكن لا. أقول لك؛ إنها هي التي تقفز من النافذة لتصعد على الشجرة!

– وكيف يقومون بذلك؟ لا بد أن الوضع غير مريح بالمرة ...

– أعتقد أنه لم يلمسها قط. نعم، ربما يتودد إليها، أو ربما تكون هي التي تغويه. ولكنه لن ينزل من فوق ...

نعم، لا، هو، هي، حافة النافذة، القفز، الفرع ... لم تنته قط مناقشاتهم.

وأصبح مجرد نظر الحبيبات أو الزوجات إلى أعلى تجاه الأشجار بمثابة كارثة عظمى الآن بالنسبة إلى الخطَّاب والأزواج.

أما النساء فبمجرد أن يتقابلن تبدأ الهمسات والأحاديث ... عمن يتحدثن؟! عنه طبعًا.

سواء أكان لكيكينا وجود أم لا، أصبح أخي يمارس علاقاته الجنسية دون أن ينزل قط من فوق الأشجار. فلقد قابلته في أحد الأيام وهو يجري بين الفروع حاملًا على عنقه مرتبة، بطريقة عادية جدًّا، والتي بها اعتدنا أن نراه حاملًا البنادق والحبال الغليظة، الفئوس والأكياس، وقربة المياه، وقناني الرمال.

واعترفت لي امرأة لطيفة تدعى دوروتيا أنها التقت به، في مبادرة منها، وليس لغرض ما؛ فقط لتكوِّن عنه فكرة.

– وما الفكرة التي كونتها؟

– آه! شعرت بالسعادة ...

وامرأة أخرى تدعى زبيدة، حكت لي أنها حلمت بـ «الرجل المتسلق» (كانت تطلق عليه هذا الاسم) وكان حلمًا مليئًا بالمعلومات الحقيقية والدقيقة إلى حد أنني اعتقدت بأنه شيء عاشته حقًّا. بالتأكيد أنا لا أعرف ما الذي يحدث في تلك القصص، ولكن لا بد أن كوزيمو تمتع بسحر خاص على النساء. فمنذ أن عاش مع الإسبان، اعتاد أن يعتني أكثر بنفسه، ولم يعد يتجول ملتحفًا بالجلد كالدب، بل أصبح يرتدي البنطال، والفراك الأنيق، والقبعة الإنجليزية، ويحلق لحيته ويمشط باروكته. بل أصبح الآن في الإمكان التأكد من طريقة ارتدائه الملابس إذا كان ذاهبًا إلى الصيد، أم أنها مقابلة عاطفية.

إلى حد أن امرأة نبيلة ناضجة إلى حد كبير، من أومبروزا (ما زال بناتها وأحفادها يعيشون، والذين يمكن أن يشعروا بالإهانة، ولكن في ذلك الوقت كانت قصة معروفة) كانت تسافر دائمًا بالعربة، وحيدة، مع الحوذي المسن، وتجلس بالمقصورة، وتجعله يسير بها في ذلك الطريق الرئيسي الذي يعبر الغابة. وفي مكان محدد تقول للحوذي: جوفيتا، إن الغابة تعج بعش الغراب، هيا، اذهب لتجمع لي منه في هذه السلة الكبيرة ثم عد، ثم تعطيه سلة.

وينزل الرجل المسكين، بما يعانيه من روماتيزم، من فوق العربة، ممسكًا بالسلة فوق كتفيه، ويخرج من الطريق، ويتجه نحو أشجار البطارس في الظلال، ثم يأخذ في الدوران وسط أشجار الزان، وهو منحنٍ ينبش أسفل كل ورقة ليعثر على يولتوس أو كمأة. وفي الوقت نفسه تختفي المرأة النبيلة من العربة، وكأنها خطفت نحو السماء، فوق، بين الفروع الكثيفة التي تغطي الطريق. لا أحد يعرف شيئًا آخر، إلا أنه في أكثر من مرة، يحدث أن من يمر من هذا الطريق يرى العربة متوقفة وخالية في الغابة. ثم، وبطريقة غامضة، تعود السيدة النبيلة لتجلس في العربة كما اختفت، وهي تنظر بوهن. ثم يعود جوفيتا ملطخًا بالوحل، ومعه بعض ثمار عش الغراب جمعها في السلة، ويعاودان الرحيل.

وكانت تُحكى كثير من تلك القصص، وخاصة في منزل بعض سيدات المجتمع من جنوة، واللاتي كن يعقدن اجتماعات لرجال ميسوري الحال (كثيرًا ما ترددت أنا أيضًا إلى تلك الاجتماعات، في فترة العزوبية)، وهكذا بدا أن هؤلاء النسوة لا بد وقد ذهبن لزيارة البارون. وفي الواقع يُقال إن هناك شجرة بلوط، ما زالوا يطلقون عليها حتى الآن شجرة طيور الدوري الخمسة، وفقط نحن المسنين نعرف معنى هذا الاسم. من قص هذه الحكاية بائع زبيب يُدعى جيه، بائع غرابًّا وهو رجل له مصداقية. في أحد الأيام المشمسة الجميلة، وبينما هو في طريقه إلى الغابة ليصطاد؛ وصل إلى تلك الشجرة. وماذا رأى؟! كوزيمو، وقد أخذ السيدات الخمس على الفروع، واحدة من جهة، وواحدة من جهة أخرى، وكن يستمتعن بحرارة الشمس، عاريات تمامًا، وفوقهن المظلات الكبيرة مفتوحة كي لا تحرقهن حرارة الشمس، يجلس البارون في وسطهن، وهو يقرأ لهن أبياتًا من الشعر اللاتيني التي لم ينجح الرجل في معرفة إذا كانت لأوفيديو أم للوكريتسيو.

وكانوا يحكون الكثير والكثير، ولم أكن أعرف الحقيقة؛ ففي ذلك الوقت كان هو متحفظًا وخجولًا. أما عندما تقدم به العمر أخذ يحكي ويستفيض، بل ويزيد أكثر على الحد المعقول، فكانت قصصًا لا مكان لها لا على السماء ولا على الأرض، لم يكن حتى هو يفهمها. حتى إنه في تلك الفترة بدأت العادة أنه بمجرد أن تحبل فتاة، ولا يعرفون من الفاعل، أسهل شيء هو إلقاء اللوم عليه. وفي إحدى المرات حكت إحدى الفتيات أنها ذهبت لتجمع الزيتون، وشعرت بأن يدين طويلتين كيدي الشمبانزي ترفعانها إلى أعلى ... وبعد ذلك بفترة أنجبت طفلين توءمين. وامتلأت أومبروزا بأولاد بلا نسب، وكانوا ينسبونهم — سواء أكان ذلك حقيقيًّا أم لا — إلى البارون. والآن كبروا جميعًا، والحق يقال، بعضهم يحمل الملامح نفسها؛ ولكن ربما لا يتعدى الأمر الإيحاء، لأن السيدات الحوامل عندما كن يرين كوزيمو وهو يقفز من فرع إلى فرع يتأثرن بالتأكيد ويسبب لهن هذا اضطرابًا.

أما أنا، وبصفة عامة، فلم أصدق أي شيء فيما يتعلق بتلك القصص المتعلقة بغرامياته. لا أعرف هل عرف نساء كثيرات كما يقولون، ولكن من المؤكد أن النساء اللاتي عرفنه بالفعل فضلن التزام الصمت. ثم إذا استمتع بالفعل بقرب كل هؤلاء النساء، كيف يمكن تفسير الليالي المقمرة التي كان يدور فيها مثل القط، وعلى أشجار التين، والبرقوق والرمان، حول المساكن، في تلك المنطقة المليئة بالبساتين، حيث تنتشر الدائرة الداخلية لمساكن أومبروزا، يدور وهو يشكو، ويتنهد، أو يتثاءب، أو يئن، ومع أنه حاول أن يسيطر على تلك الأصوات إلا أنها كثيرًا ما خرجت من حنجرته وكالعواء أو المواء. واعتاد أهل أومبروزا ذلك، ولم

يعودوا يشعرون بالفزع عندما يقلق صوته نومهم، بل يتقلبون بالكاد في فراشهم وهم يقولون: «إنه البارون يبحث عن أنثى، لنتمنى أن يجدها ويدعنا ننام.» وأحيانًا، كان بعض المسنين الذين يعانون الأرق ويذهبون إلى النافذة بإرادتهم إذا شعروا بأية ضوضاء، ويتطلعون منها لينظروا إلى البستان، فيرون ظلاله بين فروع شجرة التين وهي تنعكس في ضوء القمر، على الأرض.

– إذن، سيادتك، لا تستطيع النوم هذه الليلة. أليس كذلك؟ فيقول كوزيمو: لا، إنني أتقلب منذ فترة وما زلت يقظًا.

وكأنه يتحدث وهو في الفراش ووجهه غارق في الوسادة، ولا ينتظر سوى أن تغمض عيناه، في حين أنه في الحقيقة معلق فوق، كلاعب أكروبات.

– لا أعرف ماذا هناك! ربما الحر، ربما العصبية، ربما الطقس على وشك التغيير، ألا تشعر سيادتك أيضًا بذلك؟

– آه، بلى، بلى ... ولكنني رجل مسن يا سيدي، ولكن سيادتك ما زلت شابًّا، ودماؤك مندفعة في عروقك.

– آه بالفعل، مندفعة، وتندفع.

– حسنًا، لتحاول سيادتك أن تجعلها تدفعك إلى مكان أبعد من هنا، يا سيدي البارون، حيث إنه لا يوجد شيء يمكنه تهدئتك هنا، فلسنا سوى عائلات فقيرة تستيقظ في الفجر، وتريد أن تستمتع بنومها الآن.

لم يكن كوزيمو يجيب، كان يقفز بعيدًا ليذهب إلى بساتين أخرى. فهو يعرف دائمًا كيف يلتزم حدوده، ومن ناحية أخرى عرف أهل أومبروزا كيف يتسامحون دائمًا مع تصرفاته الغريبة تلك؛ أحيانًا لأنه البارون، وأحيانًا أخرى لأنه بارون مختلف عن الآخرين. وفي بعض الأحيان، تجد تلك النغمات الوحشية التي تنبع من صدره نوافذ أخرى أكثر فضولًا تستمع إليها؛ إذ يكفي إشارة إشعال شمعة، وبعض الهمسات لضحكات مخملية، وكلمات نسائية بين الضوء والظلال لا يفهم ماذا تعني، والتي بالتأكيد كانت للسخرية منه أو لمداعبته، أو للتظاهر بدعوته، بل تتحول أحيانًا إلى شيء جاد، حب بالفعل، فرصة لذلك المتروك وحيدًا الذي يقفز بين الفروع وكأنه طائر الحسون. فتتطلع إحدى السفيهات من نافذتها وكأنها تحاول أن ترى ماذا يحدث، وهي ما زالت محتفظة بحرارة الفراش، وصدرها مكشوف، وشعرها منسدل على كتفيها، وابتسامتها البيضاء ترتسم على شفتيها العريضتين المغلقتين، ثم يبدأ بينهما هذا الحوار: ماذا هناك؟ قط؟!

– لا، بل رجل، رجل.

– رجل يموء؟

– آه، بل يتنهد.

– لماذا؟ ماذا ينقصك؟

– ينقصني ما لديك أنت ...

– ماذا؟

– تعالي هنا وأنا أقوله لك ...

ولكنه لم يتعرض قط لمضايقات، أو لعمليات انتقامية من قبل الرجال، وأعتقد أن هذا دليل على أنه لم يكن يُشكل خطرًا حقيقيًّا.

إلا أنه، في مرة واحدة فقط، جُرح، بطريقة غامضة. انتشر الخبر في الصباح، واضطر الطبيب الجراح في أومبروزا أن يتسلق ويصعد إلى شجرة الجوز التي يجلس عليها متأملًا، امتلأت إحدى قدميه بخرطوش بندقية، من ذلك النوع الصغير الذي يُستخدم لصيد طيور الدوري، واضطر الطبيب لانتزاعها واحدة تلو الأخرى بالملقاط. آلمه ذلك كثيرًا، ولكنه سرعان ما تماثل من إصابته. ولا أحد يعرف كيف حدث هذا؟ قال هو إن إحدى الطلقات انطلقت من بندقيته وهو غير منتبه أثناء تسلقه أحد الفروع.

وفي أثناء فترة النقاهة، وهو جالس بلا حراك على شجرة الجوز استعاد دراسته الأكثر صعوبة. وبدأ في ذلك الوقت في كتابة «مشروع تأسيس دولة مثالية فوق الأشجار»، والذي فيه كان يصف «جمهورية عالم الأشجار» المتخيلة، والتي يسكنها أشخاص عادلون. وبدأ المشروع وكأنه بحث حول القوانين والحكومات، ولكن في أثناء كتابة ذلك سيطر على أسلوبه ميله إلى اختراع قصص مركبة، من ثم خرج العمل ككتاب مليء بالمغامرات، مبارزات، وقصص جنسية، والتي وضعها في فصل عن حقوق الزواج. وكان من المقرر أن تجيء خاتمة الكتاب كالتالي: أما مؤلف هذا الكتاب، فبعد أن تأسست الدولة الكاملة على الأشجار، وبعد أن اقتنعت الإنسانية كلها بأن تستقر وتعيش سعيدة، هبط ليعيش على الأرض، والتي هجرها الجميع.

كان ذلك هو المقرر، إلا أنه لم يكمل العمل، أرسل ملخصًا له إلى ديدرو، ووقعه بكل بساطة هكذا: كوزيمو روندو، أحد قراء الموسوعة. وشكره ديدرو بخطاب.

٢٠

لا أستطيع أن أقول الكثير عن تلك الفترة، إذ إنها تتزامن مع رحلتي الأولى إلى أوروبا. الفترة التي فيها أكملت عامي الحادي والعشرين، وأستطيع التمتع بميراث العائلة كما يحلو لي، وذلك لأن أخي عادة يكتفي بالقليل، وأمي كذلك، فالمسكينة قد طعنت في السن كثيرًا في الفترة الأخيرة. وأراد أخي أن يوقع لي على ورقة تمنحني حق الاستفادة من كل الممتلكات في مقابل أن أمنحه مرتبًا شهريًّا، وأن أدفع له الضرائب، وأهتم بتنظيم الأعمال. ولم يكن أمامي سوى الاتجاه إلى أصحاب الأملاك، وأن أختار لنفسي زوجة، وتخيلت بالفعل نفسي وأنا أعيش تلك الحياة المنظمة والسليمة، والتي بالرغم من أعمال الشغب التي ميزت هذا القرن، استطعت بالفعل أن أعيشها.

ولكن، قبل أن أبدأ، سمحت لنفسي بفترة من السفر، وذهبت إلى فرنسا، تمامًا في الفترة التي شهدت فيها الاستقبال الانتصاري الذي خصصته لفولتير، عندما عاد إليها بعد عدة أعوام ليشهد عرض أحد مآسيه. ولكن هذه ليست ذكريات حياتي، التي لا تستحق بالتأكيد أن أكتبها، أود فقط أن أقول كيف أنني طوال هذه الرحلة صُدمت من الشهرة التي انتشرت عن الرجل المتسلق في أومبروزا، وأيضًا في البلاد الغريبة. إلى حد أنني رأيت في أحد كتب التقويم صورة مكتوبًا أسفلها «الرجل الهمجي لأومبروزا (جمهورية جنوة)، يعيش فقط فوق الأشجار». وقدموه وكأنه مغطًّى كله بالزغب، بلحية طويلة وذيل طويل، وهو يأكل جرادة. ووضعوا تلك الصورة في فصل الوحوش بين المخنث وعروس البحر.

وأمام هذا النوع من التخيلات عادة ما أنتبه جيدًا حتى لا أكشف أن ذلك الرجل الوحشي هو أخي، ولكنني أعلنت ذلك بقوة عندما دُعيت في باريس إلى حفل استقبال على شرف فولتير. كان الفيلسوف المسن يجلس على مقعده الوثير يتدلل من حشد من النساء، فرحًا كأنه في يوم العيد، وخبيثًا كأنه القنفذ. عندما عرف أنني من أومبروزا

سألني: هل لديكم، يا أيها الفارس العزيز، يعيش الفيلسوف المشهور الذي يعيش فوق الأشجار كالقردة؟!

أما أنا، فعندما شعرت بالفخر، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أجيبه: إنه أخي يا سيدي، بارون روندو.

دُهش فولتير كثيرًا، ربما يكون السبب أيضًا، أن أخا تلك الظاهرة بدا شخصًا عاديًّا جدًّا وبدأ يطرح عليَّ الأسئلة مثل: ولكن، هل يجلس أخوك فوق ليقترب من السماء؟!

أجبته: إن أخي يؤكد أن من أراد أن يرى الأرض جيدًا، يجب أن يحتفظ بالمسافة الضرورية بينه وبينها.

وأُعجب فولتير جدًّا بردي هذا.

واختتم قائلًا: في الماضي كان خلق الظواهر الحية من عمل «الطبيعة» فقط، أما الآن فقد أصبح لدينا «العقل». ثم غاص الحكيم المسن مرة أخرى في الثرثرة مع صديقاته المخلصات.

ولكنني سرعان ما اضطررت أن أقطع رحلتي، وأن أعود إلى أومبروزا بعد استدعائي لأمر عاجل مؤسف. لقد تطورت أزمة التنفس التي تصيب أمنا فجأة، وأصبحت أكثر خطورة، ولم تعد المسكينة تقوى على مغادرة الفراش.

عندما عبرت المدخل، ورفعت عينَي تجاه فيلتنا كنت موقنًا أنني سأراه. تعلق كوزيمو على فرع مرتفع من فروع شجرة توت، قريبة جدًّا من حافة نافذة حجرة أمنا. ناديته بصوت خافت: كوزيمو! أشار إلي بإشارة تعني — في آن واحد — أن أمنا قد تحسنت قليلًا، ولكن ما زالت حالتها خطيرة، وأن أصعد، ولكن بلا ضوضاء.

تقبع الحجرة بين النور والظلمة، وتنام أمنا في الفراش على كومة من الوسائد تسند لها كتفيها، وتبدو أكثر حجمًا من المعتاد، لم نرها هكذا من قبل. وتجلس حولها بعض خادمات المنزل. لم تصل باتيستا بعد، لأن الكونت زوجها، والذي عليه اصطحابها، تعطل بسبب موسم جني العنب.

وعلى ضوء الغرفة الخافت تبرز النافذة المفتوحة، والتي كانت تؤطِّر كوزيمو وهو واقف ثابتًا على فرع الشجرة.

انحنيت لأقبل يد أمنا، عرفتني على الفور، ووضعت يدها فوق رأسي: آه، ها قد وصلت يا بياجو.

تتحدث بصوت واهن، وذلك عندما لا تضغط الأزمة بشدة على صدرها، ولكنها تتحدث بطلاقة وبوعي تام. ولكن، ما أدهشني هو إحساسي أنها توجه كلامها إليَّ وإلى كوزيمو على قدم المساواة، وكأنه يقف هو أيضًا بجوار فراشها، وكوزيمو يجيبها من فوق الشجرة.

– هل أخذت الدواء منذ فترة طويلة يا كوزيمو؟

– لا يا أمي، أخذته منذ فترة وجيزة، انتظري قليلًا قبل أن تأخذيه مرة أخرى، فلن يفيدك أخذه الآن.

وفي لحظة ما قالت له: كوزيمو، أعطني فص برتقالة، واستغربت أنا الموقف، ولكن زادت دهشتي عندما وجدت أن كوزيمو يمد من النافذة داخل الحجرة شيئًا يشبه خطاف الزوارق وبه أمسك بفص برتقالة من الطبق ووضعه في يد أمنا.

ولاحظت أنها كانت تفضل أن تتوجه إليه هو لتنفيذ هذه الأشياء الصغيرة.

– كوزيمو، أعطني الشال.

فيبحث بالخطاف بين الأشياء الموضوعة على المقعد، ثم يرفع الشال ويعطيه لها: ها هو يا أمي.

– أشكرك يا بني.

تتحدث معه دائمًا وكأنه على بعد خطوة واحدة منها، ولكنني لاحظت أنها لم تطلب منه قط أشياء لا يمكن إنجازها من فوق الشجرة. وفي هذه الحالات تطلب مني، أو من السيدات دائمًا.

وفي الليل لا تستطيع أمنا النوم، فيمكث كوزيمو على الشجرة ليسهر بجوارها، ومعه لمبة صغيرة معلقة على أحد الفروع حتى تستطيع أن تراه أيضًا في الظلام.

وكان الصباح هو أحلك لحظات الأزمة، والعلاج الوحيد هو محاولة التسرية عنها، فيعزف لها كوزيمو على مزمار بعض النغمات، أو يقلد صوت العصافير، أو يصطاد الفراشات ويجعلها تطير أمامها في الغرفة، أو كان يفتح أمامها عناقيد أزهار الوستارية.

وفي أحد الأيام المشمسة، يقف كوزيمو فوق الشجرة ومعه قدح ممتلئ بفقاقيع من الصابون، وينفخ بها داخل الغرفة تجاه فراش المريضة. وعندما رأت أمنا تلك الألوان للانعكاسات التي تطير وتملأ الغرفة قالت: آه، يا لها من لعبة مسلية! حيث إن ألعابنا ونحن صغار لم تكن تحوز إعجابها، واعتادت أن ترى أساليب تسليتنا طفولية جدًّا ولا فائدة لها. ولكن الآن، وربما للمرة الأولى، أسعدتها إحدى ألعابنا. فتصل فقاقيع الصابون إلى وجهها، لتمزقها بأنفاسها وتضحك. ووصلت إحداها إلى فوق شفتيها ولم تتحرك انحنينا بجوارها لنراها، وسقط القدح من بين يدي كوزيمو ... فقد ماتت أمنا.

وكما هي سُنة الحياة، تعقب الأحداث السعيدة فترات الحداد إن عاجلًا أو آجلًا. بعد عام من وفاة أمنا خطبت فتاة من إحدى الأسر النبيلة في الجوار. وقد لزم كثير من المحايلة والتحايل لأستطيع إقناع خطيبتي أن تأتي لتعيش في أومبروزا؛ حيث كانت تشعر بالخوف من أخي. كانت فكرة وجود رجل يتحرك بين الأشجار، ويتنصت على كل ما يحدث خلف النوافذ، ويظهر عندما لا يتوقعه أحد، فكرة تملؤها بالخوف، وذلك أيضًا لأنها لم يسبق لها أن رأت كوزيمو، وتخيلته كالهنود. ولأزيل عنها تلك المخاوف، أقمت مأدبة غداء في الحديقة تحت الأشجار، ودعوت إليها كوزيمو. جلس كوزيمو يأكل فوقنا فوق إحدى أشجار الزان، والأطباق موضوعة فوق رف صغير. ويجب أن أقر أنه على الرغم من عدم اعتياده على تناول الطعام بداخل مجتمع منذ فترة، وعلى الرغم من أنه لم يتدرب على ذلك، تصرف بطريقة جيدة جدًّا. هدأت خطيبتي قليلًا، بعد أن أدركت أنه بغض النظر عن بقائه فوق الأشجار، كان رجلًا مثل الجميع في كل شيء، ولكن بقي بداخلها نوع من الريبة لا يتزعزع.

حتى بعد أن تزوجنا واستقررنا معًا في فيلتنا بأومبروزا، حاولت أن تتهرب بقدر المستطاع ليس فقط من أن تتحدث مع صهرها، ولكن من مجرد رؤيته، مع أنه — المسكين — كان يحضر لها من حين إلى آخر صحبة ورود، أو فراء من الأنواع الفاخرة. وعندما ولد الأبناء وبدءوا يكبرون، أصرت على أن قربهم من عمهم ربما يكون له تأثير سيئ عليهم وعلى تربيتهم. ولم يهدأ لها بال إلا عندما أعادت تجهيز قصرنا القديم في ممتلكاتنا في روندو، والذي هُجر منذ فترة، وأصبحنا نمكث هناك أكثر من مكثنا في أومبروزا، حتى لا يجد الأطفال أمامهم قدوة سيئة.

إلا أن كوزيمو بدأ يشعر بمرور الزمن، وعلامة ذلك هو الدشهند ماسيمو أُتيمو، حيث تقدم به السن ولم تعد لديه الرغبة في أن ينضم إلى مجموعة الصيد وهي تجري خلف الثعالب، ولم يعد يحاول ممارسة الحب بطريقته العبثية مع أنثى الكلاب من فصيلة الدرواس أو الداني. فماسيمو يرقد طوال الوقت، وكأنه لا يرى جدوى من الوقوف حيث إنها مسافة قليلة جدًّا التي تفصل بطنه عن الأرض عندما يقف. يرقد بطوله، من ذيله إلى فمه، عند ساق الشجرة التي يقف عليها صاحبه رافعًا رأسه نحوه وهو يهز ذيله بصعوبة. أثار ذلك الاستياء لدى كوزيمو، فالشعور بمرور الزمن ينقل إليه نوعًا من الشعور بعدم الرضا عن حياته، من الصعود والنزول الدائم بين تلك الأشجار القليلة. ولم يمنحه شيء الرضا التام، لا الصيد، ولا قصص الحب العابرة، ولا حتى الكتب. ولم يعرف، هو أيضًا، ماذا يريد، وكان مأخوذًا بالغضب يتعلق بسرعة شديدة على أكثر القمم رقة وهشاشة، وكأنه يبحث عن أشجار أخرى تنمو على قمة الأشجار ليصعد فوقها أيضًا.

وفي أحد الأيام بدا ماسيمو أُتيمو قلقًا، بدا وكأنه يستنشق رياح الربيع، أخذ يرفع أنفه، ويستنشق، ثم يلقي بنفسه أرضًا مرة أخرى. نهض مرتين أو ثلاثًا، تحرك حول نفسه، يستلقي ثم يرقد من جديد. وفجأة أخذ يجري، أصبح يعدو ببطء الآن، فكان يتوقف كل حين ليلتقط أنفاسه. وأخذ كوزيمو يتبعه من فوق فروعه.

انطلق ماسيمو أُتيمو في طريق الغابة، وبدا أن لديه في ذهنه اتجاهًا محددًا جدًّا، لأنه، مع أنه يتوقف كل فترة ليتبول، أو ليستريح ولسانه يتدلى خارج فمه وهو ينظر إلى صاحبه، سرعان ما يستكمل طريقه بلا تردد. وبهذه الطريقة، يتجه إلى المناطق التي نادرًا ما يتردد كوزيمو عليها، بل التي يكاد لا يعرفها، لأنها في اتجاه منطقة ممنوع الصيد فيها، تابعة للدوق توليمايكو.

كان الدوق توليمايكو مسنًّا واهنًا، وبالتأكيد لم يذهب إلى الصيد منذ فترة طويلة، ولكن في منطقة حظر الصيد التابعة له، لم يكن أي صياد، ممن يخالفون قواعد الصيد، يجرؤ أن يطأ بقدمه فيها، حيث إن حراس الصيد كثيرو العدد ويقظون دائمًا، وكوزيمو الذي لديه معهم بالفعل حسابات أخرى، يفضل أن يبتعد تمامًا. والآن بدأ ماسيمو أُتيمو ومعه كوزيمو يدخلان ويتوغلان في المنطقة الممنوعة للأمير توليمايكو، ولكن لم يكن أي منهما يفكر في إخراج الحيوانات الثمينة من مخابئها. كان الدشهند يهرول وهو يتبع نداءه الغامض، والبارون يسيطر عليه فضول عاجل لاكتشاف إلى أين، بحق السماء، يتجه هذا الكلب!

وهكذا وصل الدشهند إلى منطقة تنتهي فيها الغابة ويبدأ بستان. فيه يجلس أسدان من الحجر على الرخام ويحملان شعارًا. ثم تبدأ حديقة ما، أو متنزه، ملكية خاصة لتوليمايكو، ولكن لا يوجد سوى الأسدين الحجريين، وبعد المنتزه، ذلك المنتزه المتسع المترامي الأطراف المكون من الأعشاب القصيرة الخضراء، والتي لا يُرى نهايتها سوى من بعيد جدًّا، تظهر أشجار البلوط السوداء. وكانت السماء خلف تلك الأشجار ملبدة ببعض السحب، ولا يوجد طائر واحد يغرد.

يمثل ذلك المنتزه، بالنسبة إلى كوزيمو، منظرًا يملؤه بالفزع. فبعد أن عاش دائمًا وسط الأشجار الكثيفة لأومبروزا، واثقًا بأنه يمكنه الوصول إلى أي مكان عبر طرقه الخاصة، يكفي أن يجد البارون أمامه سهلًا مفزعًا، لا يمكن عبوره، خاليًا من الأشجار تحت الشمس ليسيطر عليه شعور بالدوار.

ألقى ماسيمو أُتيمو بنفسه في المنتزه، وأخذ يجري بقوة وكأن شبابه قد عاد إليه. ومن فوق شجرة لسان العصفور، رقد كوزيمو وأخذ يصفر ويدعوه: هنا، عد إلى هنا، عد

يا ماسيمو أُتيمو! إلى أين أنت ذاهب؟ ولكن الكلب لم يطعه، ولم يكن حتى يستدير نحو الصوت؛ أخذ يجري ويجري عبر المنتزه حتى ظهر ذيله من بعيد كأنه فاصلة صغيرة، ثم اختفى.

عقد كوزيمو يديه فوق الشجرة. فقد اعتاد هروب الدشهند وغيابه، ولكن ها هو ماسيمو أُتيمو الآن يختفي في ذلك المنتزه الذي لا يمكنه عبوره، وتوحد هروبه مع ذلك الشعور بالحزن الذي يشعر به منذ وهلة، وملأه بشعور ترقب لا حد له لتوقع ما، توقع شيء ما يظهر من بعيد، من ذلك المنتزه.

وفي حين يجتر تلك الأفكار سمع خطوات أسفل الشجرة، ورأى أحد الحراس وهو يمر، ويداه في جيبه وهو يصفر. وفي الحقيقة بدا عليه الشرود والتشرد، مما جعله غريبًا عن الحراس البشعين في الزي الرسمي، ولكن دلت ملابسه على أنه من صفوف رجال الدوق، واختبأ كوزيمو خلف الجذع. ثم سيطر عليه تفكيره في الكلب فسأل الحارس: آه ... سيادة السيرجنت، هل رأيت كلبًا دشهند مر من هنا؟

رفع الحارس وجهه: آه، أهو أنت، الصياد الذي يطير مع ذلك الكلب الذي يتمسح في الأرض! لا، لم أرَ كلبك! وماذا صدتما إذن هذا الصباح؟

واستطاع كوزيمو أن يتعرف إلى أكثر أعدائه نشاطًا وقال: ما هذا الذي تقوله، لقد هرب مني الكلب، واضطرت أن أتبعه حتى هنا ... إن بندقيتي فارغة!

ضحك الحارس: آه، يمكنك أن تُعدها إذن، وأن تطلق النيران حيثما تريد! فالآن ...

– فالآن، ماذا؟

– فالآن وقد مات الدوق، من ذا الذي سيهتم بمنع الصيد؟

– آه، هكذا إذن، مات الدوق، لم أكن أعرف.

– مات ودُفن منذ ثلاثة أشهر. ويوجد صراع بين الورثة أبناء زوجته الأولى وزوجته الثانية وبين الأرملة الشابة الجديدة.

– كانت له زوجة ثالثة؟

– تزوجها عندما أكمل عامه الثمانين، قبل أن يتوفى بعام، هي فتاة في الحادية والعشرين أو أقل، من هذه الجهات ... بل دعني أقول لك إنه شيء مجنون بالفعل، فهي عروس لم تمكث معه يومًا واحدًا والآن بدأت في زيارة ممتلكاته، ولا يعجبها شيء.

– ماذا؟ لا تعجبها الممتلكات؟!

– لا أحد يعلم، فهي تستقر في قصر، أو في إقطاعية، تصل إلى المكان بكل طاقم العاملين لديها، لأن لديها دائمًا حشدًا من العاملين خلفها، وبعد ثلاثة أيام تجد أن كل

شيء قبيح، وحزين، وترحل من جديد. عندئذ، يظهر ورثة آخرون ويقفزون ليستولوا على المكان، ويطالبوا بحقوقهم، فتقول لهم: «آه، أجل، خذوه!» والآن قد وصلت هنا إلى جناح الصيد، ومن يدري كم ستمكث؟ أعتقد قليلًا.

– وأين إذن جناح الصيد؟

– هناك بعد هذا المنتزه، خلف أشجار البلوط.

– ذهب كلبي إلى هناك الآن ...

– لا بد أنه ذهب بحثًا عن عظام ... اعذرني، أشعر أن سيادتك لا تعطيه ما يكفيه ليأكل. ثم انفجر في الضحك.

لم يجبه كوزيمو، ونظر إلى المنتزه الذي يصعب اجتيازه، وكأنه لا يستطيع التخلص من الفزع الذي يسببه له.

وفي المساء، ظهر الدشهند من جديد كنقطة وسط المنتزه، كان يصعب ملاحظته إلا بعين حادة مثل عيني كوزيمو، وأخذ يتقدم نحوه حتى أصبح مرئيًّا: ماسيمو أُتيمو! تعالَ هنا! أين كنت؟!

توقف الكلب وهو يهز ذيله وينظر إلى صاحبه، وينبح، كأنه يدعوه إلى الذهاب معه، إلى أن يتبعه، ولكنه أدرك من المسافة أنه لا يمكنه اجتيازها، فاستدار إلى الوراء، ثم خطا خطوات مترددة، وإذ به يستدير.

– يا ماسيمو أُتيمو! تعالَ هنا! ماسيمو!

ولكن الدشهند جرى بعيدًا، واختفى وراء المنتزه.

وبعد ذلك بقليل عبر اثنان من حراس الصيد: ما زلت هنا إذن تنتظر الكلب، يا سيادة البارون! لا تقلق فقد رأيته في الجناح بين يدين أمينتين.

– كيف ذلك؟

– نعم، إن المركيزة، أو الأفضل أن نقول الدوقة الأرملة (نحن نقول عنها المركيزة لأنها كانت مركيزة في صباها)، تحتفي بالكلب وكأنه كان لها طوال عمرها. إنه كلب مدلل يا سيدي، اسمح لي. والآن وجد ما يسمح له بأن يعيش في رغد، ولن يتزعزع ... وابتعد الجنديان بابتسامة خبيثة.

ولم يعد ماسيمو أُتيمو بعد ذلك، وكان كوزيمو يحضر كل يوم إلى شجرة الزان لينظر إلى المنتزه وكأنه يستطيع أن يقرأ فيه شيئًا ما يدمره من الداخل منذ زمن، فكرة البعد في ذاتها، وعدم استكمال الأشياء، وذلك الانتظار الذي يمكن أن يستمر إلى ما لانهاية.

٢١

وفي أحد الأيام وكوزيمو ينظر من فوق شجرة الزان، توهج ضوء الشمس، وعبر أحد أشعتها المنتزه فتحول لونها من الأخضر الفاتح إلى الأخضر الزمردي.

ومن هناك، بجوار غابة البلوط السوداء تحركت بعض الأغصان، ومن وسطها قفز حصان. كان حصانًا يحمل فوق متنه فارسًا، يرتدي اللون الأسود، ومعطفًا، لا، بل تنورة. لم يكن إذن فارسًا؛ بل فارسة، تجري مطلقة العنان، وكانت شقراء.

بدأ قلب كوزيمو يخفق بقوة، وتملكه الأمل أن تقترب تلك الفارسة حتى يتمكن من رؤية وجهها جيدًا، وأن يتضح أنه وجه رائع الجمال. ولكن، بالإضافة إلى انتظاره أن تقترب، وأن تكون جميلة، ينتظر شيئًا ثالثًا، حيث يتضافر فرع أمل آخر مع السابقين، أي أن تجيب هذه الفارسة ذات الجمال المضيء عن احتياج بداخله ليتعرف على انطباع معروف لديه، وربما يكون قد نسيه، ذكرى لم يبقَ سوى خيط ضئيل منها، لون يريد أن يظهر على السطح ما تبقى منه، أو أن يجده في شيء ما في الحاضر.

وبهذه المشاعر يتلهف إلى أن تقترب من حدود المنتزه القريبة منه، حيث يقف تمثالا الأسدين، ولكن سرعان ما أصبح ذلك الترقب مؤلمًا، لأنه أدرك أن الفارسة لا تقطع المنتزه في خط مستقيم تجاه الأسدين، ولكن في خط مستعرض، لأنها اختفت سريعًا مرة أخرى في الغابة.

وبالفعل كاد يفقدها من مرمى بصره، عندما استدارت فجأة بحصانها، وأصبحت تقطع المنتزه في اتجاه أفقي آخر، يمكن أن يجعلها تصل بالقرب منه، ولكنها اختفت مرة أخرى في الجهة المقابلة للمنتزه. وبينما كوزيمو يترقب بضجر، اخترق المنتزه، قادمين من الغابة، حصانان بنيا اللون، يمتطيهما فارسان، ولكنه حاول أن يبعد تلك الفكرة بسرعة، وقرر أنهما لا أهمية لهما. يكفي رؤية كيف كانا يتخبطان بعنف هنا وهناك

خلفها، من المؤكد أنهما كانا بلا أهمية، إلا أنه يجب أن يعترف أنهما سببا له الضجر. وها هي الفارسة، وقبل أن تختفي من المنتزه، حتى هذه المرة، استدارت بحصانها، ولكنها استدارت إلى الخلف مبتعدة عن كوزيمو ... ولكن لا، فالآن يدور الحصان حول نفسه، ويقفز هنا وهناك، ويبدو أن تلك الحركة مقصودة لتشتيت الفارسين المتخبطين، واللذان بالفعل ركضا بعيدًا، ولم يدركا أنها تجري في اتجاه مختلف.

والآن أصبح كل شيء يسير لمصلحته؛ فالفارسة تركض في الشمس، وتبدو أكثر جمالًا، وتجيب أكثر عن ظمأ الذكرى لدى كوزيمو، ولكن الشيء الوحيد المقلق ذلك المسار المعوج الذي تسلكه، والذي لم يصعب بسببه توقع نياتها. حتى الفارسان لم يتمكنا من معرفة إلى أين هي ذاهبة، وحاولا أن يتبعا كل حركاتها حتى انتهى بهما الأمر لأن قطعا طرقًا كثيرة بلا فائدة، ولكن كان يبدو دائمًا أنهما يفعلان ذلك بإرادتهما وبإصرار. وها هي الفارسة، في اللحظة التي لم يكن ينتظر فيها كوزيمو شيئًا، تصل إلى المنطقة القريبة منه في المنتزه، وها هي تعبر من بين التمثالين الواقفين للأسدين، وكأنهما يقفان هكذا على شرفها، ثم استدارت تجاه المنتزه، وكل ما في ذلك الاتجاه من المنتزه وهي تشير بإيماءة كأنها وداع، ثم أخذت تقفز إلى الأمام بحصانها، وعبرت أسفل شجرة الزان. والآن استطاع كوزيمو أن يرى وجهها جيدًا، ويعرفها، تلك الجبهة السعيدة بأن تقع فوق تلك العينين، وهاتان العينان السعيدتان لأنهما في ذلك الوجه، وأنفها، وفمها، وذقنها، وعنقها، كل ما بها سعيد بكل شيء آخر. وكان كل هذا يذكره بالصبية التي رآها وهو في الثانية عشرة من عمره فوق الأرجوحة في اليوم الأول من صعوده فوق الأشجار: سوفونيسيا فيولا فيولانتي أونداريفا.

ذلك الاكتشاف، أو لأنه حمل بداخله منذ الوهلة الأولى ذلك الاكتشاف دون الاعتراف به حتى أمام نفسه، أصاب كوزيمو بشيء كالحمَّى. فلقد أراد أن يناديها، حتى ترفع عينيها تجاه شجرة الزان وتراه، لكن لم يخرج شيء من حنجرته سوى صوت طيور المستنقعات، ولم تلتفت هي إلى الوراء.

وها هو الحصان الأبيض يركض في حقل الكستناء وحدواته تطأ الثمار المبعثرة على الأرض مظهرة القشرة الخشبية واللامعة للثمرة.

تقود الفارسة حصانها في اتجاه ثم تغيره إلى آخر، يعتقد كوزيمو عندئذٍ أنها ابتعدت بالفعل، ولن يمكنه الوصول إليها، ثم يراها مرة أخرى، عندها يقفز من شجرة إلى أخرى، وهي تظهر فجأة على مقربة من سيقان الأشجار. تزيد طريقة حركتها تلك نيران الذكرى التي تشتعل في ذهن البارون. أراد أن يرسل إليها نداءه، أو أية إشارة لوجوده، ولكن شفتيه لم تطلقا سوى صفير طائر الحجل الرمادي، ولم تهتم هي بالصوت.

يبدو أن الفارسين اللذين يتبعانها لم يستطيعا أن يفهما نياتها والطريق الذي تسلكه، واستمرا في الذهاب إلى اتجاهات خاطئة مصطدمين بالأشواك، أو يغرقهما وحل المستنقعات، في حين تنطلق هي كالسهم واثقة باتجاهها، ولا شيء يوقفها. بل تعطي نوعًا من التعليمات والحث للفارسين رافعة ذراعها ممسكة بالسياط، أو مقشرة قرن خروب تاركة إياه معلقًا، وكأنها تقول لهم عن الاتجاه. وعلى الفور يلقي الفارسان بأنفسهما في ذلك الاتجاه قفزًا في المنتزهات والشواطئ، فتستدير هي نحو اتجاه آخر، دون أن تنظر إليهما.

«إنها هي، هي!» أخذ كوزيمو يفكر وهو يزداد اشتعالًا بالأمل، يريد أن يصرخ باسمها، ولكن من بين شفتيه لم يخرج سوى صفير طويل وحزين مثل صوت طائر الزقزاق. وبدأ يتضح أن كل ذلك الذهاب والإياب، ومحاولة خداع الفارسين أو اللهو، يدور في خط واحد، والذي مع كونه غير مستقيم ومتعرج إلا أنه لا يستبعد وجود قصد محتمل.

ومخمنًا تلك النية، بالإضافة إلى عدم استطاعته اتباعها، قال كوزيمو لنفسه: «سأذهب إلى مكان ستذهب إليه إذا كانت هي فعلًا. بل لا بد أنها جاءت إلى هنا لتذهب إلى هذا المكان.»

وأخذ يقفز في طرقه الخاصة، وذهب تجاه الحديقة القديمة المهجورة لعائلة أونداريفا.

في ذلك الظل، في ذلك الهواء المعبأ بالروائح، في ذلك المكان حيث الأوراق والأشجار لها لون آخر ومركبة من عناصر أخرى، شعر وكأن الذكريات تحمله إلى الطفولة، حتى إنه كاد ينسى الفارسة، أو إذا لم يكن قد نسيها، قال لنفسه من الممكن ألا تكون هي، وإن ذلك الانتظار الآمل هو ما جعلها تبدو هي بالفعل في نظره.

ولكنه سمع ضوضاء، صوت حدوات الحصان الأبيض على الحصى، فهي تعبر الحديقة، ولكنها لا تجري، وكأن الفارسة أرادت أن تنظر وتتعرف على كل شيء بدقة. اختفى أي وجود للفارسين الغبيين، لا بد وأنهما فقدا آثارها تمامًا.

ورآها، تدور حول الحوض، وحول الكوخ الصغير، وحول الجرات. أخذت تنظر إلى الأشجار التي تضخمت، بجذورها المعلقة في الهواء، وأشجار الماجنوليا التي تحولت إلى غابة. ولكنها لم تكن تراه، وهو يحاول أن ينادي عليها بوشوشة الهدهد، أو بتغريد العُزيزاء، بأصوات كانت تختلط بالتغريد الكثيف لطيور الحديقة.

هبطت من فوق السرج، أخذت تسير على قدميها ممسكة بالحصان خلفها من لجامه. وصلت إلى الفيلا وتركت الحصان، ودخلت، وأخذت تصرخ: أورتنسيا! جايتانو! تاركوينيو! هنا يجب أن يلون بالأبيض، يجب إعادة طلاء المصاريع الخشبية، وتعليق السجف! أريد المائدة هنا، وأريد الكونسول هناك، ضعوا الأرغن، ويجب تغيير مكان كل اللوحات.

عندئذٍ أدرك كوزيمو أن ذلك المنزل الذي بدا بالنسبة إلى نظرته الشاردة مغلقًا ومهجورًا كالعادة، أصبح الآن مفتوحًا ويعج بالأشخاص، خدم ينظفون، ويرتبون، ويدخلون الهواء إلى المنزل، ويضعون الأثاث في مكانه، وينفضون التراب من السجاجيد. إذن فيولا هي التي عادت، فيولا ستقيم مرة أخرى في أومبروزا، تستعيد ملكيتها للفيلا التي رحلت منها وهي طفلة! وأصبحت دقات قلب كوزيمو من الفرحة لا تختلف كثيرًا عن دقات قلبه من الخوف، لأنه بوجودها هكذا تحت ناظريه لا يمكن توقع تصرفاتها بهذه الطريقة، ولأنها متكبرة جدًّا أيضًا، فإن هذا يعني أن يفقدها إلى الأبد، حتى في الذاكرة، ولا يبقى منها حتى ذلك السر المعطر برائحة الأوراق ولون الضوء الذي يتخلل الأخضر، كل هذا يمكن أن يعني أنه ربما يكون مجبرًا على الهروب منها، ومن ثم يهرب أيضًا من ذكراه الأولى عنها وهي طفلة.

وبخفقات قلب كوزيمو المتغيرة رآها تتحرك وسط خدمها، وهي تنقل الأرائك، الآلات الموسيقية، وأثاث الأركان، ثم تعود وتعبر بسرعة في الحديقة لتركب الحصان من جديد، وتعود وتهرع نحو آخرين ينتظرون أوامرها، ثم توجهت بأوامرها إلى عمال البستان، قائلة لهم كيف يجب أن يعيدوا تنظيم الحدائق الصغيرة ويعيدوا زراعتها، وأن ينشروا في طرقات الحديقة الحشائش التي اقتلعتها الأمطار، وأن يعيدوا وضع الكراسي المصنوعة من الخوص، والأرجوحة ... وفيما يخص الأرجوحة فقد أشارت بإيماءات واسعة إلى الفرع الذي كانت معلقة عليه من قبل، والذي يجب أن تعلق عليه مرة أخرى، وكم يجب أن يكون طول أحبالها، واتساع مجراها. وفي أثناء قولها هكذا بالإيماء وصلت نظرتها إلى شجرة الماجنوليا التي ظهر لها عليها كوزيمو في الماضي. وها هي تراه مرة أخرى يقف على الشجرة.

دُهشت، دهشت كثيرًا. بالتأكيد استعادت ثباتها سريعًا وبدت قوية، بطريقتها المعتادة، ولكن رويدًا رويدًا أبدت دهشة كبيرة، وابتسمت عيناها وفمها وسنة تظهر عندما تبتسم منذ صباها.

– أنت!

ثم، باحثة عن نبرة من يتحدث عن شيء عاد، لم تستطع إخفاء اهتمامها الفرح: آه! وهكذا مكثت هناك منذ تلك اللحظة دون أن تنزل؟!

ونجح كوزيمو في تحويل ذلك الصوت الذي أراد أن يخرجه كصريخ طائر الدوري إلى: نعم، إنه أنا، فيولا، هل تتذكرين؟

– دون أن تطأ بقدميك الأرض على الإطلاق؟!

– أبدًا.

أما هي، وكأنها قد منحته الكثير: آه! إذن لقد نجحت. لم يكن الأمر إذن في غاية الصعوبة.

– كنت أنتظر عودتك ...

– رائع. أنتم هناك، أين تذهبون بهذه الستارة! اتركوا كل شيء هنا حتى أراه بنفسي!

ثم عادت لتنظر إليه. كان كوزيمو ذلك اليوم يرتدي ملابس الصيد: خشن الشعر، يرتدي القبعة المصنوعة من فراء القط، ومعه بندقيته.

– تبدو كروبنسون!

سألها على الفور: هل قرأته؟

ليثبت لها أنه على دراية بكل شيء.

كانت فيولا قد استدارت: جايتانو! إمبيليو! الأوراق الجافة! يوجد الكثير من الأوراق الجافة!

ثم قالت له: بعد ساعة في نهاية الحديقة. انتظرني!

وجرت بعيدًا لتكمل أوامرها من فوق ظهر الحصان.

وألقى كوزيمو بنفسه في وسط الأوراق الكثيفة، وتمنى لو توجد أوراق أكثر من ذلك بآلاف المرات، كمية هائلة من الأوراق والفروع والأشواك والنباتات المتسلقة، ونباتات الزينة ليلقي بنفسه بداخلها ويغرق، وبعد أن أنغمس بداخلها تمامًا بدأ يفهم هل هو فرح أو يكاد يُجَن خوفًا.

وفوق الشجرة الضخمة في نهاية الحديقة، وبركبتيه الثابتتين على الفرع ينظر الساعة في ساعة جيبٍ كانت ملكًا لجدنا والد أمنا الجنرال فون كورتفيتس وأخذ يقول لنفسه: لن تأتي.

إلا أن السيدة فيولا وصلت، تمامًا في موعدها، على الحصان. توقفت أسفل الشجرة، وحتى من دون أن تنظر إلى أعلى. لم تكن ترتدي القبعة ولا حتى سترة الفارسة؛ كانت ترتدي قميصًا أبيض مطرزًا على تنورة سوداء، وكأنها ترتدي زي راهبة. صعدت فوق الركاب مدت يدها إليه فوق الفرع؛ ساعدها؛ صعدت على السرج ووصلت إلى الفرع؛ ثم، ومن دون أن تنظر إليه، تسلقت بسرعة، وبحثت عن غصنٍ مريح ثم جلست. قبع كوزيمو تحت قدميها، ولم يستطع أن يبدأ إلا بأن يقول لها: هل عدت؟!

نظرت إليه فيولا بسخرية. ما زالت شقراء مثلما كانت في طفولتها، وقالت: وكيف عرفت ذلك؟

وهو، من دون أن يفهم أنها تمزح: لقد رأيتك في ذلك المنتزه للمنطقة المحرمة ملكية الدوق ...

– إن المنطقة ملكي أنا. تلك المليئة بالخضراوات! أتعرف كل شيء؟ أقصد، عني أنا؟

– لا ... عرفت فقط أنك الآن أرملة.

– بالتأكيد، أنا أرملة.

ثم ضربت بيديها على التنورة السوداء، وهي تفردها، وأخذت تتحدث باسترسال: أنت لا تعرف أي شيء على الإطلاق. فأنت تعيش فوق الأشجار طوال النهار لتزج بأنفك في شئون الآخرين، ثم لا تعرف شيئًا. لقد تزوجت بالعجوز توليمايكو لأن والدَي أجبراني على ذلك، أجبراني. كانا يقولان إنني امرأة طائشة ولا يمكن أن أظل بلا زوج. وقد أصبحت الدوقة تاليمايكو لمدة عام، وكان أكثر عام مللًا في حياتي، حتى وإن لم أمكث مع ذلك المسن سوى أسبوع. لن أطأ بقدمي في أي من قصورهم أو أطلالهم، أو جحورهم البائسة، فلتمتلئ كلها بالثعابين. من الآن فصاعدًا سأمكث هنا، حيث عشت وأنا طفلة، سأمكث هنا كما يحلو لي، مفهوم؟ ثم سأذهب بعيدًا. فأنا أرملة وأستطيع أن أفعل ما يحلو لي، أخيرًا. في الحقيقة، لطالما فعلت ما أريد، حتى توليمايكو تزوجته لأنني أردت أن أتزوجه، ليس حقيقيًّا أنهما أجبراني على ذلك، لقد أراداني أن أتزوج بأي ثمن، عندئذٍ اخترت أنا أكثر العرسان تدهورًا من الناحية الصحية من بين المتقدمين «هكذا أُصبح أرملة في أقرب وقت»، هذا ما قلته لنفسي، وهذا ما حدث بالفعل.

جلس كوزيمو جالسًا مدهوشًا أسفل ذلك الوابل من الأخبار والتأكيدات الحاسمة، وفيولا أبعد من ذي قبل، متحررة، أرملة، ودوقة. تنتمي إلى عالم لا يمكنه الوصول إليه، وكل ما استطاع قوله هو: ومع من كنت متحررة؟!

وهي: إذن، أنت تغار، اسمع، لن أسمح لك أبدًا أن تكون غيورًا. وبالفعل شعر كوزيمو باندفاعة غيرة تحثه على الشجار، ثم فكر على الفور «كيف؟ غيور؟ ولماذا يجب أن أعترف أنني أغار عليها؟ ولماذا تقول «لن أسمح لك قط»؟ إنها مثل من يفكر أننا ...»

عندئذٍ، وقد احمر وجهه وارتبك، أراد أن يقول لها كل هذا، وأن يسألها، وأن يسمع، ولكن سارعت هي وسألته بجفاء: قل لي إذن أنت؛ ماذا فعلت؟

أخذ هو يقول: آه، فعلت أشياء كثيرة؛ لقد خرجت للصيد، حتى الخنازير البرية، ولكن على الأخص، الثعالب والأرانب والنموس، وبالطبع كنت أصطاد أيضًا السمان والشحرور.

ثم القراصنة. نزل القراصنة الأتراك الشاطئ، وحدثت معركة كبيرة، مات فيها عمي. وقرأت كتبًا كثيرة، لي ولصديقي، قاطع طريق الذي شنقوه. ولدي كل موسوعة ديدرو، بل كتبت له وأرسل إليَّ بالرد من باريس، وقمت بأعمال كثيرة، شذبت الأشجار، وأنقذت الغابة من حريق …

– … وستحبني إلى الأبد، حبًّا مطلقًا، فوق كل شيء، وستعرف كيف تفعل أي شيء لأجلي؟

وأمام اندفاعها ذلك قال كوزيمو مدهوشًا: أجل …

– فلقد عشت فوق الأشجار فقط من أجلي، لتتعلم كيف تحبني …

– أجل … أجل …

– قبلني.

دفعها نحو الجذع ثم قبلها.

وعندما رفع وجهه أدرك جمالها، وشعر وكأنه يراه أول مرة: يا إلهي كم أنت جميلة!

– لأجلك أنت! وبدأت تفك أزرار قميصها الأبيض، كان صدرها يافعًا وردي اللون، وما كاد كوزيمو يلمسها حتى هربت بعيدًا بين الفروع، حتى بدا وكأنها تطير، وأخذ يجري خلفها وتنورتها تتطاير أمام وجهه.

– ولكن إلى أين ستأخذني؟

قالت له فيولا، وكأنه هو الذي يقودها، وليست هي التي تجذبه خلفها.

– من هنا …

قال كوزيمو وتولى هو القيادة، ومع كل خطوة على فرع يمسك بيدها أو بخصرها ليساعدها على العبور.

– من هنا …

وكانا يسيران على بعض أشجار الزيتون تمتد على مطلع جبلي وعر، ومن فوق قمة كل شجرة منها يظهر البحر المقسم بين الأوراق والفروع وكأنه مجزأ، وفجأة ظهر أمامهما هادئًا ولامعًا ومتسعًا كالسماء. وكأن الأفق مفتوح أمامهما على اتساعه وارتفاعه، والبحر الأزرق ساكن ومتسع ولا شيء يشوبه، بحيث يمكن إحصاء الثنيات التي بدأت الأمواج لتوها في تكوينها. ولم تكن سوى دوامات مائية خفيفة جدًّا، وكأنها الأنفاس تجري لتصل إلى حصى الشاطئ.

وبعيونهما التي غشَّاها الضوء تقريبًا، تقدم كوزيمو وفيولا في الظلال الخضراء القاتمة لأوراق الشجر: من هنا …

وداخل شجرة جوز، وفي جزء من الجذع، كهف مجوف نتاج جرح عمل قديم بالفئوس، حيث يوجد أحد مخابئ كوزيمو. أرض الكهف يغطيها جلد خنزير بري، وحوله توجد قنينة، بعض الأسلحة، وإناء. ألقت فيولا بنفسها فوق الجلد: هل أحضرت هنا نساء أخريات؟

تردد كوزيمو ...

وفيولا: إذا لم تكن قد فعلت ذلك، فأنت لست رجلًا!

– بلى ... بعضهن ...

عندئذٍ انهالت على وجهه بصفعة قوية: أهكذا إذن كنت تنتظرني؟

وضع كوزيمو يده على وجنته المحمرة ولم يعرف ماذا يقول، ولكن بدا عليها وأنها عادت إلى استعدادها: وكيف كن، قل لي، كيف كن؟!

– لسن مثلك يا فيولا، لسن مثلك ...

– وماذا تعرف إذن عني، قل لي، ماذا تعرف؟!

وبدأت تتدلل، ولم يكف كوزيمو عن الشعور بالدهشة أمام تقلباتها تلك المفاجئة. اقترب منها. وكانت فيولا كالذهب والعسل.

– قولي ...

– قل ...

وعرف كل منهما الآخر. عرفها هو، وعرف فيها نفسه لأنه في الحقيقة لم يعرف نفسه من قبل، وعرفته هي وعرفت فيه نفسها، لأنها على الرغم من معرفتها الواثقة بنفسها دائمًا، إلا أنها لم تعرف نفسها قط بهذا العمق.

٢٢

كانت أول زيارة لهما هي لتلك الشجرة، والتي على قشرتها حفر عميق، قديم جدًّا وغير واضح المعالم، بحيث لم يعد يبدو كعمل إنساني، وكان مكتوبًا بحروف كبيرة: كوزيمو وفيولا، ثم — في أسفل — ماسيمو أُتيمو.

– ما هذا المكتوب فوق؟ من كتبه؟ متى؟

– أنا. آنذاك.

تأثرت فيولا.

– وما معنى هذا؟ ثم أشارت إلى كلمتي: ماسيمو أُتيمو.

– إنه كلبي، أقصد كلبك، الدشهند.

– توركاريه؟

– ماسيمو أُتيمو، أنا أطلقت عليه هذا الاسم.

– توركاريه! كم بكيت عندما أدركت بعد رحيلي أننا لم نأخذه معنا ... آه، لم يكن يهمني أنني لن أراك ثانية، ولكنني شعرت بالحزن الشديد لفقدان الدشهند!

– إذا لم يكن هو موجودًا لما عثرتُ عليك! إنه هو الذي اشتم في الرياح وجودك، ولم يرتح إلا عندما انطلق للبحث عنك.

– لقد عرفته على الفور، بمجرد أن رأيته يقترب من الجناح، مقطوع الأنفاس ... قال الآخرون: «ومن أين أتى هذا الشيء؟» أما أنا فقد انحنيت لأنظر إليه، اللون، والبقع، وقلت: «ولكن هذا توركاريه! الدشهند، الكلب الذي امتلكته وأنا صغيرة في أومبروزا!»

ضحك كوزيمو، أما هي فقرصت له أنفه فجأة: ماسيمو أُتيمو ... يا له من اسم قبيح! من أين تأتي بتلك الأسماء القبيحة؟ وعلى الفور أصبح وجه كوزيمو قاتم اللون.

فيما يخص ماسيمو أُتيمو لم يعد شيء يعكر صفو سعادته، فقد نعم أخيرًا قلبه المسن لكلب، انقسم في حب صاحبين، بالسلام، وذلك بعد أن أنهكه التعب أيامًا وليالي ليجذب المركيزة تجاه حدود المنطقة المحرمة، تجاه شجرة الزان حيث يقف كوزيمو. كان يجذبها من ردائها، أو يهرب منها لإحضار شيء ما ثم يتجه إلى المنتزه لتتبعه، وهي: ولكن ماذا تريد؟! إلى أين تجذبني؟ توركاريه! توقف! ولكن كيف أصبحت مشاغبًا هكذا! ولكن مجرد رؤية الدشهند مرة أخرى حركت في ذاكرتها ذكريات الطفولة والحنين إلى أومبروزا. وسرعان ما أعدَّت للانتقال من الجناح الدوقي لتعود إلى الفيلا القديمة المليئة بالنباتات الغريبة.

عادت فيولا، وهكذا بدأت أحلى الفصول في حياة كوزيمو، وفي حياتها هي أيضًا. تجوب الحقول بجوادها الأبيض، وبمجرد أن ترى البارون بين الأغصان والسماء تنهض من فوق السرج وتتسلق سيقان الأشجار وفروعها، وسرعان ما غدت خبيرة هي أيضًا بها مثله، وتلحق به في كل مكان.

– آه يا فيولا، لم أعد أعرف أي شيء، أشعر أنني أريد التعلق، لا أعرف أين …

– بي أنا.

كانت فيولا تقول له هذا بصوت منخفض، فيجن جنونه.

كان الحب بالنسبة إليها ممارسة بطولية: تختلط فيها المتعة باختبارات في الشجاعة والكرم والإخلاص والتوتر لكل ما هو متعلق بالقدرات النفسية. وعالمهما هو الأشجار الأكثر تعقيدًا واعوجاجًا وصعوبة.

– هناك!

تصيح وهي تشير إلى تشعب مرتفع للفروع، فينطلقان على الفور للوصول إليه، وتبدأ بينهما مسابقة أكروباتية. تنتهي بالعناق مرة أخرى. يعبران عن حبهما وهما معلقان في الفضاء، وهما يتأرجحان أو يتعلقان فوق الفروع، تلقي بنفسها فوقه وكأنها تطير.

وواجه عناد الحب لدى فيولا ما لدى كوزيمو، وأحيانًا يصطدمان. ينفر كوزيمو من التأجيلات ومن البطء، والسلوك المهذب: ولا يعجبه شيء سوى الحب الطبيعي. وما زالت الفضائل الجمهورية في الأفق. كانت فترة تمهيد لأزمنة قاسية وماجنة في آن واحد. كوزيمو حبيب لا يشبع أبدًا، كان رواقيًّا، زاهدًا، صارمًا. دائم البحث عن السعادة في الحب، إلا أنه مع ذلك عدو لدود للشهوة الحسية. ويصل به الأمر، أحيانًا، إلى أن يتوجس ريبة من القبلة والمداعبة، من الإغواء الشفاهي، ومن كل شيء يمكن أن يخنق أو يُطالب أن يحل

محل الطبيعة. جعلته فيولا يكتشف ملء تلك الطبيعة. ومعها لم يشعر قط بالحزن بعد ممارسة الحب، والذي تحدث عنه اللاهوتيون، بل إنه كتب عن هذا الموضوع خطابًا فلسفيًّا إلى روسو، والذي ربما لم يجبه لما شعر به من الاضطراب.

ولكن فيولا أيضًا امرأة رفيعة المستوى، ذات نزوات، مدللة، والكاثوليكية تجري في دمها وروحها. يملأ حب كوزيمو كل حواسها، ولكنه لا يرضي جميع أهوائها. ولذلك تنتابها أحيانًا مشاعر الشقاق والندم. ولكنها مشاعر لا تدوم طويلًا، نظرًا لما كانت عليه حياتهما وعالمهما من تنوع كبير.

عندما يشعران بالتعب يبحثان عن ملاجئ بعيدة عن الأعين فوق الأشجار ذات الأغصان الكثيفة: مضاجع تحيط بجسديهما وكأنهما داخل ورقة ملفوفة، أو أروقة معلقة بستائر تطير في الهواء، أو بداخل مخادع من الريش. ولتحقيق هذه التجهيزات ظهرت عبقرية السيدة فيولا، فحيثما وُجدت المركيزة لديها الموهبة لإبداع الراحة والرفاهية حولها، وأنواع من وسائل الراحة المركبة؛ مركبة عند رؤيتها، ولكنها استطاعت الحصول عليها بسهولة إعجازية، لأن أي شيء تريده كان يجب أن تراه يُنفذ بأي ثمن.

وفوق مخادعهما تلك الطائرة تقف طيور أبي الحناء لتغرد. ومن بين الستائر تدخل أزواج فراشات الأميرال وهي تتبعهما. وفي أيام الصيف في الظهيرة، وعندما يخلد الحبيبان إلى النوم متجاورين، يدخل سنجاب باحثًا عن شيء يقضمه، ويداعب وجهيهما بذيله الناعم أو يقرض إبهام إحدى أقدامهما. وعندئذٍ يغلقان الخيام بحرص أكثر، ولكن أخذت عائلة من الفئران النوامة تقرض سقف الرواق حتى سقط فوقهما.

وكانت الفترة التي يكتشف فيها كل منهما الآخر، ويحكي كل منهما حياته للآخر، ويسأل كل منهما الآخر: وكنت تشعر أنك وحيد؟

– كان ينقصني وجودك أنت.

– ولكنك كنت وحيدًا بالنسبة إلى العالم!

– لا، لماذا؟ كان لدي دائمًا ما أفعله مع الآخرين، لقد جمعت الفاكهة، وشذبت الأشجار، ودرست الفلسفة مع الأب الراهب، وحاربت القراصنة. هذا لا يحدث للجميع!

– لك أنت فقط، ولهذا أحبك.

ولكن البارون لم يفهم جيدًا ما تقبله فيولا في شخصيته وما ترفضه. وأحيانًا يكفي شيء تافه، كلمة أو إشارة بسيطة لإثارة غضب المركيزة.

على سبيل المثال، يقول: مع جان البروجي قرأت روايات، ومع الفارس نفذت مشروعات مياه …

– ومعي أنا؟

– معك أستمتع بالحب. مثل تشذيب الأشجار، الفاكهة ...

عندئذٍ تلتزم هي الصمت، وتسكن. فيدرك كوزيمو أن غضبها قد استشاط، وتتحول عيناها إلى قطعتي ثلج.

– ماذا، ماذا حدث يا فيولا؟ ماذا قلت؟!

تصبح بعيدة، وكأنها لا تراه ولا تسمعه، بعيدة عنه مئات الأميال، ووجهها كالرخام.

– ولكن لا، فيولا، ماذا حدث؟ لماذا؟ اسمعي ...

تنهض فيولا بخفة، من دون مساعدة أحد، ثم تبدأ في النزول من فوق الشجرة.

دون أن يُدرك كوزيمو بعدُ ما هو خطؤه، أو تتسنى له الفرصة ليفكر في ذلك، أو ربما كان يفضل عدم التفكير البتة، وعدم الفهم حتى يستطيع الإعلان عن براءته بطريقة أفضل: ولكن لا، لم تفهميني، فيولا، اسمعي ... ويتبعها حتى أكثر المناطق انخفاضًا: فيولا، لا ترحلي، ليس بهذه الطريقة، فيولا ...

والآن هي تتحدث، ولكن مع حصانها، الذي قد وصلت إليه وحلت قيوده، وصعدت فوقه السرج وابتعدت. ويبدأ كوزيمو في الشعور باليأس، ويقفز من شجرة إلى أخرى: لا، فيولا، قولي لي، فيولا!

وتبتعد هي بعيدًا. وهو يتبعها من فوق الأغصان: أتوسل إليك يا فيولا، أنا أحبك! ولكنها لم تعد تراه. يلقي بنفسه على الفروع الهشة، وهو يقفز قفزات خطيرة: فيولا! فيولا!

وعندما يصبح واثقًا أنه قد فقدها، ولا يستطيع السيطرة على نحيبه، إذ بها تمر مرة أخرى وهي تركض، من دون أن ترفع نظرها: انظري! انظري يا فيولا ماذا أفعل! ثم يبدأ في نطح جذع الشجرة بجبهته العارية (والتي كانت في الحقيقة، قاسية جدًّا) ولكنها لا تنظر حتى إليه. فقد ابتعدت بالفعل.

ينتظر كوزيمو عودتها وهو يتلوى بين الأشجار: فيولا! أشعر باليأس! ويلقي بنفسه في الهواء ورأسه إلى أسفل، ممسكًا بقدميه في أحد الفروع، ويكيل اللكمات لرأسه ووجهه بقبضته، أو يبدأ في تكسير الفروع بغضب مدمر، ويتحول فرع من فروع شجرة الدردار المليء بالأغصان إلى فرع عار في ثوان قليلة، بل ويتجرد تمامًا من أوراقه وكأن البرد قد أصابه.

إلا أنه لم يهدد قط بالانتحار، بل لم يهدد قط بأي شيء، فلم يلجأ إلى الابتزاز العاطفي قط. يفعل ما كان يشعر بأنه يريد أن يفعله، وبينما ينفذه بالفعل، يعلن عنه، وليس قبل ذلك. وعند لحظة معينة، غير متوقعة، تتخلص فيولا من الغضب فجأة كما انتابها.

ومن بين كل تصرفات كوزيمو المجنونة، والتي بدت وكأنها لم تمسها، يكفي تصرف فجائي ليشعلها بالرحمة والحب: لا يا كوزيمو يا حبيبي! انتظرني! وتقفز فوق السرج، وتهرع لتتعلق بأحد الفروع، حيث ذراعاه مدلاتان وجاهزتان لالتقاطها. ويبدأ الحب يشتعل بينهما من جديد بسرعة مساوية لسرعة خلافهما. وكأن شيئًا لم يحدث، ولكن لم يكن كوزيمو يفهم شيئًا.

– لماذا تعذبينني؟

– لأنني أحبك.

والآن يبدأ هو في الغضب: لا، إنك لا تحبينني! من يحب يريد السعادة وليس الألم.

– من يحب يريد الحب فقط، حتى وإن كان الألم ثمنه.

– إذن أنت تؤلمينني عن عمد.

– نعم، لأرى إذا كنت حقًّا تحبني.

وكانت فلسفة البارون ترفض الذهاب إلى أبعد من ذلك.

– الألم حالة سلبية تصيب الروح.

– الحب هو كل شيء.

– الألم شيء يجب هزيمته دائمًا.

– الحب لا يرفض أي شيء.

– هناك أشياء لن أقبلها قط.

– لا، لا بد أن تقبلها، لأنك تحبني وتتألم.

وهكذا، وكما اتسمت حالات اليأس لدى كوزيمو بالصخب، هكذا يتفجر الفرح الغامر لديه بصخب أيضًا. وأحيانًا تصل سعادته إلى الحد الذي فيه يشعر بضرورة الانفصال عن حبيبته ليذهب ويقفز ويصرخ معلنًا روعة حبيبته.

– أنا أحب أكثر نساء العالم جميعًا روعة.[١]

[١] كتب كالفينو تلك العبارات بأكثر من لغة متداخلة: Yo quiero the most wonderful puellman de todo el mundo!.

وكان الذين يجلسون على مصاطب أومبروزا من العاطلين والبحارة المسنين، اعتادوا بالفعل على مرات ظهوره السريعة تلك. وها هو يظهر وهو متقدم نحوهم قافزًا عبر أشجار البلوط معلنًا:

سأذهب لأبحث عن سعادتي،
على جزيرة جامايكا،
من المساء حتى الصباح.[٢]

أو يقول:

يوجد مكان تنبت فيه الحشائش كل ساعات النهار،
خذني بعيدًا، خذني بعيدًا، إنني هنا أموت.[٣]

ثم يختفي.

وكانت دراسته للغات الكلاسيكية والحديثة، مع أنه لم يتعمق فيها، تسمح له بأن يلقي بنفسه في ذلك الإعلان الصاخب عن مشاعره. وكلما اهتزت روحه من الانفعالات القوية ازدادت لغته غموضًا. ويُذكر أنه في إحدى المرات، وعندما كان سكان أومبروزا يحتفلون بعيد قديس البلدة، وكانوا مجتمعين في الميدان، حيث وضعوا شجرة العطايا،[٤] والزينة والأعلام.

ظهر البارون على قمة شجرة دلب وبإحدى تلك القفزات التي لا تستطيعها سوى خفته الأكروباتية قفز على شجرة العطايا، وصعد إلى قمتها وصاح:

هنا عاشت فينوس أيامها الأخيرة.

ثم ترك نفسه ليتزحلق إلى أسفل على العامود المغطى بالصابون واللزج حتى كاد يصل إلى الأرض، إلا أنه توقف، وصعد بسرعة مرة أخرى إلى القمة، ثم نزع من وسط الأشياء الموضوعة قطعة جبن وردية اللون ومستديرة الشكل وبقفزة أخرى من قفزاته طار وعاد إلى شجرة الدلب، واختفى تاركًا وراءه أهل أومبروزا في حالة ذهول.

---

[٢] Vo cecrcando il mio bon, En la isla de Jamaica — Du soir jusque matin — Zu dir, zur .dir, gunàka

[٣] .Il y a un pré where the grass grows to de oro — Take me away, take me away, che io

[٤] عامود لزج ومغطًّى بالصابون يتسلقه المتطوعون ليستطيعوا الحصول على المأكولات والأشياء الموضوعة فوق قمته.

ولا شيء يمكنه إسعاد المركيزة أكثر من تلك التدفقات في المشاعر، وتدفعها بالتالي لتبادلها معه بإثباتات حب عنيفة أيضًا. ويعرف أهل أومبروزا عندما يشاهدونها وهي تقفز بحصانها من دون أن تمسك بلجامه، ووجهها مغمور تقريبًا في العرف الأبيض للحصان، أنها تهرع في طريقها للقاء البارون. ففي طريقة تريضها للحصان تعبر عن قوة حبها، ولم يكن كوزيمو يستطيع اللحاق بها؛ وكان شغفها بالفروسية، مع إعجابه الشديد به، بالنسبة إليه السبب الخفي للغيرة والحقد، لأنه كان يرى فيولا وهي تسيطر على عالم أكثر اتساعًا من عالمه، ويُدرك أنه لن يستطيع أن يستحوذ عليها لنفسه فقط، وأن يقيدها في حدود مملكته. أما المركيزة، فمن جهتها، ربما كانت تعاني أنها لا تستطيع أن تكون حبيبة وفارسة في آن واحد؛ يجتاحها أحيانًا احتياج غير محدد حتمية أن يمتطي حبها هي وكوزيمو صهوة جواد، ولم يكفها الجري فوق الأشجار، فهي تود لو استطاعت الجري معه ركضًا فوق السرج على جوادها.

في الواقع أصبح جوادها بسبب الجري على تلك الأراضي الصاعدة والمنحدرات، متسلقًا كالجدي، تدفعه فيولا إلى الوثوب أمام بعض الأشجار، على سبيل المثال شجرة الزيتون العجوز بجذعها المائل. ويصل الحصان أحيانًا إلى الغصن الأول من الفروع، واعتادت أن تربطه، ليس فوق الأرض، ولكن فوق شجرة الزيتون. تترجل من فوقه وتتركه هناك ينتزع الأوراق والأغصان.

وهكذا، عندما يرفع أحد الثرثارين عينيه، في أثناء عبوره من حقل الزيتون، ويرى البارون والمركيزة فوق الشجر متعانقين، يذهب ليقص هذا ويضيف: والحصان الأبيض بدوره فوق أحد الفروع!

عندئذٍ يظن الناس أنه يحكي قصصًا خيالية، ولا يصدقه أحد. ولذلك ظل سر الحبيبين محفوظًا.

٢٣

ما حكيته الآن يبرهن كيف أن أهل أومبروزا، مع أنهم كانوا يهتمون بالثرثرة حول حياة أخي الصاخبة السابقة، إلا أنهم الآن، وأمام ذلك الحب الذي يتفجر، إذا أمكن القول، فوق رءوسهم، يلتزمون بنوع من التحفظ المحترم، وكأنهم أمام شيء أكبر منهم جميعًا. ولا يعني هذا أن سلوك المركيزة لم يكن موضع توبيخ؛ ولكن التوبيخ يوجه عادة إلى تصرفاتها الخارجية، فعلى سبيل المثال عندما تركض ممسكة برقبة الحصان (من يدري أين هي ذاهبة في عجالة بهذه الطريقة؟ كانوا يقولون هذا فيما بينهم، مع أنهم يعرفون جيدًا أنها ذاهبة للقاء كوزيمو) أو ذلك الأثاث الذي تضعه فوق الأشجار. كان هناك بالفعل اتجاه إلى اعتبار كل شيء موضة جديدة للنبلاء، شيئًا من بين الأشياء الغريبة الكثيرة التي يقومون بها (الجميع فوق الأشجار الآن: نساء ورجال. تُرى ماذا سيكون لديهم بعد ذلك ليبدعوه؟) على كل حال، ربما حدث هذا لاقترابنا من فترات أكثر تسامحًا، أو ربما يجدر أن نقول أكثر نفاقًا.

وعلى شجر البلوط في الميدان بدأ البارون يظهر لفترات طويلة، وبدت هذه علامة على رحيلها. لأن فيولا أحيانًا تتغيب لشهور، وذلك لمتابعة أملاكها المبعثرة في أنحاء أوروبا، ولكن رحيلها هذا غالبًا ما يكون مرتبطًا بفترات تتعرض فيها العلاقة بينهما لأزمة، حيث تشعر المركيزة بالإهانة من كوزيمو لأنه لم يفهم ما أرادت أن تشرحه له عن الحب. ولا يعني هذا أن فيولا قد رحلت غاضبة منه؛ فهما ينجحان دائمًا في التصالح قبل رحيلها، ولكن يبقى بداخله دائمًا شك أنها قررت القيام بتلك الرحلة لأنها تعبت منه، أو لأنه لا يمكنه الاحتفاظ بها، وربما تحاول الانفصال عنه، وربما تدفعها فرصة السفر أو التوقف للتفكير إلى اتخاذ قرار عدم العودة.

وهكذا عاش أخي في قلق دائم. فمن جهة يحاول استعادة حياته المعتادة قبل أن يقابلها، والعودة مرة أخرى إلى رحلات الصيد أو صيد الأسماك، أو أن يتابع أعمال الزراعة، أو دراساته، أو يستأنف قصصه الخيالية في الميدان، وكأنه لم يفعل شيئًا آخر في حياته (فهو ما زال بداخله ذلك الشاب العنيد والمليء بالكبرياء والذي لا يريد الاعتراف بأنه يمكن للآخرين أن يؤثروا فيه)، ويسعد بكل ما منحه له هذا الحب من حيوية وفخر، ولكن في الوقت نفسه يدرك — من ناحية أخرى — أن كثيرًا من الأشياء لم يعد لها الأهمية نفسها، وأنه بدون فيولا لا يستطيع أن يشعر بمذاق الحياة، وأن جميع أفكاره تهرع دائمًا نحوها. وكلما حاول، بعيدًا عن زوبعة وجود فيولا، استعادة السيطرة على الانفعالات والمتع في تدبير حكيم للنفس، ازداد شعوره بالفراغ الذي تركته، أو بحمى ترقب عودتها. أصبح حبه لها تمامًا كما أرادته فيولا، وليس كما يدعي هو، فالمرأة دائمًا هي الغالبة، حتى وإن ابتعدت، وكوزيمو — رغمًا عنه — يستمتع بذلك.

وفجأة تعود المركيزة، ويبدأ موسم الحب من جديد فوق الأشجار، ولكن يبدأ معه موسم الغيرة أيضًا. أين كانت فيولا؟ ماذا فعلت؟ يشعر كوزيمو باللهفة إلى معرفة هذا كله، ولكنه في الوقت نفسه يخاف من الطريقة التي تجيب بها عن تساؤلاته، فهي تجيب عن كل شيء بالتلميحات، وفي كل تلميحة تجد الطريقة لتدفع كوزيمو إلى الشك، وهو يفهم أنها تفعل ذلك لتعذبه، أو أن كل شيء يمكن أن يكون حقيقيًّا بالفعل، وفي هذه الحالة من الشك يخفي أحيانًا غيرته، وأحيانًا أخرى يترك شكوكه تنفجر بعنف، وفيولا تجيب دائمًا على ردود أفعاله بطرائق مختلفة وغير متوقعة: أحيانًا تبدو وكأنها مرتبطة به أكثر من ذي قبل، وأحيانًا أخرى لا ينجح في إشعال حبها من جديد.

ولكن كيف تعيش المركيزة بالفعل أثناء رحلاتها؟ لم نتمكن ونحن هنا في أومبروزا من معرفة ذلك نظرًا إلى أننا بعيدون عن المدن الكبيرة وعن ثرثرتها. ولكن في تلك الفترة قمت أنا برحلتي الثانية إلى باريس لإنجاز بعض العقود (لتصدير الليمون، حيث بدأ كثير من النبلاء ممارسة التجارة، وكنت أنا من أوائل من اتجهوا إلى ذلك).

وفي إحدى الأمسيات، وفي أحد الصالونات الباريسية الفاخرة قابلت السيدة فيولا. تتحلى بتسريحة شعر غاية في التأنق، وترتدي ثوبًا غاية في الجمال، وتعرفت إليها على الفور، بل عرفتها بمجرد أن رأيتها، لأنها امرأة لا يمكن أن يخطأ أحد في معرفتها. صافحتني بلا اهتمام، ولكنها سرعان ما وجدت فرصة للاختلاء بي ولأن تسألني، ولكن من دون أن تنتظر الإجابة بين سؤال وآخر: هل لديك أخبار عن أخيك؟ هل ستعود سريعًا

إلى أومبروزا؟ خذ، أعطه هذا كذكرى مني ... ثم أخرجت من صدرها منديلًا من الحرير وضعته بسرعة في يدي. ثم انصرفت على الفور لتلحق بركاب المعجبين الذي يتبعها.

سألني صديق من باريس بصوت منخفض: هل تعرف المركيزة؟

أجبته: معرفة سطحية.

وكانت هذه هي الحقيقة، ففي أثناء إقامتها في أومبروزا، لم تهتم السيدة فيولا، وكأنها أصابتها العدوى من الحياة الهمجية لكوزيمو، كثيرًا بالتردد إلى مجتمع النبلاء المجاور لها.

قال صديقي: نادرًا ما يجتمع مثل هذا الجمال مع مثل هذا التوتر، يقولون إنها في باريس تنتقل من حبيب إلى آخر، في منافسات مستمرة، الأمر الذي لا يسمح لأي منهم بأن يقول إنها ملكه، أو إنه هو المفضل. ولكنها كل فترة تختفي لأشهر عديدة، ويقولون إنها تخلو بنفسها في أحد الأديرة لتغرق نفسها في الندم.

منعت نفسي بصعوبة من الضحك عندما اكتشفت كيف يعتقد الباريسيون في إقامة المركيزة فوق أشجار أومبروزا فترات توبة، ولكن في الوقت نفسه سبب لي هذه هذا الكلام اضطرابًا؛ حيث جعلني أتوقع فترات حزن ستمر على أخي.

ولأقيه شر المفاجآت السيئة أردت أن أحذره. وبمجرد أن عدت إلى أومبروزا ذهبت للبحث عنه. سألني طويلًا عن رحلتي، وعن الأخبار الجديدة في فرنسا، ولكنني لم أنجح أن أنقل له أي خبر جديد عن السياسية أو الأدب؛ لأنه يعرف كل الأخبار بالفعل.

وفي النهاية، أخرجت من جيبي منديل السيدة فيولا.

– في أحد الصالونات في باريس قابلت سيدة تعرفك، وأعطتني هذا لك، مع تحياتها.

أنزل على الفور السلة المعلقة بالحبل، ورفع المنديل الحريري، ووضعه بقرب وجهه ليستنشق رائحته.

– آه، هل رأيتها؟ كيف حالها؟ قل لي: كيف كانت؟!

– كانت غاية في الجمال والضياء — أجبته ببطء — ولكنهم يقولون إن هذه الرائحة تستنشقها أنوف كثيرة ...

خبأ المنديل في صدره وكأنه يخشى أن ينتزعه أحد منه. ثم توجه إلي ووجهه مضرج بالحمرة: ولم يكن لديك سيف لتطرد تلك الكذبات من حنجرة من يقولها؟

كان علي أن أعترف أن هذا لم يخطر ببالي أبدًا. سكت لوهلة ثم هز كتفيه: كلها كذبات. أنا فقط أعرف أنها لي أنا وحدي.

ثم هرب بين الفروع من دون أن يحييني. وكنت أعرف طريقته المعتادة في رفض أي شيء يدفعه إلى الخروج من عالمه.

ومنذ تلك اللحظة كنت أراه دائمًا حزينًا ونافد الصبر، وهو يقفز هنا وهناك من دون أن يفعل شيئًا. وأحيانًا أسمعه يصفر منافسة للشحارير، ولكن ازداد صفيره عصبية وكآبة.

ووصلت المركيزة. وكالعادة سببت غيرته سعادتها؛ أحيانًا تثيرها هي، أحيانًا تحولها إلى مجرد لعبة. وهكذا تعود أيام الحب الجميلة، وتعود إلى أخي سعادته.

ولكن في تلك الفترة، لم تفوت المركيزة فرصة لتتهم كوزيمو بأنه فكرته ضئيلة عن الحب.

– ماذا تريدين قوله؟ أنني غيور؟

– أحسنت لأنك غيور. ولكنك تحاول أن تخضع غيرتك للعقل.

– بالتأكيد، هكذا أحولها إلى شيء أكثر فاعلية.

– إنك تفكر أكثر مما يلزم. لماذا يوضع الحب محل تفكير؟!

– لأحبك أكثر. إن كل شيء، إذا أخضعناه للعقل، تزداد قوته.

– تعيش بين الأشجار ولديك عقلية كاتب مصاب بداء المفاصل.

– أكثر المشروعات شجاعة تنفذها أكثر النفوس تواضعًا.

واستمر في إلقاء العبارات حتى هربت منه؛ عندئذ، بدأ هو في اللحاق بها كالعادة، وفي الإصابة باليأس، وبتقطيع شعره.

في تلك الأيام، ألقت سفينة إنجليزية حربية مرساها في مينائنا. وأقام ربان السفينة حفلة لمشاهير أومبروزا ولضباط السفن الأخرى المارة في ذلك الوقت. وذهبت المركيزة إلى الحفلة؛ ومنذ تلك الليلة جرب كوزيمو من جديد آلام الغيرة. فلقد هام ضابطان من سفينتين مختلفتين حبًّا بفيولا، وكانا يظهران دائمًا على الشاطئ وهما يتوددان إلى السيدة النبيلة وفي محاولة أن يتفوق كل منهما على الآخر في جذب انتباهها. كان أحدهما ملازمًا بحريًّا في السفينة الحربية الإنجليزية، والآخر أيضًا ملازمًا بحريًّا، ولكن في أسطول من نابولي. استأجر كل منهما جوادًا أشقر، وأخذ الملازمان يقومان بجولات مكوكية أسفل تراس المركيزة، وعندما يتقابلان يحوم الملازم القادم من نابولي حول ذلك الإنجليزي بنظرة تكاد تحرقه، في حين تتطاير من بين رموش الإنجليزي نظرة كحد السيف.

وماذا عن النبيلة فيولا؟! لم تملَّ تلك المتبرجة من المكوث بالساعات داخل المنزل، ثم تظهر لهما في زي الصباح من الشرفة وكأنها أرملة مات زوجها توًّا، وخرجت من حدادها

منذ برهة. أما كوزيمو، فنظرًا إلى أنها لم تعد معه بين النباتات، ونظرًا إلى أنه لم يكن يسمع اقتراب خطوات الحصان الأبيض فكاد يصيبه الجنون، وأصبح مكانه (هو الآخر) أمام ذلك التراس، ليراقبها هي وملازمي السفينة الحربية.

كان يدرس الطريقة التي بها يمكنه إطلاق بعض الطلقات تجاه منافسيه تجعلهما يعودان في أقرب وقت، كل منهما إلى سفينته، ولكنه عندما رأى أن فيولا تقابل بترحاب متساوٍ وتودد كلًّا منهما، استعاد الأمل في أنها ربما ترغب في العبث بالاثنين، ومنه هو أيضًا معهما، ولذلك لم يقلل من مراقبته لها، فمع أول إشارة تظهر بأنها تفضل أحدهما على الآخر، سيكون هو حاضرًا ليتدخل.

وإذا بالإنجليزي يمر في صباح أحد الأيام، وفيولا تقف في النافذة. ابتسم كل منهما للآخر. أسقطت المركيزة ورقة ما من يدها. أمسكها الضابط قبل أن تسقط أرضًا وقرأها ثم انحنى وقد احمر وجهه، وانطلق مبتعدًا. ميعاد! الإنجليزي إذن هو المحظوظ! أقسم كوزيمو ألا يتركه يقضي يومه بهدوء حتى المساء.

وفي أثناء ذلك مر الضابط القادم من نابولي. ألقت فيولا بورقة له هو أيضًا. قرأها الضابط، وقربها من شفتيه وقبلها. إذن فلا بد إنه هو المختار؟ إذن ماذا عن الآخر؟ ضد أي منهما يجب على كوزيمو الهجوم؟ من المؤكد أن فيولا قد أعطت ميعادًا لأحدهما، وربما داعبت الآخر فقط بمداعبتها المعتادة. أم أنها تريد العبث بهما معًا؟

أما عن مكان اللقاء فقد اتجهت شكوك كوزيمو نحو كوخ في نهاية المنتزه، فقبل ذلك بقليل أعادت المركيزة تنظيمه وتنسيقه، وكان كوزيمو يحترق من الغيرة لأنها لم تعد تلك الفترة التي فيها تملأ قمم الأشجار بالأرائك والستائر، والآن بدأت تهتم بمناطق لن يستطيع هو دخولها أبدًا. وقال كوزيمو لنفسه: «سأراقب هذا الجناح، إذا حددت ميعادًا مع واحد من الملازمين فلا بد أنه هناك.» وقبع في جزء كثيف من أغصان شجرة كستناء هندي.

وقبل الغروب بقليل سُمع ركض، فقد وصل ملازم سفينة نابولي، وفكر كوزيمو: «والآن سأثير غضبه!» وبواسطة مقلاع ألقى في عنقه بقذيفة من روث السناجب، ارتعد الضابط ونظر حوله. ابتعد كوزيمو عن ذلك الفرع وأثناء ذلك لمح من بعيد، من وراء السياج الملازم الإنجليزي يهبط من فوق السرج، ويربط الحصان إلى عامود. «إذن فهو المقصود. ربما كان الآخر يمر مصادفة.» وعلى الفور ألقى بقذيفة من روث السناجب على أنفه.

قال الإنجليزي: من هناك؟ وعبر السياج، ولكنه وجد نفسه وجهًا لوجه مع زميله النابولي، والذي عندما نزل هو الآخر من فوق جواده أخذ يصيح بدوره: من هناك؟

قال الإنجليزي: أستمحيك عذرًا يا سيدي، ولكنني يجب أن أطلب إلى سيادتك أن تترك هذا المكان على الفور!

أجابه النابولي قائلًا: وجودي هنا الآن من حقي، فأنا أدعو سيادتك إلى أن تترك المكان حالًا!

رد الإنجليزي: لا حق لديك أقوى من حقي، أنا آسف، لن أسمح لك بالمكوث.

قال الآخر: إنها مسألة شرف، وسأكون على مستوى لقبي: سيلفاتوري دي سان كاتالدو دي سانتا ماريا كابو فييتري، من القوات البحرية للصقليتين!

عندئذٍ قدم الإنجليزي نفسه: إن ثلث اسمي هو سير أوسبرت كاسلفايت، ويشرفني أن أفرض على سيادتك أن تترك الساحة.

– ليس قبل أن أطرد سيادتك بهذا السيف! ويستل سيفه من غمده.

– إذن فأنت تريد القتال.

قال هذا السير أوسبرت، وبدأ في الدفاع عن نفسه.

وتقاتلا.

– لطالما أردتك هنا أيها الزميل، وليس فقط اليوم.

ثم ضربه ضربة قوية.

وضربه سير أوسبرت ضربة مماثلة قائلًا: منذ فترة وأنا أتبع خطواتك أيها الملازم، وكنت أتوقع ذلك!

ونظرًا لأنهما متساويان في القوى، أخذ ملازما السفينتين يتبادلان الهجوم والتراجع. وفي حين هما في قمة مبارزتهما ظهرت النبيلة فيولا عند عتبة الجناح وصاحت: توقفا، بحق السماء!

وقالا هما الاثنان في صوت واحد، وبعد أن أنزلا السيفين وانحنى كل منهما للآخر: سيدتي المركيزة، إن هذا الرجل …

وفيولا: صديقَي العزيزين! ضعا جانبًا سيفيكما، أرجوكما! أهذه إذن هي الطريقة التي تخيفان بها سيدة؟ كنت أفضل هذا الجناح لأنه أكثر الأماكن صمتًا وسرية في حديقتي، وها أنا بمجرد أن استلقيت أيقظني صوت ضربات سيفيكما!

قال الإنجليزي: لكني، سيدتي، ألم أكن أنا المدعو هنا من قبل سيادتك؟

قال النابولي: ولكن سيادتك كنت هنا في انتظاري، يا سيدتي ...

ومن حنجرة السيدة فيولا ارتفع صوت ضحكة خفيفة وكأنها حفيف أجنحة: آه، بلى، بلى، دعوتك أنت، أم دعوتك أنت ... آه إنني مرتبكة جدًّا ... حسنًا، ماذا تنتظران؟ تفضلا، استريحا، أرجوكما ...

– سيدتي، كنت أعتقد أن الأمر يتعلق بدعوة لي أنا وحدي، والآن وقد خاب أملي، أستأذن من سيادتك، اسمحي لي بالانصراف.

– الشيء نفسه أقوله أنا أيضًا يا سيدتي، اسمحي لي.

– ضحكت المركيزة: صديقَي العزيزين ... صديقَي الطيبين ... أشعر أنني متهورة، كنت أعتقد أنني دعوت سير أوسبرت في ساعة ... ودون سيلفاتوري في ساعة أخرى ... لا، لا، اعذراني؛ بل في الساعة نفسه، ولكن في مكانين مختلفين ... آه؟ لا، كيف يمكن هذا؟ ... حسنًا، نظرًا إلى أنكما هنا أنتما الاثنان، لماذا لا نجلس معًا ونتحدث بتحضر؟!

نظر الملازمان كل منهما إلى لآخر، ثم نظرا إليها: هل يجب أن نفهم بهذه الطريقة يا مركيزة أنك كنت تتظاهرين بأنك تقدرين اهتمامنا فقط لتعبثي بنا نحن الاثنين؟!

– لماذا يا صديقَي العزيزين، بالعكس، بالعكس ... لم أستطع أن أعامل مثابرتكما بلا مبالاة ... فلقد أصبحتما عزيزين جدًّا ... وهذا هو سبب ألمي ... فإذا اخترت رقة السير أوسبرت يجب أن أفقدك أنت يا دون سيلفاتوري يا غرامي ... وإذا اخترت نار الملازم دي سان كاتالدو دي يجب أن أتخلى عنك أنت أيها السير! آه ... لماذا إذن ... لماذا؟

– لماذا إذن ماذا؟! سألاها في صوت واحد.

قالت دونا فيولا خافضة رأسها: لماذا إذن لا يمكن أن أكون معكما في الوقت نفسه ...؟

ومن فوق شجرة الكستناء الهندي سمع صوت سقوط الأغصان. كان كوزيمو الذي لم يعد يحتمل البقاء ساكنًا.

ولكن الملازمين شعرا بالارتباك الشديد فلم يسمعا شيئًا. تراجع كل منهما خطوة إلى الوراء: لا يمكن هذا أبدًا يا سيدتي!

رفعت المركيزة وجهها الجميل بابتسامة متألقة: حسنًا، سأكون لأول من يقوم من بينكما، لإثبات حبه، وليرضيني في كل شيء، يعلن أنه على استعداد أيضًا ليتقاسمني مع خصمه!

– سيدتي ...

– سيدتي ...

انحنى كل من الملازمين تجاه فيولا في تحية جافة للاستئذان، ونظر كل منهما إلى الآخر ومد كل منهما يده إلى الآخر ثم شدَّا على قبضتيهما.

– كنت متأكدًا أنك رجل مهذب يا سنيور كاتالدو.

قال الإنجليزي.

– وأنا أيضًا لم أكن أشك في شرفك يا سير أوسبرتو.

قال ضابط نابولي، واستدارا ليتركا المركيزة، واتجها إلى جواديهما.

– صديقَي ... لماذا شعرتما بالإهانة ... أيها الغبيان.

تقول فيولا هذا، أثناء وضع كلٍّ من الضابطين قدمه في ركاب حصانه.

وحانت اللحظة التي ينتظرها كوزيمو منذ فترة، ليستمتع بالانتقام الذي أعده لهما؛ فالآن سيتعرض الاثنان لمفاجأة مؤلمة. إلا أنه عندما رأى موقفهما الرجولي تجاه المركيزة المتكبرة شعر فجأة برغبة في التصالح معهما. ولكن فات الأوان! فالآن لم يعد في الإمكان نزع قنبلة الانتقام من موضعها! ففي ثانية قرر كوزيمو في لحظة كرم أن يحذرهما؛ وصاح من فوق الشجرة: أنتما هناك! لا تجلسا على السرج!

رفع الاثنان رأسيهما بحيوية: ماذا تفعل فوق؟

– ماذا تفعل؟ كيف تسمح لنفسك؟ انزل!

ومن خلفهما كانت تُسمع ضحكة النبيلة فيولا، إحدى تلك الضحكات الرقيقة.

شعر الاثنان بالارتباك، حيث يوجد شخص ثالث ربما استمع إلى كل ما حدث، وازداد الموقف تعقيدًا.

وقال كل منهما للآخر: على كل حال سيتضامن كل منا مع الآخر!

– ونقسم على ذلك بشرفنا!

– لن يوافق أحد منا بأن يقتسم سيدتي مع أي شخص.

– أبدًا وإلى الأبد!

– ولكن إذا قرر أحد منا أن يوافق على ذلك!

– في هذه الحالة، ومتضامنين إلى الأبد، سنوافق على ذلك معًا!

– حسنًا! والآن، هيا بنا!

وأمام هذا الحوار الجديد قضم كوزيمو إصبعه من الغضب لأنه حاول أن يتجنب استكمال انتقامه «إذن فليتم الانتقام!» ثم ابتعد بين الأغصان. قفز الضابطان ليجلسا فوق سرجيهما. فكر كوزيمو «الآن سيصرخان!» وخطر له أن يسد أذنيه بيديه. عندئذٍ تعالت صرخة ثنائية. جلس الملازمان على قنفذين خبأهما كوزيمو أسفل غطاء السرج.

– خيانة! وطارا إلى الأرض في انفجار من القفزات والصرخات وهما يدوران كل منهما حول نفسه، وبدا أنهما أرادا أن يتهما المركيزة.

ولكن النبيلة فيولا، والتي شعرت بالغضب أكثر منهما، صرخت وهي تنظر إلى أعلى: أيها القرد القبيح الشرير والمتوحش!

وهرعت وهي تقفز من جزع شجرة الكستناء الهندي، بسرعة شديدة، واختفت عن أنظار الضابطين حتى اعتقدا أن الأرض قد ابتلعتها.

وبين الفروع وجدت فيولا نفسها في مواجهة كوزيمو. أخذ ينظر كل منهما إلى الآخر وعيونهما تطلق شرارًا، وكان ذلك الغضب يضفي عليهما نوعًا من النقاء، وكأنهما ملاكان. وبدا وكأن كل منهما يكاد يفتك بالآخر، عندما صاحت المرأة: آه يا عزيزي! هكذا! هكذا أريدك؛ غيورًا وشرسًا! وبالفعل ألقت بذراعيها حول رقبته، وتبادلا العناق ولم يعد كوزيمو يتذكر أي شيء.

أخذت تتموج بين ذراعيه، ثم أبعدت وجهها عن وجهه وكأنها تفكر ثم: ولكن، هما الاثنان أيضًا هل رأيت كم يحبانني؟! إنهما على استعداد أن يتقاسماني فيما بينهما …

وبدا على كوزيمو وكأنه سيلقي بنفسه فوقها، ثم ابتعد بين الفروع، وأخذ يقضم الأغصان، ويضرب رأسه في جذع الشجرة: إنهما ليسا سوى دودتين!

كانت فيولا قد ابتعدت وقد تجمد وجهها.

– ما زال أمامك الكثير لتتعلمه منهما. استدارت ونزلت بسرعة من فوق الشجرة.

أما الحبيبان فنسي كل منهما الخلافات الماضية، ولم يكن أمامها حل آخر سوى أن يبدأ كل منهم بكل صبر البحث عن الأشواك لزميله. قاطعتهما فيولا: بسرعة، تعالا فوق عربتي! واختفوا جميعًا خلف الجناح. ورحلت العربة. أما كوزيمو، فمن فوق شجرة الكستناء الهندي، خبأ وجهه بين يديه.

وبدأت فترة العذابات لكوزيمو، ولكن لخصميه أيضًا. ولكن هل يمكن أن يُقال إنه وقت سعادة بالنسبة إلى فيولا؟ أعتقد أن المركيزة تعذب الآخرين فقط لأنها تريد تعذيب نفسها. فالضابطان النبيلان يتواجدان دائمًا معًا، لا ينفصلان أبدًا أسفل نافذة فيولا أو مدعوين في صالونها، أو في لقاءات طويلة بينهما فقط في الحانة. وكانت هي تغريهما وتطلب منهما التنافس دائمًا على إظهار أدلة حب جديدة، والتي يعلنان في كل مرة استعدادهما لها، وبالفعل كانا على استعداد لأن يتقاسماها فيما بينهما، ليس هذا فقط، بل واقتسامها أيضًا مع آخرين، فالآن وقد تدحرجا في منحدر التنازلات، ولم يعد في الإمكان التوقف، مدفوعين بالرغبة في أن ينجحا في النهاية بهذه الطريقة لأن يحركا مشاعرها، وأن تلتزم بوعودها،

وفي الوقت نفسه بالتزام كل منهما بوعد التضامن مع خصمه، بينما تفترسهما الغيرة، كل نحو الآخر، والأمل في أن يتخلص كل منهما من الآخر، بل تدفعهما أيضًا محاولة النجاة من الانحطاط المظلم الذي يشعر كل منهما أنه سيغرق فيه.

ومع كل وعد جديد تنزعه من الضابطين البحريين، تصعد فيولا على حصانها وتهرع لتخبر به كوزيمو، وكانت تصرخ فيه بمجرد أن تراه قابعًا بهدوء فوق إحدى الأشجار: هل عرفت أن الإنجليزي على استعداد ليفعل هذا وهذا ... والنابولي أيضًا ...

لم يكن كوزيمو يجيبها.

فتردد بإصرار: هذا هو الحب المطلق!

ويصرخ كوزيمو: إنكم جميعًا تفاهات مطلقة! ويختفي.

أصبحت هذه الطريقة الوحشية الطريقة الوحيدة لديهما ليحب كل منهما الآخر، ولم يعودا يعرفان طريق النجاة منها.

واستعدت السفينة الحربية للإبحار. قالت فيولاي لسير أوسبرت: ولكنك ستبقى، أليس كذلك؟ وهكذا لم يقدم سير أوسبرت نفسه على سطح السفينة؛ فتم اعتباره هاربًا من الخدمة العسكرية. وتضامنًا ومنافسةً، هرب دون سيلفاتوري من الخدمة هو أيضًا.

– لقد هربا من الخدمة العسكرية! أعلنت فيولا الخبر بانتصار لكوزيمو. فعلا ذلك من أجلي! وأنت ...

– وأنا؟!

صرخ كوزيمو بنظرة غاية في الوحشية حتى إن فيولا لم تنبس ببنت شفة.

وكان سير أوسبرت وسيلفاتوري دي سان كاتالدو دي، الهاربان من الخدمة كل منهما من جيشه، يقضيان أيامهما في الحانة، يلعبان الطاولة، شاحبين وقلقين، محاولين أن يربح كل منهما في لعبة القمار من الآخر، بينما فيولا في قمة استيائها من نفسها، ومن كل ما يحيط بها.

امتطت حصانها وذهبت تجاه الغابة. كان كوزيمو فوق شجرة بلوط. توقفت تحتها في مرعى.

– أشعر بالتعب.

– منهما؟

– منكم جميعًا.

– آه.

– لقد منحاني أكبر أدلة الحب ...

بصق كوزيمو.

– ... ولكنهما لا يكفياني.

رفع كوزيمو عينيه نحوها.

وهي: إنك تعتقد أن الحب هو تكريس مطلق وإنكار للذات ...

تقف فوق الحشائش، أكثر جمالًا من ذي قبل، ويكفي شيء يسير ليذيب البرودة التي تقسي ملامحها، وذلك التغيير في شخصيتها، وليستطيع استعادتها بين ذراعيه. يمكن لكوزيمو أن يقول أي شيء ليرضيها، يمكن أن يقول لها: قولي لي ماذا تريدين أن أفعل، وأنا مستعد ... وستبدأ سعادته من جديد، سعادة معها بلا ظلال. إلا أنه قال: لا يمكن وجود حب إذا لم يتسق المرء مع ذاته بكل ما بداخله من قوى.

أتت فيولا بإيماءة معارضة والتي جاءت أيضًا حركة تعبر عن التعب. وعلى الرغم أنه بإمكانها أن تفهمه كما اعتادت تفهمه دائمًا، وتنطق بالكلمات التي على شفتيها: «إنك تمامًا كما أريدك ...» ثم تصعد له على الفور ... إلا أنها عضت شفتيها وقالت: إذن لتكن مُتسقًا مع ذاتك وحدك.

أراد كوزيمو أن يقول «ولكن لن أكون متسقًا مع ذاتي دونك، فإن ذلك بلا معنًى ...» إلا أنه قال: إذا كنت تفضلين هاتين الدودتين ...

– لا أسمح لك باحتقار أصدقائي! صرخت فيه وكانت تفكر «إنني لا يهمني سواك أنت، إنه لأجلك أنت أفعل كل ما أفعله!»

– أنا فقط من يمكن احتقاره.

– إنها طريقتك في التفكير!

– أنا وطريقتي في التفكير شيء واحد.

– إذن وداعًا. سأرحل هذا المساء، ولن تراني أبدًا بعد اليوم.

جرت إلى الفيلا، أعدت حقائبها، ورحلت دون أن تقول أي شيء للملازمين. وكانت عند كلمتها، ولم تعد قط إلى أومبروزا، ذهبت إلى فرنسا، واتفقت الأحداث التاريخية في فرنسا على تنفيذ إرادتها في الوقت الذي تمنت هي فيه العودة. تفجرت الثورة، ثم الحرب، في البداية اهتمت المركيزة بمجرى الأحداث الجديد (فلقد كانت من مجموعة لافايات) ثم هاجرت بعد ذلك إلى بلجيكا ومنها سافرت إلى إنجلترا. وفي ضباب لندن، أثناء أعوام الحرب الطويلة ضد نابليون كانت تحلم بأشجار أومبروزا. ثم تزوجت مرة أخرى من لورد مهتم بالحملات في الهند، واستقرت في كالكوتا. ومن نافذتها تشاهد الغابات، كانت الأشجار أكثر

غرابة من تلك الموجودة في حديقة المنزل الذي قضت فيه طفولتها، ويبدو لها في كل لحظة أنها ترى كوزيمو يسير بين الأوراق، ولكنه لم يكن سوى ظل قرد أو جاجوار.

وظل كل من سير أوسبرت كاسلفايت وسيلفاتوري دي سان كاتالدو متلازمين في الحياة وفي الموت، وكرسا حياتهما لحياة المغامرة وقد شوهدا في منازل القمار في فينيسيا، وفي كلية اللاهوت في غوتينغن، وفي بلاط كاترينا الثانية في بطرسبرج، ثم فُقدت آثارهما.

ظل كوزيمو طويلًا يهيم في الغابات وهو يبكي، مُحطمًا، رافضًا تناول الطعام. كان يبكي بصوت مرتفع وكأنه طفل رضيع، وأصبحت الطيور، التي كانت في يوم ما تهرب بمجرد ظهور ذلك الصياد الماهر، تقترب منه، وتلتف حوله على قمة الأشجار، أو تطير بالقرب من رأسه. وأخذت طيور الدوري تصرخ، وطيور الحسون تدندن، والقصرية تشوش والسمان تزرزر، والصفنج والمازجة تغرد، ومن المخابئ العالية خرجت السناجب والزغبة وفئران الحقل، وضمت صفيرها إلى جوقة العصافير، وهكذا بات أخي يتحرك وسط هذه السحابة من العويل.

ثم بدأت فترة العنف المدمر، حيث يبدأ كل شجرة من القمة، ينزع ورقة تلو الأخرى، ويحولها بسرعة البرق إلى مجرد جذع وكأنها في فصل الشتاء، حتى وإن كانت من النوع الذي لا تتساقط أوراقه. ثم يصعد من جديد إلى القمة، ثم يبدأ في تكسير كل الفروع الصغيرة حتى لا يترك فيها سوى الدعائم الضخمة، ثم يصعد مرة أخرى وبسكين صغيرة يبدأ في نزع اللحاء، وكنا نرى الأشجار المقشرة كاشفة عن اللون الأبيض وكأنها جروح تسبب القشعريرة.

وفي كل هذا الكرب المزعج لم يشعر بأي حقد تجاه فيولا، لم يكن يشعر سوى بالندم لأنه فقدها، لأنه لم يعرف كيف يستبقيها إلى جانبه، لأنه جرحها بكبريائه الظالمة والغبية. لأنه الآن قد أدرك أنها ظلت مخلصة له، وقد جذبت وراءها هذين الرجلين الآخرين، لتعني بذلك أنها تحب كوزيمو فقط وترى أنه الوحيد الذي يستحق أن يكون حبيبها الوحيد، وكل ما عبرت عنه من عدم رضًا ومضايقة لم يكن سوى ذلك العطش الجنوني لأن تجعل حبهما ينمو من دون أن تسمح له بأن يصل إلى أقصى حد له. أما هو، فهو لم يستطع أن يفهم أي شيء من هذا، بل أغضبها حتى فقدها.

ومكث لبضعة أسابيع في الغابة، وحيدًا كالمعتاد، ولم يكن معه ولا حتى ماسيمو أُتيمو؛ لأن فيولا أخذته معها. وعندما عاد أخي ليظهر من جديد في أومبروزا كان قد تغير تمامًا. حتى أنا لم أستطع أن أخدع نفسي: هذه المرة فقد كوزيمو صوابه بالفعل.

٢٤

كانوا في أومبروزا يتحدثون دائمًا عن جنون كوزيمو، منذ أن صعد وعمره اثنا عشر عامًا فوق الأشجار رافضًا النزول. ولكن بعد ذلك، وكما يحدث دائمًا، قبِل الجميع جنونه هذا. ولا أتحدث فقط عن إصراره على العيش فوق الأشجار؛ ولكن عن التصرفات الغريبة الكثيرة التي اعتاد القيام بها، ولم يكن أحد ينظر إليه سوى على أنه شخص مختلف. ثم، وأثناء الفترة التي ازدهر فيها حبه لفيولا بدأت تظهر ثوراته وهو ينطق عبارات غير مفهومة، وخاصة ذلك الذي قاله في أثناء الاحتفال بعيد شفيع البلدة، والذي اعتبره كثير من الناس منهم إهانة للمعتقدات الدينية، مفسرين كلماته وكأنها صرخة هرطوقية، ربما بلُغة قرطاج، لغة أتباع البيلاجيانية،[١] أو تلاوة صلاة سوسيانية،[٢] بالبولندي. ومنذ تلك اللحظة بدأت الشائعات: لقد جن البارون! وأضاف العاقلون من الناس: وكيف يمكن أن يصاب من هو مجنون بالفعل، بالجنون؟!

---

[١] نظرية لاهوتية يعود اسمها إلى الراهب بيلاجيوس (٣٥٤–٤٢٠م). إنها معتقد أن الخطيئة الأصلية لم تؤثر على الطبيعة البشرية وأن إرادة الإنسان لا تزال قادرة على الاختيار بين الخير والشر بدون مساعدة إلهية خاصة. وتُعتبر البيلاجيانية هرطقة في معظم الطوائف المسيحية.

[٢] مذهب سبق المذهب التوحيدي، بدأه الراهب واللاهوتي الإيطالي فاوستو باولو سوزيني (١٥٣٩–١٦٠٤م): الذي اشتهر أيضًا باسم «سوسيان» أو «سوسيانوس». قام سوسيان بنشر كتاب إصلاحي انتقد فيه عقائد الكنيسة الكاثوليكية بشدة، وهاجم عقائد التثليث والتجسد والكفارة والصلب والفداء وسائر المعتقدات الكاثوليكية، ودعا إلى التوحيد الخالص، وامتدت تعاليمه إلى نواحٍ عدة، حيث انتشرت في هنغاريا (المجر) ثم بولندا وترانسلفانيا (إقليم في رومانيا) ثم انتشرت منها إلى هولندا ثم بريطانيا وأخيرًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وعرف مذهبه اللاهوتي باسم «السوسيانية» وأتباعه بالسوسينيانيين، كما سماهم أعداؤهم بالآريوسيين الجدد؛ نسبة لآريوس ومذهبه القديم.

ووسط تلك الأحكام المتناقضة أصبح كوزيمو مجنونًا حقًّا. فلو اعتاد في البداية أن يسير وهو مغطًّى بفراء الحيوانات من رأسه حتى قدميه، فإنه أصبح الآن يزين رأسه بالريش، مثل سكان أمريكا الأصليين، ريش طيور الهدهد وطيور الخضري ذات الألوان الزاهية، وليس على رأسه فقط، بل يزين به ملابسه أيضًا. وفي النهاية بدأ يصنع لنفسه معاطف مغطاة كلها بالريش وبدأ يقلد عادات مختلف الطيور، مثل طائر نقار الخشب؛ بأن ينزع من جذوع الأشجار الديدان واليرقات، ويتفاخر بها وكأنه حصل على ثروة.

وكان يقرأ أيضًا دفاعيات الطيور إلى جميع المجتمعين للاستماع إليه للسخرية منه تحت الأشجار. وتحول من صياد إلى محامٍ للطيور، وكان يعلن أحيانًا أنه عصفور طويل الذيل، وأحيانًا أخرى أنه بومة أو أبو الحناء بما يناسب كل منهم من تنكر، ويبدأ في إلقاء خطب اتهام للبشر، والذين لا يستطيعون التعرف إلى أصدقائهم الحقيقيين من العصافير، وهي خطب تتحول إلى إدانة لكل المجتمع الإنساني متخذة شكل القصص الرمزية. ويبدو أن الطيور أيضًا أدركت ذلك التغير في أفكاره، فأصبحت تقترب منه، حتى مع وجود كثير من الناس أسفل الشجرة يستمعون إليه. وهكذا يستطيع أن يوضح أحاديثه بأمثلة حية يشير إليها على الفروع حوله.

ودارت أحاديث كثيرة بين الصيادين في أومبروزا حول استغلال تأثيره هذا في الطيور كطعم، ولكن لم يجرؤ أحد قط على إطلاق النار على العصافير الواقفة بجواره؛ لأن البارون، حتى الآن، على الرغم من فقده لرشده، كان لا يزال يثير نوعًا من الرهبة. يتحدثون عنه بسخرية، هذا حقيقي، وعادة ما يقف له تحت الأشجار حشد من المتشردين والعاطلين الذين يسخرون منه، إلا أنه استمر أيضًا في التمتع بالاحترام، واستمع إليه الجميع دائمًا بانتباه.

أصبحت أشجاره مزينة بالأوراق المكتوبة، وأيضًا بلوحات عليها حكم ونصائح الفيلسوف الرواقي سنيكا وإيرل شافتسبري، وبأشياء مثل مجموعات من الريش، شموع كنيسة، قطاعات ورق، تيجان، شدادات صدر، مسدسات، موازين، مربوطة كل واحدة منها في الأخرى بنظام معين. وكان سكان أومبروزا يقضون الساعات في محاولة للتخمين عما يمكن أن ترمز إليه تلك الألغاز: النبلاء، البابا، الفضيلة، الحرب. وأنا أعتقد أنها أحيانًا لم يكن لها أي مغزًى، ولكنها تفيد فقط في أن تشحذ العقل وأن توضح أنه أحيانًا ما تكون أكثر الأفكار بعدًا عن المألوف هي أكثرها صوابًا.

وأخذ كوزيمو أيضًا في تأليف بعض الكتابات مثل: قصيدة الشحرور، ونقار الخشب يطرق الباب، وحوارات البومة، بل أخذ يوزعها على الجمهور، بل كانت فترة اختلال عقله

هذه هي الفترة التي تعلم فيها فن الطباعة، وبدأ يطبع أنواعًا من الكتب الصغيرة والنشرات (ومن بينها: نشرة طيور العقيق)، ثم جمعها جميعًا تحت عنوان: مرشد ذوي القدمين. ووضع فوق شجرة جوز مصطبة كبيرة، وآلة طباعة، مكبس طباعة، ودرجًا للأحرف، وقارورة حبر كبيرة، ويقضي الأيام وهو يألف تلك الصفحات ويطبع منها نسخًا. وأحيانًا كانت تسقط بين آلة الطباعة، والورقة بعض العناكب أو الفراشات، وكانت آثارها تظهر على الصفحة، وأحيانًا أخرى يقفز حيوان الزغبة على الورقة التي حبرت لتوها فيشوه كل شيء بخبطات من ذيله. وأحيانًا تأخذ السناجب حرفًا من الحروف الأبجدية وتخبئه في جحورها معتقدة أنه شيء يؤكل، كما حدث مع حرف Q، والذي بسبب شكله الدائري وذيله القصير اعتقدته القوارض نوعًا من الفاكهة، واضطر كوزيمو أن يستعيض عنه بحرف C.

بدت كلها أشياء جميلة، ولكن انتابني الشعور أنه في تلك الفترة لم يُصب أخي فقط بالجنون؛ ولكنه أصيب أيضًا بشيء من البلاهة، وهو الشيء الأكثر خطرًا وإيلامًا، لأن الجنون، سواء أكان شرًّا أم خيرًا فهو قوة من قوى الطبيعة، في حين البلاهة بالتأكيد هي ضعف الطبيعة.

في الشتاء يسقط في نوع من الخمول. يبقى معلقًا على جذع بداخل جواله المفروش، ولا يظهر منه سوى رأسه، وكأنه بداخل عشه، وأقصى ما يفعله في أشد الساعات حرارة هو أن يخطو بعض الخطوات ليصل إلى شجرة جار الماء أمام وادي ميردانزو ليقضي حاجته. يجلس بداخل جواله ليقرأ (مضيئًا في الظلام مصباحًا زيتيًّا) أو ليتمتم مع نفسه، أو ليغني. ولكنه يقضي أغلب الأوقات نائمًا.

وليأكل كانت لديه بعض المؤن الغامضة، ولكنه أيضًا يقبل ما يقدم إليه من أطباق الحساء أو الرافيولي، عندما يصعدها بعض فاعلي الخير إليه، إلى فوق، مستخدمين لذلك سلمًا. في الواقع ظهر نوع من المعتقدات الخرافية لدى البسطاء بأن تقديم شيء إلى البارون يجلب الحظ، وهذه علامة على أنه أصبح يثير لديهم إما الخوف وإما التعاطف وأنا أعتقد أنه كان يثير التعاطف. وبدا لي مثيرًا للاستياء أن يعيش حامل لقب بارون روندو على المعونات، وخاصة عندما فكرت في أبي رحمه الله إذا عرف شيئًا مثل هذا. بالنسبة إلي، فحتى تلك اللحظة لم يكن عليَّ أن ألوم نفسي على أي شيء؛ لأن أخي طالما احتقر ما تقدمه إليه العائلة من وسائل الراحة، ووقع لي على ورقة تعفيني من أي واجب نحوه سوى أن أمنحه قليلًا من الدخل (والذي ينفقه كله تقريبًا على شراء الكتب). ولكنني الآن، وأنا أراه عاجزًا عن الحصول على طعامه، جربت أن أُصعد إليه بواسطة السلم أحد الخدم، مرتديًا

زيه والباروكة البيضاء، ومعه ربع ديك رومي، وكوب من النبيذ فوق صينية. واعتقدت أنه سيرفض، بسبب أحد تلك الأسباب الغامضة الخاصة بالمبدأ، إلا أنه قبلها بسرور على الفور. ومنذ تلك اللحظة، وفي كل مرة كنا نتذكره، كنا نرسل حصة من طعامنا إليه فوق الشجرة.

على كل حال، كان تدهورًا سيئًا، ولكن من حسن الحظ حدث غزو الذئاب، واستطاع كوزيمو أن يقدم أفضل ما لديه من إمكانات. كان شتاءً قارصًا، وتساقط الجليد حتى غاباتنا، وبدأت أفواج من الذئاب التي طردها الجوع من جبال الألب تنحدر نحو أنهارنا، وقابلها أحد عمال الغابة وحمل لنا الخبر وهو مفزوع. وقام أهل أومبروزا، والذين تعلموا منذ فترة الحراسة ضد الحرائق أن يتحدوا في وجه الخطر، بنوبات حراسة حول المدينة لمنع اقتراب تلك الوحوش الجائعة. ولكن لم يكن أحد يجرؤ على الخروج من منزله وخاصة في الليل. وكانوا يقولون في أومبروزا: مع الأسف لم يعد البارون على سابق عهده!

وكان لهذا الشتاء القاسي تأثيره السيء في صحة كوزيمو، فكان يتأرجح منكمشا بداخل جواله وكأنه دودة قز داخل شرنقة، وأنفه تسيل وتبدو وكأنها مسدودة ومتورمة. وبدأ آنذاك التحذير ضد الذئاب، وخاطبوه وهم يمرون أسفل شجرته: آه أيها البارون! في إحدى المرات حرستنا أنت من فوق الأشجار، والآن سنحرسك نحن.

مكث في مكانه وعيناه شبه مغلقتين، وكأنه لم يفهم ما يقولون، أو لا يهمه شيء. إلا أنه فجأة رفع رأسه، وامتخط ثم قال بصوت مبحوح: النعاج. لاصطياد الذئاب ضعوا النعاج فوق الأشجار واربطوها. وكان الناس قد بدءوا بالفعل يجتمعون أسفل الشجرة ليستمعوا إلى جنونه ويسخروا منه، إلا إنه نهض من الجوال وهو يرشح من أنفه، ويبصق بلغمًا من فمه، وقال: سأريكم أين. وابتعد بين الفروع. وفوق بعض أشجار البندق أو البلوط، بين الغابة والمنطقة الزراعية، وفي مواقع مختارة بعناية أرادهم كوزيمو أن يحضروا بعض النعاج والحملان، وربطها هو بنفسه في الفروع، وهي حية، تثغو، ولكن بطريقة تحميها من السقوط من فوق الأشجار. وفوق كل واحدة من هذه الأشجار خبأ بندقية وعبأها بالطلقات، وهو أيضًا ارتدى ملابس وكأنه نعجة؛ غطاء رأس، معطفًا، غطاءً للذراعين، وجميعها من صوف الغنم المجعد. وأخذ يترقب الذئاب في الليل في مكان مكشوف فوق الأشجار. واعتقد الجميع أنها أكبر فكرة مجنونة في حياته.

ولكن في تلك الليلة أتت الذئاب، وعندما اشتمت رائحة النعاج، وسمعت ثغاءها، بل رأتها معلقة فوق، توقف كل القطيع تحت الشجرة، وأخذ يعوي بأفواه جائعة مفتوحة في الهواء، وأخذت الذئاب تشبك مخالبها فوق جذع الشجرة. عندئذٍ اقترب كوزيمو وهو

يتأرجح بين الفروع، وبمجرد أن رأت الذئاب ذلك الشكل الذي يتراوح بين النعجة والإنسان، والذي يقفز فوقًا مثل الطيور، مكثت مدهوشة وأفواهها مفتوحة، حتى نالت رصاصتين في حنجرتها، رصاصتين؛ لأن كوزيمو كان يحمل معه بندقية (وكان يعبئها بعد كل طلقة) والبندقية الأخرى معدة بالفعل بقذائفها فوق كل شجرة، وهكذا كان في كل مرة يترك خلفه ذئبين ممددين على الأرض المُجمدة. وحصد بهذه الطريقة عددًا كبيرًا منها، ومع كل طلقة يتشتت القطيع في اتجاهات مختلفة، فيهرع الصيادون نحو مصدر العواء وصوت الرصاص ويقومون بباقي المهمة.

وعن مسألة صيد الذئاب هذه اعتاد كوزيمو أن يحكي قصصًا بطرائق مختلفة، ولا أعرف بالتحديد أيها كانت القصة الحقيقية. على سبيل المثال: كانت المعركة تسير على أفضل وجه عندما فوجئت في أثناء توجهي إلى الشجرة التي تقف عليها النعجة الأخيرة بثلاثة ذئاب تمكنت من التشبث بالفروع والصعود فوق الشجرة وكادت تنهي ما تبقى من تلك النعجة. ونظرًا إلى أنني كنت نصف أعمى وأصم من البرد الذي أعانيه، وطئت تقريبًا بقدمي على فم أحد من الذئاب دون أن انتبه. وبمجرد أن رأت الذئاب تلك النعجة الأخرى التي تسير على قدميها بين الفروع استدارت نحوها، وهو تفتح أفواهها الملطخة بالدماء. كانت بندقيتي فارغة، لأنني بعد كل ما أطلقته من قذائف فرغ ما أحمله من بارود، والبندقية المعدة بالفعل بعيدة خلف الذئاب، ويصعب الوصول إليها. وقفت فوق فرع ثانوي، ضعيف بعض الشيء، ولكن فوقي يوجد فرع آخر أكثر صلابة. أخذت أسير بحذر على فرعي، مبتعدًا ببطء عن الجذع، وأخذ أحد الذئاب يتبعني ببطء. ولكنني أمسكت بيدَي بالفرع المعلق فوقي، وتظاهرت بأنني أحرك قدمي فوق ذلك الفرع الواهن، وفي الحقيقة كنت أتحرك بيدَي. وهكذا، تحرك الذئب المخدوع بثقة، وتحطم الفرع أسفله، في حين رفعت نفسي بقفزة فوق الفرع الآخر، وسقط الذئب وهو يطلق صوتًا كنباح الكلب، وتكسرت عظامه، وتجمد على الأرض.

– والذئبان الآخران؟!

– أخذ الذئبان الآخران ينظران إلي بلا حركة، عندئذٍ نزعت فجأة عني المعطف والقبعة المصنوعين من فراء النعاج وألقيتهما عليهما. أحد الذئبين عندما رأى تلك الظلال البيضاء للحمل وهي تطير فوقه حاول أن يمسكها بأسنانه، ولكن نظرًا إلى أنه أعد نفسه للإمساك بوزن ثقيل، في حين أنه في الحقيقة لم يكن سوى غطاء فارغ، فقدَ توازنه، وانتهى به الأمر هو أيضًا وقد تحطمت أقدامه ورقبته على الأرض.

– ما زال هناك ذئب …

– ما زال هناك واحد ونظرًا إلى أنني خففت فجأة من ملابسي بأن ألقيت معطفي بعيدًا، فلقد واتتني عطسة قوية من تلك التي تهز السماء، وأمام ذلك الانفجار المفاجئ والجديد فزع الذئب، وقفز مرتعدًا حتى سقط من فوق الشجرة، فتحطمت رقبته هو الآخر.

وهكذا يحكي أخي ليلة المعركة، ولكن الشيء المؤكد أن البرد الذي تعرض له ليلتها، ونظرًا إلى أنه كان مريضًا بالفعل، أثر عليه تأثيرًا مدمرًا. مكث بعض الأيام بين الحياة والموت، ثم عالجوه على نفقة المقاطعة، اعترافًا منهم بالجميل. نام ممددًا على مضجع معلق محاطًا بحركة كثير من الأطباء الذين صعدوا إليه بسلالم من الحبال. استدعوا أفضل الأطباء في المنطقة لاستشارتهم في حالته، فمنهم من كان يحقنه، ومنهم من يفصده، ومنهم من يضع له الكمادات. ولم يعد أحد يتكلم عن بارون روندو على أنه مجنون، بل أخذوا يتحدثون عنه وكأنه أعظم العباقرة والظواهر في عصره. واستمرت الحال هكذا طوال فترة مرضه.

عندما تماثل من مرضه عاد بعض منهم يقول عنه إنه حكيم وبعضهم الآخر يقول إنه مجنون. ولكن الحقيقة أنه توقف عن ارتكاب الأشياء الغريبة. استمر فقط في طباعة مجلة أسبوعية، وغير عنوانها من «مرشد ذي القدمين» إلى «الحيوان الفقري العاقل».

٢٥

لا أعرف هل في تلك الحقبة تأسس محفل للبنائين الأحرار في أومبروزا بالفعل؛ فلقد بدأت الماسونية بعد ذلك بفترة، بعد أول حملة لنابليون وذلك بانضمام عدد كبير من البرجوازيين الأغنياء والنبلاء الصغار في منطقتنا، ولكنني لا أستطيع أن أتحدث عن ماهية العلاقات الأولى لأخي مع المحفل. وفي هذا الصدد سأتحدث عن موقف حدث تقريبًا في الوقت الذي أقص فيه هذه الأحداث، والذي يؤكد شهود متنوعون حدوثه بالفعل.

في أحد الأيام وصل إلى أومبروزا اثنان من الإسبان، مسافرين عابرين، وتوجها إلى منزل شخص يدعى بارتولوميو كافاميا، صانع حلوى، ومعروف بأنه عضو ماسوني. وعلى ما يبدو كانا هما أيضًا عضوين في محفل مدريد، نظرًا إلى أنه قادهما في المساء لحضور اجتماع ماسونيي أومبروزا، والذي يُعقد آنذاك على ضوء المصابيح والشموع في حلقة وسط الغابة. وعن كل ما سبق ليس لدي من أخبار سوى عبر شائعات وافتراضات، ولكن الشيء المؤكد هو أنه في اليوم التالي، وبمجرد أن خرج هذان الإسبانيان من الفندق تبعهما كوزيمو دي روندو من دون أن يرياه وأخذ يراقبهما من فوق الأشجار.

دخل المسافران في فناء إحدى الحانات المفتوحة، تربص كوزيمو فوق شجرة وستارية، وإلى المائدة يجلس زبون ينتظرهما؛ ولم يكن وجهه واضحًا، إذ إنه مغطًّى بقبعة سوداء ذات جوانب عريضة. وأخذت تلك الرءوس الثلاثة، بل تلك القبعات الثلاث تتحاور فوق المربع الأبيض لغطاء المائدة. وبعد أن تحادثا لبرهة أخذت يد الشخص المجهول تكتب في ورقة صغيرة شيئًا ما يمليه الأخيران عليه، وبالترتيب الذي يكتب الكلمات به واحدة فوق الأخرى استنتج أنها قائمة أسماء.

قال كوزيمو: صباح الخير أيها السادة. ارتفعت القبعات الثلاث فأظهرت أسفلها ثلاثة وجوه بعيون جاحظة تجاه الرجل الواقف فوق الشجرة. ولكن أحد هؤلاء الثلاثة،

ذلك الذي يرتدي القبعة العريضة، أحنى رأسه مرة أخرى بسرعة حتى كاد يلمس المائدة بطرف أنفه. واستطاع أخي أن يلمح وجهًا ليس غريبًا عنه. قال الاثنان: صباح الخير أيها السيد! ولكن هل هي عادة في تلك الأنحاء أن تقدموا أنفسكم للغرباء بأن تسقطوا عليهم من السماء كالحمام؟ نتمنى أن تتكرم وتنزل على الفور لتفسر لنا هذا الأمر!

قال البارون: إن من يمكث في أعلى يراه الجميع من كل اتجاه، بينما يوجد من يختبئ ليخفي وجهه.

– فلتعلم أن لا أحد منا مضطر إلى أن يظهر وجهه لسعادتك أيها السيد ولا حتى مؤخرته.

– أعرف أن بعض النوعيات من الأشخاص شرفهم يكمن في إخفاء وجوههم.

– من هم، اسمح لي؟

– الجواسيس، على سبيل المثال!

ارتعد الرفيقان. ومكث ذلك المنحني بلا حراك، ولكن سمع صوته لأول مرة عندما قال: آه، وهناك مثال آخر، أعضاء الجماعات السرية ...

قال هذا ببطء وبوضوح.

وكان يمكن تفسير تلك العبارة بطرائق متنوعة. فكر كوزيمو في ذلك. وقال بقوة: إن تلك العبارة يا سيد يمكن أن تفسر بأكثر من طريقة. أنت تقول «أعضاء الجماعات السرية» ملمحًا أنني منهم، أو تقصد بذلك أنكم أنتم منهم، أو أن كلينا من هذه الجماعات، أو لا أنا ولا أنتم، ولكن تقصد بها آخرين، أو لأي سبب آخر، ولكنها عبارة يمكن أن تخدمك في أن تعرف ما سأقوله بعد ذلك. أليس كذلك؟

– ماذا، ماذا، ماذا؟ قال وقد ارتبك الرجل ذو القبعة المتسعة الجوانب، وفي ارتباكه هذا نسي أنه يجب أن يحتفظ برأسه منحنيًا، ونهض حتى نظر إلى كوزيمو في عينيه. عندئذٍ عرفه كوزيمو، كان دون سولبيتشو، ذلك اليسوعي عدوه عندما كان في أوليفاباسا!

صاح كوزيمو: آه لم أكن أخدع نفسي إذن! لتسقط القناع أيها الأب المحترم!

– أنت! كنت متأكدًا من ذلك! — قال ذلك الإسباني وخلع قبعته، وانحنى كاشفًا عن هويته الرهبانية: دون سولبيتشو دي جواداليتي، رئيس الرهبنة اليسوعية.

– كوزيمو دي روندو، بنَّاء حر ومقبول!

والإسبانيان الآخران أيضًا قدم كل منهما نفسه بانحناءة سريعة.

– دون كتايستو!

– دون فولجينشوا!

– يسوعيان أيضًا أيها السيدان؟

– شرف عظيم لنا!

– ولكن ألم يتم حل نظامكم الرهبني هذا أخيرًا بناء على أمر من البابا؟

قال دون سولبيتشو وهو يشهر سيفه: ليس ليريح الفوضويين والهرطوقيين من أمثالك!

كانوا يسوعيين من إسبانيا، بعد أن حل نظامهم الرهبني اتجهوا إلى الريف في محاولة لتكوين فرقة مسلحة في كل المناطق ليحاربوا بها الأفكار الجديدة والنزعة التوحيدية.

وأخرج كوزيمو أيضًا سيفه من غمده، وتجمع حولهم الكثير من الناس، ثم قال الإسباني: تفضل وانزل إذا أردت أن تصارع على طريقة الفرسان الإسبانيين.

وبالقرب من المكان توجد غابة أشجار الجوز، وكانت فترة الحصاد، وعلق الفلاحون ملاءات تصل بين شجرة وأخرى لجمع الجوز الذي يسقط. جرى كوزيمو نحو إحدى تلك الأشجار وقفز فوق الملاءة ووقف مستقيمًا، مثبتًا قدميه اللتين كانتا تتزحلقان على ذلك النسيج المصنوع من المشمع: فلتصعد سيادتك هنا، على ارتفاع شبرين يا دون سولبيتشو، فلقد نزلت أنا أكثر من المعتاد. وأشهر هو أيضًا سيفه.

قفز الإسباني هو أيضًا فوق الملاءة المشدودة، وصعب عليهما الحفاظ على التوازن لأن الملاءة أخذت تغلق عليهما وكأنها جوال، ولكن المتصارعين كانا في حالة من الهياج سمحت لهما بأن يتبارزا بسيفيهما.

– باسم الله الأعظم!

– مجدًا للبنَّاء الأعظم للكون!

وأخذا يتبادلان الضربات القاصمة.

قال كوزيمو: قبل أن أغرس لسيادتك هذا النصل في معدتك، قل لي أخبار الآنسة أورسولا.

– ماتت في أحد الأديرة!

اضطرب كوزيمو عند سماع الخبر (ولكنني أعتقد أنه خبر ملفق في وقته) واستغل اليسوعي السابق هذا الاضطراب ليضربه ضربة يسارية. وبضربة عميقة وصل إلى إحدى الزوايا المربوطة في فروع شجرة الجوز والتي تربط بها الملاءة من الناحية التي يقف عليه كوزيمو وقطعها. كان من المؤكد سقوط كوزيمو لولا أنه خفيف سريع الحركة بحيث ألقى بنفسه إلى الجانب الذي يقف فيه دون سولبيتشو، وتعلق بأحد الأطراف. وفي أثناء قفزته

تلك غافل سيفه حرص الإسباني وانغرس في بطنه. تخلى دون سولبيتشو عن تماسكه، وانزلق إلى أسفل ناحية الجزء الذي سبق وقطعه في الملاءة، وسقط أرضًا، وتسلق كوزيمو إلى شجرة الجوز. رفع اليسوعيان السابقان الآخران جسد رفيقهما المصاب أو الميت (لم نعرف هذا)، وهربا، ولم نرهما بعد ذلك.

وتجمع الناس حول الملاءة الملطخة بالدماء، ومنذ ذلك اليوم اشتهر أخي لدى الجميع بأنه رفيق ماسوني.

ولم تسمح لي سرية الجماعة بأن أعرف أكثر من ذلك. فعندما انضممت إلى الجماعة، كما قلت، سمعتهم يتحدثون عن كوزيمو وكأنه رفيق قديم، ولكن لم تتضح علاقاته بالمحفل، فمنهم من يصفه بأنه «خلايا نائمة»، ومن يقول عنه إنه هرطوقي انتقل إلى مذهب آخر، ومنهم من وصفه بأنه مرتد. إلا أن ذلك كله قيل في احترام شديد لنشاطه السابق. ولا يمكنني أن أستبعد أن يكون هو ذلك المعلم الأسطوري «نقار الخشب البنَّاء»، والذي يُعهد إليه بتأسيس محفل «شرق أومبروزا». ومن جهة أخرى، فإن الشعائر الأولى التي تتم يظهر فيها تأثير البارون؛ يكفي أن أذكر أنهم يعصبون أعين الملتحقين الجدد، ثم يصعدونهم على قمة إحدى الأشجار، ثم يسقطونهم من فوق وهم معلقون بحبل.

ومن المؤكد أن أول اجتماعات للجماعات الماسونية، في منطقتنا، عُقدت في الليل في وسط الغابات. ومن ثم لوجود كوزيمو أكثر من تبرير، سواء من خلال تلقيه المطبوعات الخاصة بالقوانين الماسونية ضمن مراسلاته الخارجية، وتأسيس المحفل هنا، أو حتى في حالة وجود شخص آخر هو الذي أدخل الشعائر إلى أومبروزا، على الأرجح بعد إدخالها إلى فرنسا أو إلى إنجلترا. أو ربما وُجدت الماسونية هنا بالفعل منذ فترة من دون علم كوزيمو، وأنه بالمصادفة في إحدى الليالي، وهو يتحرك بين أشجار الغابة، اكتشف، في أحد الأركان، اجتماع بعض الرجال ذوي الملابس والأدوات الغريبة على ضوء الشموع، فتوقف ليستمع إليهم، ثم تدخل مسببًا الاضطراب لهم بإحدى عباراته المحيرة، على سبيل المثال: إذا ارتفعت بأحد الأسوار فكر فيمن ستتركه خارجه! (وهي عبارة كنت أسمعه يرددها كثيرًا)، أو أية عبارة أخرى من عباراته، وعندما عرف الماسونيون بما لديه من تعليم عالٍ أدخلوه في المحفل، وعهدوا إليه بمهام خاصة، جالبًا معه عددًا كبيرًا من الشعائر والرموز الجديدة.

ويبقى دائمًا واقع أن طوال الفترة التي اضطلع أخي بدور ما فيها، كانت ماسونية الهواء الطلق (كما سأطلق عليها لأميزها عن تلك التي تجتمع في مبنًى مغلق) تتمتع

بشعائر أكثر ثراءً، تدخل فيها البوم، أجهزة التليسكوب وثمار الصنوبر، المضخات المائية وعش الغراب، غطاسات ديكارت وأعشاش العنكبوت وجداول فيثاغورث. بالإضافة إلى نوع من المباهاة بالجماجم، ليس فقط بالجماجم الآدمية، ولكن أيضًا بجماجم الأبقار، والثعالب، والنسور. وهكذا وجدنا في تلك الفترة أدوات مثل هذه، أو أخرى مثل المسطرين ومقياس الزوايا والفرجار، وأدوات الطقوس الماسونية العادية، معلقة على فروع الأشجار بترتيب غريب، ونسب الناس ذلك أيضًا لجنون البارون. فقط قلة قليلة من الأشخاص الآن يحاولون التلميح أن هذه الألغاز كان لها مغزًى أكثر جدية، ولكن حينئذ لم يستطع أحد أبدًا الفصل التام بين الإشارات السابقة وتلك التي لحقت بها، أو أن يستبعدوا أنها منذ البداية علامات غريبة لإحدى المنظمات السرية.

لأن كوزيمو، وقبل أن ينضم للماسونية بفترة طويلة، سبق وانضم إلى منظمات أو جمعيات إخاء مهنية، مثل جمعية سان كريسبيتو، أو جمعية صانعي الأحذية، أو أيضًا جمعية صانعي البراميل الأفاضل، أو صانعي الأسلحة العادلين، أو صانعي القبعات الشرفاء. ونظرًا إلى أنه اعتاد صنع كل الأشياء التي تلزمه بنفسه، فهو يعرف مختلف الصناعات، ويمكن أن يفتخر بأنه عضو في كثير من الجمعيات، ومن جهتهم شعروا هم بالسعادة حيث أصبح بينهم عضو ينتمي إلى عائلة نبيلة، ذو عبقرية فذة، وليس له أي مصالح خاصة من الانضمام إليهم.

ولكن كيف اتفق شغف كوزيمو هذا بالحياة الجماعية، والذي طالما عبر عنه، مع هروبه الدائم من الأعراف الحضرية؟ هذا ما لم أستطع قط أن أفهمه، ومن ثم ظلت إحدى تلك المميزات القليلة في طابعه. يمكن أن نقول إنه كلما قرر بشدة أن يختبئ وسط فروعه فكر في خلق نمط علاقات جديدة مع البشر. ولكن مع أنه عادة ما يلقي بنفسه روحًا وجسدًا في تنظيم أو رابطة جديدة، واضعًا لها بدقة القوانين والأهداف، واختيار الأشخاص المناسبين لكل مهمة، إلا أن رفاقه لم يعرفوا قط إلى أي مدًى يمكنهم الاعتماد عليه، متى وأين يمكنهم مقابلته، ومتى سيعود فجأة إلى حياته الطبيعية كطائر، ولم يدع أحدًا يقيده قط.

ربما إذا أردنا أن نحيل تلك التصرفات المتناقضة إلى دافع واحد، فعلينا أن نفكر في عداوة كوزيمو أيضًا لكل نوع من أنواع مشاركة الحياة الإنسانية الموجودة في عصره، ولذلك هرب منها جميعًا، ولكنه أغرق نفسه بإصرار في تجريب الجديد منها، ولكن لم تبدُ له أية واحدة منها صالحة ومختلفة كثيرًا عن الأخريات؛ ومن هنا جاءت اعتراضاته المستمرة التي تمثلت في ذلك النفور المطلق من البشر.

انشغل ذهنه بفكرة المجتمع الكوني، وكان ذلك يتضح في كل المرات التي يعمل فيها على مشاركة الناس، سواء لأهداف محددة، مثل الحراسة ضد الحرائق، أو الحماية من الذئاب، أو في جمعيات مهنية مثل المشحذين البارعين، أو دابغي الجلود المستنيرين، نظرًا لأنه دائمًا ما ينجح في جعلهم يجتمعون في الغابة ليلًا، حول إحدى الأشجار، بحيث يستطيع أن يعظهم من فوقها، وتظهر دائمًا من تلك الجمعيات رياح المؤامرة، أو الطائفية والهرطقة، وهكذا، وفي هذا الجو، تنتقل الأحاديث بسهولة من الخاص إلى العام، ومن القواعد البسيطة لمهنة يدوية، يتنقلوا بكل سهولة إلى مشروع لتأسيس جمهورية عالمية من المساواة والحرية والعدل.

ولم يفعل كوزيمو إذن أثناء انضمامه إلى الماسونية شيئًا سوى تكرار ما سبق وفعله في الجماعات السرية أو شبه السرية التي شارك فيها من قبل. وعندما وصل شخص يدعى لورد ليفربوك، مبعوثًا من المحفل العظيم للندن لزيارة الإخوة في القارة، وصل إلى أومبروزا عندما كان أخي هو «المعلم»، وشعر بالإهانة من عدم التزامه بالطقوس، إلى حد أنه كتب إلى لندن عن أن محفل أومبروزا لا بد وأنه نوع جديد من الماسونية الاسكتلندية، التي يمولها ستيوارت لتقوم بالدعاية ضد عرش الهنوفر وذلك لاستعادة المذهب اليعاقبي.

وبعد ذلك حدث ما قد حكيت عنه عن المسافرين الإسبانيين، والذين قدما أنفسهما على أنهما ماسونيان إلى بارتولوميو كافاميا. وعندما دعوهما إلى أحد اجتماعات المحفل وجدا كل شيء عاديًّا، بل قالا إنها تشبه تمامًا ماسونية شرق مدريد، وذلك ما جعل كوزيمو، والذي يعرف أي جزء من الاجتماع من إبداعه، يشك في هويتيهما؛ ولذلك أخذ يتتبع آثار هذين الجاسوسين، وكشف عن حقيقتهما، وانتصر على عدوه القديم دون سولبيتشو.

على كل حال، أنا أعتقد أن هذه التغييرات في الطقوس الليتورجية نبعت من احتياج شخصي، لأنه فيما يتعلق بكل المهن، فقد تبنى بالفعل الرموز الخاصة بها، فيما عدا تلك الخاصة بالبنائين، نظرًا إلى أنه لم يرغب قط في البناء، ولا في السكن في منازل مبنية بالطوب.

٢٦

تميزت أومبروزا أيضًا بأنها أرض مزارع الكرم. ولم أُبرز هذا قط من قبل لأنني باتباع كوزيمو اضطررت أن أمكث دائمًا بجوار الأشجار ذات السيقان المرتفعة. ولكن لدينا مساحات شاسعة من منحدرات العنب، وفي شهر أغسطس، وأسفل أوراق الأشجار المصفوفة ينتفخ العنب الأحمر في عناقيد بعصير كثيف له بالفعل لون النبيذ، بعض الكروم في تكعيبات. أقول هذا أيضًا لأن كوزيمو قد أصبح، بتقدمه في السن، صغير الحجم وخفيفًا إلى حد أنه تعلم جيدًا فن السير بلا وزن، حتى إن دعامات التكعيبات كانت تحمله. وهكذا استطاع السير فوق الكروم، وذلك بالاستعانة بأشجار الفاكهة حولها، ومستندًا على نوع معين من الدعامات، يستطيع أداء أعمال كثيرة مثل التشذيب في الشتاء، عندما تصبح الكروم عارية متشابكة حول الأسلاك الحديدية، أو ينزع الأوراق الزائدة عن الحد في الصيف، أو يبحث عن الحشرات، ثم في شهر سبتمبر يساعد في الحصاد.

في يوم الحصاد، يذهب كل سكان أومبروزا في الصباح إلى الكروم، وبين اللون الأخضر لصفوف الأشجار لا تظهر سوى التنورات ذات الألوان الزاهية والقبعات ذات السموط. ويحمل البغالون سلالًا كبيرة مليئة فوق الرحل ويفرغونها في أوعية خشبية كبيرة لعصرها، وسلالًا أخرى يأخذها جباة مختلفون يأتون ومعهم فرق من الجنود ليراقبوا حصص نبلاء المنطقة، وحصص حكومة جمهورية جنوة، وحصص الكهنة، وعشرات الجباة. وفي كل عام يحدث بعض المشاحنات.

ومشكلات حصة المحصول التي توزع يمينًا ويسارًا، هي موضوع الاعتراضات الرئيسية في «كراسات المظالم» عندما حدثت الثورة الفرنسية. وأخذوا يكتبون هنا أيضًا في أومبروزا، فقط لمحاكاة التجربة، حتى وإن كان ذلك لا يفيد في أي شيء. وكانت تلك أحد أفكار كوزيمو، والذي في ذلك الوقت لم يعد بحاجة لأن يذهب إلى اجتماعات المحفل ليتناقش

مع أولئك الماسونيين الفارغين والفاشلين. اعتاد أن يقف فوق أشجار الميدان ويتجمع حوله الناس كلهم، من الميناء ومن الحقول، ليشرح لهم الأخبار، لأنه يتسلم المجلات بالبريد، بل ولديه بعض الأصدقاء الذين يكتبون إليه، ومنهم بايلي الفلكي، والذي أصبح بعد ذلك عمدة باريس، وأعضاء آخرون. وفي كل لحظة تصل أخبار جديدة؛ أخبار عن جاك نيكر، وعن الباستيل، وصالة التنس الملكي للقاءات السرية، ولافاييت بالحصان الأبيض، والملك لويس وهو يرتدي زي التابع. يشرح كوزيمو ويمثل لهم كل شيء وهو يقفز من فرع إلى آخر، وعلى أحد الفروع يمثل دور ميرابو في المحكمة، وعلى آخر جان بول مارا أمام اليعاقبة، وعلى فرع ثالث الملك لويس في فرساي، ويضع القبعة الحمراء على رأسه ليرضي الرفاق القادمين سيرًا على الأقدام من باريس.

وليشرح لهم معنى «كراسات المظالم» قال كوزيمو: لنجرب أن نصنع واحدة بأنفسنا. أخذ كراسة مدرسية وعلقها بدبوس على إحدى الأشجار، ويذهب كل منهم ليكتب ما يسوءه من الأمور. وبدأت تظهر أشياء من كل نوع: تحدث السماكون عن أسعار السمك، والكرامون عن العشور، والرعاة عن حدود المراعي، وعمال الغابة عن غابات المقاطعة، ثم كتب أيضًا كل من لهم أقارب في السجن، أو أقارب أولئك الذين حُكم عليهم بالشنق لجريمة ما، وأولئك الذين يكرهون النبلاء بسبب مشكلات لها علاقة بالنساء، ولم ينته ما لديهم قط. وفكر كوزيمو أنها حتى وإن كانت «كراسات المظالم» فليس حسنًا أن تحتوي على كل هذا الحزن. وفكر في أن يطلب من كل منهم أن يكتب عن أكثر شيء يعجبه. ومن جديد بدأ كل منهم يكتب عما يعجبه؛ فهناك من كتب عن خبز الفوكاتشا، وعن الحساء؛ ومن يحب شقراء، ومن كان يحب خمراوين؛ ومن يحب أن ينام طوال النهار، ومن يحب أن يذهب بحثًا عن عش الغراب طوال السنة، ومن يريد أن تكون لديه عربة يجرها أربعة أحصنة، ومن سيكتفي بمعزة، ومن يريد أن يرى أمه التي ماتت، ومن يرغب في لقاء آلهة أوليمبيا، أي أن كل ما هو حسن وجيد في العالم كتبوه على الكراسة، أو قاموا برسمه؛ لأن كثيرًا منهم لم يعرفوا الكتابة، أو حتى صوروه بالألوان. وكوزيمو أيضًا كتب فيها اسمًا: فيولا. وهو الاسم الذي ظل لأعوام يكتبه في كل مكان. وهكذا أصبحت كراسة جميلة أطلق عليها كوزيمو اسم «كراسة الشكوى والرضا». ولكن عندما امتلأت لم تكن هناك جمعية يمكنهم إرسالها إليها، وهكذا بقيت في مكانها، معلقة على الشجرة بدبوس، وعندما عادت الأمطار بقيت الكراسة هناك لتمحو الأمطار وتشوه ما بها، وسبب رؤيتها الحزن لدى أهل أومبروزا على حاضرهم البائس، وسيطرت عليهم الرغبة في الثورة.

على كل حال، كانت لدينا نحن أيضًا كل أسباب الثورة الفرنسية، ولكننا لسنا في فرنسا، ولم تحدث لدينا ثورة. فنحن نعيش في بلد تتحقق فيه الأسباب فقط وليس الآثار المترتبة عليها.

ولكن في أومبروزا حدثت، بالمثل، أحداث جسام. فقد حرك الجيش الجمهوري جيشه بالقرب من جند الجيش النمساوي الساردي. كان ماسينا في جبل كولاردينته، ولاهارب على نهر نيرفيا، وموريه على طول الساحل، مع نابليون الذي كان في ذلك الوقت مجرد جنرال مدفعية، وهكذا ذلك الدوي الذي نسمعه يصل إلى أومبروزا مع الرياح من حين لآخر، كان من صنيعه.

وفي سبتمبر جاء الاستعداد للحصاد. وبدا أنه الاستعداد لشيء سري وبشع.

كانت الجماعة السرية تنتقل من منزل إلى آخر: لقد نضج العنب!

– نضج! بالفعل!

– بل هو أكثر من ناضج الآن! سنذهب لنجمعه!

– سنذهب لعصره!

– سنكون جميعًا هنا! أنت أين ستكون؟

– على الكرم القريب من الجسر. وأنت؟ وأنت؟

– لدى الكونت بينيا.

– وأنا في كرم الطاحونة.

– هل رأيت عدد العساكر؟ يبدون كطيور شحرور اقتربت لتنقر العناقيد.

– ولكنها لن تنقر شيئًا هذا العام!

– فإذا كثر عدد الشحارير سنصبح جميعًا صيادين!

– يوجد من لا يريد أن يظهر، ويوجد من يهرب.

– كيف أن الحصاد هذا العام لم يعد يعجب الكثيرين؟

– كنا نريد أن نؤجله، ولكن الآن نضج العنب!

– أجل نضج!

وفي اليوم التالي بدأ الحصاد صامتًا. الكروم مكتظة بالناس يقفون في سلاسل على طول صفوف الأشجار، ولكن لم ترتفع أية أغنية، فقط بعض النداءات المنتشرة، وصراخ: هل أنتم أيضًا هنا؟ لقد نضج! حركة فرق، شيء عابس، ربما أيضًا من السماء، والتي لم تكن مغطاة تمامًا بالسحب، ولكنها كئيبة بعض الشيء، وإذا حاول صوت أن يبدأ في أغنية

يبقى دائمًا وحيدًا، ولا يستقبله الكورال، يأخذ البغالون السلال الكبيرة المعبأة بالعنب إلى أوعية العصر. اعتادوا، في البداية، إعداد الجزء الخاص بالنبلاء وبالأسقف وبالحكومة، أما هذا العام فلم يحدث هذا، وبدا كأنهم نسوا هذا الأمر. أما الجباة الذين أتوا لجمع العشور فكانوا عصبيين، ولم يعرفوا ماذا يفعلون، وكلما مر الوقت دون حدوث شيء، كلما فُهم أكثر أن شيئًا ما لا بد سيحدث، وأدرك العسكر أن عليهم التحرك، ولكنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون.

أما كوزيمو فبخطواته الخفيفة كالهرة اعتاد أن يسير وسط التكعيبات. ومعه مقصه في يده يقطع عنقودًا هنا وآخر هناك بلا نظام، يقذف بها بعد ذلك لجامعي أو لجامعات الحصاد في أسفل وهو يقول شيئًا بصوت منخفض لكل واحد منهم.

لم يستطع قائد العسكر أن يتحمل أكثر من ذلك وقال: حسنًا، وهكذا إذن، فلنرَ الآن تلك العشور! وبمجرد أن قال ذلك شعر بالندم الشديد. فلقد تصاعد من وسط الكروم صوت كئيب بين الدوي والأزيز؛ كان أحد الحصادين ينفخ في قوقعة مثل البوق، وأخذ ينشر صوت تحذير في كل الأودية. ومن كل جانب أخذت الأصوات المتشابهة تتصاعد، ورفع حصاد الكرم القواقع كالأبواق، وكوزيمو أيضًا من فوق التكعيبة.

ثم بدأت أغنية تتصاعد من بين صفوف الأشجار. في البداية متقطعة، غير منغمة، ولم يكن مفهومًا ماذا كانت. ثم بدأت الأصوات تُفهم، ثم تنغم وتصدع، وأخذوا يغنون وكأنهم يجرون بسرعة، بينما الرجال والنساء واقفين بثبات مختبئين تقريبًا وسط صفوف الأشجار، وبدا أن الأعمدة والكروم والعناقيد تجري جميعًا، وأن العنب يحصد نفسه، ويلقي بنفسه داخل الأوعية، بل يعصر نفسه، وأصبح الهواء والسحب والشمس كله مختمرًا، وبالفعل بدأت الأغنية تتضح. في البداية النغمات الموسيقية، ثم بعد ذلك عبارة بالفرنسية كانت تحاكي صيحة الثورة الفرنسية: سنفوز! سنفوز! سنفوز! وبدأ الشباب يسحقون العنب بأقدامهم العارية والحمراء، سنفوز! والفتيات يضربن بالمقصات الحادة وكأنها خناجر تنغرس في النباتات الخضراء جارحة الوصلات المعوجة للعناقيد، سنفوز! والبعوض كالسحب يغزو الهواء فوق أكوام العنب المُعد للعصر، سنفوز! وعندئذٍ حاول العسكر السيطرة على الموقف: أنتم هناك فوق! اصمتوا! يكفي هذا! من سيغني سنطلق عليه النيران! وأخذوا يطلقون طلقات في الهواء! وأجابهم قصف بنادق، حتى بدا أنه قادم من جيوش محتشدة للحرب فوق التلال. أخذت كل بنادق الصيد في أومبروزا في الانفجار، وكوزيمو فوق قمة شجرة تين مرتفعة ينفخ بكل طاقته في البوق. وأصبحت هناك حركة بشرية في كل الكرم. ولم يعد أحد يفهم هل هي حركة الحصاد أو كانت خليطًا: رجال

وعنب، نساء وأغصان كرمة، مناجل وأوراق، وبنادق، سلال وخيول، وأسلاك وكلمات، ركلات بغال، سيقان ونهود والكل يغني: سنفوز!

– إليكم عشوركم!

وانتهى الأمر بأن حشروا العساكر والجُباة من رءوسهم في الأوعية الخشبية المليئة بالعنب، وأرجلهم تتدلى منها وهي تركل. وعادوا أدراجهم دون أن يجبوا أي شيء، ملوثين من رءوسهم إلى أقدامهم بعصير العنب.

واستمر الحصاد وكأنه العيد، واقتنع الجميع أنهم قضوا على المميزات الإقطاعية. وفي ذلك الوقت تحصنَّا نحن النبلاء القدامى والجدد في قصورنا مسلحين ومستعدين للدفاع عن أنفسنا (واكتفيت أنا بألا أطأ خارج المنزل، وخاصة حتى لا يقول النبلاء الآخرون إنني كنت متفقًا مع أخي ذلك الشرير، والذي اعتبروه أسوأ المحرضين واليعقوبيين والموالين للثورة في المنطقة كلها). ولكن في ذلك اليوم الذي طردوا فيه الجُباة والقوات لم يُمَس أي شخص بسوء.

وانهمكوا جميعًا في الإعداد للاحتفالات، وأقاموا أيضًا شجرة الحرية، ليتبعوا الموضة الفرنسية، إلا أنهم لم يعرفوا كيف صُنعت تلك الأشجار، ثم إن الأشجار لدينا كانت كثيرة جدًّا، ولم يكن الأمر يستحق وضع شجرة صناعية. وهكذا زينوا شجرة دردار طبيعية بالزهور وعناقيد العنب والشرط المزخرفة وكتبوا عليها: «تحيا الأمة العظيمة!» وفي أعلى قمة الشجرة وقف أخي وهو يرتدي قبعته الثلاثية فوق القبعة المصنوعة من فراء القط، وهو يلقي عليهم بخطبة عن روسو وفولتير، والتي لم يسمع أحد منها كلمة واحدة؛ لأن الشعب كله أسفل الشجرة كان يرقص وهو يغني: سنفوز!

لم يستمر فرحهم طويلًا؛ فقد أتت قوات مسلحة من جنوة للحصول على العشور ولضمان المحافظة على حياد المنطقة، وأتت معها قوات من نمسا-ساردينيا لأن الإشاعات انتشرت بالفعل عن أن يعاقبة أومبروزا يريدون إعلان الانضمام إلى «الأمة العظيمة الكونية» أي إلى الجمهورية الفرنسية. حاول الثوار المقاومة، وبنوا بعض المتاريس، وأغلقوا أبواب المدينة ... ولكن هيهات، فالأمر يتطلب شيئًا آخر! فلقد دخلت القوات المدينة من كل الجهات، ووضعوا مناطق تفتيش في كل طرق الحقول، وأولئك الذين حملوا لقب المحرضين ألقوا بهم في السجن، ما عدا كوزيمو، الذي شكلت عملية القبض عليه صعوبة كبيرة، وقلة أخرى معه.

وتمت محاكمة الثوار علنًا، ولكن استطاع المتهمون إثبات أنه لا دخل لهم، وأن القادة الحقيقيين هم من استطاعوا الفرار، وهكذا تم الإفراج عن الجميع. ثم إنه مع وجود كل

تلك القوات المحتشدة في أومبروزا لم يعد أحد يخشى أية اضطرابات أخرى. ومكثت أيضًا في أومبروزا حامية عسكرية من جيش النمسا وساردينيا ليحموا أنفسهم من أية احتمالات لتوغل العدو، يقودهم زوج أختنا باتيستا ديستوماك والذي هاجر من فرنسا تابعًا لكونت بروفنسا.

وهكذا وجدت أختنا باتيستا معي. وأترك لكم تخيل مدى سعادتي بهذا. فلقد مكثت معي في المنزل مع زوجها الضابط، وخيولهم، وقوات الأمن. وكنا نمضي الأمسيات وهي تحكي لنا عمليات الإعدام الأخيرة في باريس؛ بل أحضرت معها نموذجًا مصغرًا من المقصلة، بنصلٍ حقيقي، وأخذت تشرح لنا نهاية أصدقائها وأقاربها الذين قُبض عليهم، بأن تقطع رءوس أبو بريص، والحرباء والديدان والفئران.

وهكذا كنا نقضي سهراتنا، وأنا أحقد على كوزيمو الذي يعيش أيامه ولياليه في الأدغال، مختبئًا في غابة لا يعرفها أحد.

٢٧

حكى كوزيمو كثيرًا عن المغامرات التي قام بها في الغابات في أثناء الحرب، مغامرات لا يصدقها عقل، ومن الصعب علي تفضيل رواية منها عن الأخرى. لذلك أترك الكلمة له، ناقلًا بأمانة بعض ما حكاه:

في الغابة تخاطر فرق المستكشفين من الجيشين المتنازعين بالخروج للاستكشاف. ومن فوق الفروع ومع كل خطوة أسمعها تدوي بين الحشائش، أنصت لأعرف هل هي فرقة تابعة للنمساويين أم للفرنسيين.

رأيت ملازمًا صغيرًا نمساويًّا، أشقر جدًّا يقود فرقة جنود يرتدون حللًا عسكرية رائعة بذيل الحصان والفيونكة، القبعة الثلاثية وحذاء الفرسان، بالأحزمة البيضاء المتقاطعة، بالبندقية والحربة، ويجعلهم يسيرون في صف من اثنين، محاولًا أن يحافظ على نظامهم في تلك المدقات الخربة. ونظرًا إلى أنه يجهل طبيعة الغابة، لكنه واثق من تنفيذ الأوامر التي لديه بدقة، أخذ يتقدم تبعًا للخطوط المرسومة على الخريطة، متخبطًا باستمرار في الجذوع، مسقطًا فرقته بأحذيتهم المدببة على أحجار ملساء، أو متسببًا في إيذاء عيونهم بالأشواك، ولكن كل هذا وهو لا يزال واثقًا من تفوق الأسلحة الإمبراطورية.

أتى جنود رائعون، انتظرتهم في الممر مختبئًا على شجرة صنوبر. وبيدي ثمرة صنوبر تزن أكثر من نصف كيلو، وتركتها تسقط على رأس آخر جندي في الصف، ففرد الجندي ذراعيه، وثنى ركبتيه وسقط بين نباتات السرخس في الغابة السفلية. لم يلحظ أحد ما حدث، واستمرت الفرقة في السير.

لحقت بهم ثانية. وفي هذه المرة ألقيت بقنفذ ملتف على عنق جندي عريف، فأحنى العريف رأسه، وسقط مغشيًّا عليه. ولكن هذه المرة لاحظ الملازم ما حدث، أرسل رجلين ليحملاه على نقالة، واستمر في التقدم.

وكانت الفرقة العسكرية، وكأنها متعمدة، تدخل نفسها في المصاعب في أكثر مناطق الأحراش الوعرة في الغابة كلها. وتنتظرها في كل مرة مأساة جديدة. جمعت في كيس نوعًا من الشرنقات الكثيفة الشعر زرقاء اللون، والتي بمجرد لمسها ينتفخ الجلد أسوأ مما يحدث عند الإصابة بمرض الجدري، وقذفت فوقهم بالمئات منها، مرت الفرقة، ثم اختفت بين الأشجار الكثيفة، وظهرت من جديد، وكل منهم يحك بيديه وجهه المليء بالدمامل الحمراء، واستمرت الفرقة في التقدم.

يا لها من فرقة رائعة، ويا له من قائد عظيم. كل ما في الغابة غريب جدًّا بالنسبة إليهم، ولم يكن في استطاعتهم تمييز الأشياء غير المعتادة، واستمروا في طريقهم مع كل المؤثرات المهلكة، ولكنهم مع ذلك كانوا فريقًا فخورًا ولا يمكن إخضاعه. عندئذٍ لجأت إلى عائلة من القطط البرية؛ ألقيها من ذيلها بعد أن أكون قد أدرتها قليلًا في الهواء، وهو شيء يثير غضبها الشديد إلى أبعد حد. بعد ذلك، حدثت جلبة شديدة، وخاصة من السنور، ثم الصمت والهدوء. أخذ النمساويون يضمدون جراحهم. واستأنفت الفرقة، بعد أن ابيض لونها بسبب الضمادات، السير من جديد.

قلت لنفسي: «الحل الوحيد في هذه الحالة هو أن يتم أسرهم.» وتعجلت لأتقدمهم محاولًا أن أجد فرقة فرنسية لأعلن لها عن اقتراب الأعداء. ولكن لفترة طويلة لم يظهر للفرنسيين أي أثر على تلك الجبهة.

وبينما أعبر بعض المناطق المليئة بالطحالب، رأيت شيئًا ما يتحرك. توقفت وأنصتُّ، كان يُسمع صوت خشخشة في المياه، والذي أخذ يتضح في نوع من الهذيان المستمر، ثم استطعت تمييز بعض الكلمات بالفرنسية مثل: ولكن ... إذن ... لتخدعني إذن ... ماذا ... وبتدقيق النظر في الظلال رأى أن ذلك السقف النباتي كان مكونًا قبل كل شيء من معاطف من الفرو يغطيها الشعر وشوارب ولحى كثيفة. كانت كتيبة من الجنود الفرنسيين. وبسبب ابتلالهم من الرطوبة في أثناء الحملات الشتوية نمت بين شعورهم الفطريات والطحالب.

كان يقود الكتيبة الملازم أجريبا بابيون، من روون، وهو شاعر ومتطوع في الجيش الجمهوري. ونظرًا إلى اقتناعه بطيبة الطبيعة بصورة عامة، لم يرغب الملازم بابيون في أن يهز الجنود ثمار الصنوبر، أو الكستناء أو الأغصان الصغيرة وأوراق الأشجار، أو الحلزونات التي تلتصق بهم في أثناء عبورهم الغابة. وبدأت الفرقة الاندماج بشدة في الطبيعة المحيطة بها إلى حد أنه لزم بالفعل عينٌ مدربة مثل عيني لتدرك وجودها.

يخيم القائد الشاعر في العراء وسط رجاله، وشعره الطويل، الملفوف والذي يحيط بوجهه النحيف تحت القبعة العالية، وينشد للغابات: آه أيتها الغابة! يا أيها الليل! ها أنا

ذا خاضع لكم! هل يمكن غصنًا رفيقًا من أغصان الكزبرة، والذي يشد بقوة على كعوب أولئك الجنود الشجعان أن يوقف إذن مصير فرنسا؟! آه يا فالمي! كم أنتِ بعيدة!

عندئذٍ قلت: معذرة أيها المواطن.

– من؟ من هناك؟

– أنا مواطن من هذه الغابات أيها المواطن الضابط.

– آه، هنا! أين أنت؟!

– فوق أنفك تمامًا، أيها المواطن الضابط.

– أرى! من هناك؟ رجل، طائر، ابن طائر الخطَّاف! ربما أنت إذن أحد المخلوقات الأسطورية؟!

– أنا مواطن من روندو، وابن آدميين، أؤكد لك، سواء من جهة الأب أو من جهة الأم، أيها المواطن الضابط. بل، كانت أمي جندية شجاعة في فترة حروب الخلافة.

– أفهم. آه يا لها من أزمنة، يا له من مجد. أصدقك أيها المواطن، وأنا في غاية التشوق للاستماع إلى الأخبار التي يبدو أنك جئت لتبلغني إياها.

– توجد فرقة نمساوية على وشك التغلغل في خطوطكم.

– ماذا تقول؟ آه إنها المعركة! حانت الساعة إذن! آه أيها النهر أيها النهر الوديع، ها أنت بعد قليل ستُصبغ بالدماء! هيا! إلى الأسلحة!

وبمجرد أن أصدر القائد أوامره بدأ الجنود يجمعون أشياءهم وأسلحتهم، ولكنهم بدءوا يتحركون بطريقة متهورة وخاملة، وهم يشدون أنفسهم، ويبصقون ويلعنون، حتى بدأت أقلق من جهة كفاءتهم العسكرية.

– أيها المواطن الضابط، هل لديك خطة؟

– خطة؟ أن نسحق الأعداء!

– نعم، ولكن كيف؟

– كيف؟ بتشكيل الحائط العسكري؟

– حسنًا، إذا سمحتم لي بأن أعطيكم نصيحة؛ ليبقَ الجنود ثابتين في أماكن متفرقة تاركين فرقة العدو تمر وتقع في الفخ بنفسها.

وكان الملازم بابيون رجلًا مريحًا ولم يعارض خطتي. وهكذا تبعثر الجنود الفرنسيون في الغابة، وبات من الصعب تمييزهم عن الأعشاب الخضراء، والأمر المؤكد أن الملازم النمساوي أبعد شخص يمكنه ملاحظة ذلك الفرق. فالفرقة العسكرية الإمبراطورية تسير

تبعًا للطريق المرسوم على الخريطة، وكل فترة يتصاعد صوت فجائي «إلى اليمين در!» أو «إلى اليسار در!» وهكذا مروا تحت أنف الجنود الفرنسيين من دون أن يدروا بذلك. أما الجنود فقد انتشروا في صمت مسببين فقط ضوضاء طبيعية مثل حفيف الأغصان، أو رفرفة الأجنحة، وانتشروا في مناورة إحاطة. ومن فوق الأشجار أخذت أشير لهم بصفير طائر الحجل، أو بصراخ البوم عن تحركات فرق الأعداء، وأقصر الطرق التي يجب أن يسيروا فيها. وهكذا وقع النمساويون، من دون أن يدركوا أي شيء، في الفخ.

– هناك فوق! باسم الحرية والأخوة والمساواة، أعلن أنكم جميعًا أسرى!

استمعوا فجأة لهذه الصرخة القادمة من فوق إحدى الأشجار، ثم ظهر لهم من بين الفروع ظل آدمي يلوح ببندقية ذات أنبوبة طويلة.

– هوررا! تحيا الأمة! وظهر من كل النباتات حولهم جنود فرنسيون، وعلى رأسهم الملازم بابيون. وتصاعدت لعنات نمساوية ساردينية، ولكن قبل أن يستطيعوا التصرف نُزعت أسلحتهم، وقام الملازم النمساوي، وهو شاحب الوجه، ولكن مرفوع الجبهة، بتسليم سيفه لزميله العدو.

وأصبحت بذلك معاونًا ثمينًا للجيش الجمهوري، ولكنني كنت أفضل أن أحصل على فرائسي وحدي، معتمدًا على مساعدة حيوانات الغابة، مثل المرة التي تسببت فيها بهرب طابور نمساوي بأن ألقيت عليهم عش دبابير.

وهكذا انتشرت شهرتي في المعسكر النمساوي الساردیني، وتضخمت إلى حد أنه قيل إن الغابة تكتظ باليعاقبة المسلحين المختبئين على قمة الأشجار. وفي أثناء تقدمهم تسترق الفرق الملكية والإمبراطورية السمع؛ وعند أول دوي لثمرة كستناء تُفرط لمرور قنفذ، أو لأقل صفير يطلقه سنجاب، يعتقدون أنهم محاطون بالفعل من اليعاقبة، ويغيرون اتجاههم. وبهذه الطريقة، وبمجرد أن أثير ضوضاء أو حفيفًا يكاد يُسمع، أجعل الفرق القادمة من بيمونتي ومن النمسا تنحرف عن طريقها، وأقودها حيث أريد.

وفي أحد الأيام قدت إحدى تلك الفرق إلى بقعة كثيفة مليئة بالأشواك، وتسببت في أن ضلت الطريق. وفي تلك البقعة توجد عائلة من الخنازير البرية، سبق وهربت من الجبال حيث دوي أصوات المدافع، وهبطت الخنازير في قطيع للاحتماء بالغابات السفلى. وفي حين يسير النمساويون الفزعون من دون أن يروا ما يوجد أمام أنوفهم، استيقظ فجأةً تحت أقدامهم سرب من الخنازير البرية الخشنة، وهو يصدر عواءً حادًّا. غرست الحيوانات أنفسها بين ركبتي كل جندي رافعة إياه في الهواء ثم أخذت تسحق الذين سقطوا بحوافها

الضخمة المدببة، ونشبت أنيابها في بطونهم. وهكذا هُزمت الفرقة المحاربة بتمامها. ومن فوق الأشجار، وبالاشتراك مع رفاقي، أخذنا نلاحقهم بطلقات من بندقياتنا. ومن منهم عاد إلى المعسكر حكى عن زلزال هز فجأة الأرض الشوكية تحت أقدامهم، وهناك من حكى عن معركة ضد عصابة من اليعاقبة الذين ظهروا من تحت الأرض، لأن هؤلاء اليعاقبة لم يكونوا سوى شياطين، نصف إنسان ونصف حيوان، يعيشون إما فوق الأشجار، وإما تحت الأعشاب.

وكما سبق وذكرت كنت أفضل تنفيذ ضرباتي بمفردي، أو مع تلك المجموعة الضئيلة من رفاق أومبروزا الذين فروا معي ولجئوا إلى الغابات بعد الحصاد. وأحاول أن أقلل من معاملاتي مع الجيش الفرنسي، لأن الجيوش معروفة، ففي كل مرة يتحركون يرتكبون الكوارث. إلا أنني تعلقت بالملازم بابيون قائد الكتيبة، وشعرت بالقلق قليلًا على مصيره. وفي الواقع، كان سكون الجبهة ذا تأثير مدمر في الفرقة التي يقودها الشاعر.

فلقد كانت الفطريات والطحالب تنمو فوق ملابس الجنود، وأحيانًا أخرى نباتات الخلنج والسرخس. وفوق قبعاتهم تصنع طيور النمنمة أعشاشها، أو تبرز وتزهر نباتات الزنبق، وأخذت أحذيتهم تلتصق بالأرض الزراعية في قاعدة متلاحمة، وكادت الفرقة كلها تمد جذورها في الأرض. فالاستسلام للطبيعة لدى الملازم أجريبا بابيون يتسبب في إغراق تلك المجموعة من الأبطال في خليط حيواني ونباتي. ولا بد إذن من إيقاظهم. ولكن كيف؟ واتتني فكرة، وتقدمت إلى الملازم بابيون لأقترحها عليه، بينما يخاطب الشاعر القمر.

– أيها القمر المستدير وكأنك فم اللهب، وكأنك قذيفة مدفع، والتي استنفذت من كثرة دفعها للبارود، تكمل سيرها الدائري الصامت بين السموات! متى تتفجر أيها القمر مسببًا سحابة أخرى من البارود والشرار مغرقًا جيوش الأعداء، والعروش، وفاتحًا أمامي ثغرة المجد في ذلك الحائط المتماسك من الأهمية الضئيلة التي يعطيها لي مواطن! آه يا روون! أيها القمر! أيها المصير! أيتها الأعراف! أيتها الضفادع! أيتها الفتيات الجميلات! آه يا حياتي!

وأنا: أيها المواطن …

أجاب بابيون، الذي تضايق من أنني أقاطعه دائمًا: بجفاء: ماذا إذن؟!

– أريد أن أقول أيها المواطن الضابط إنه توجد طريقة لإيقاظ رجالك من سباتٍ بات خطرًا عليهم.

– هذه إرادة السماء أيها المواطن. أنا كما ترى، أشتاق للحركة. وما يمكن أن تكون هذه الطريقة؟

– البراغيث، أيها المواطن الضابط.

– يؤسفني أن أخيب ظنك أيها المواطن، فإن الجيش الجمهوري ليس به براغيث، فلقد ماتت جميعها من الهزال بسبب قلة الغذاء وتعذر المعيشة.

– يمكنني إمدادك بها أيها المواطن الضابط.

– لا أعرف إذا كنت تتحدث بحكمة أو بجنون. على كل حال سأعرض الأمر على رؤسائي وسنرى. أيها المواطن، أشكرك لكل ما تفعله من أجل القضية الجمهورية! أيها المجد! يا روون! أيتها البراغيث! أيها القمر! وابتعد وهو يهذي.

عندئذٍ أدركت أنه عليَّ أن أتصرف بمفردي. استطعت الحصول على كمية كبيرة من البراغيث، ومن فوق الأشجار، وبمجرد أن أرى جنديًّا فرنسيًّا، ألقي عليه بواحدة بواسطة قوس، محاولًا أن أصيب الهدف الدقيق بأن ألقيها على عنقه. ثم بدأت أنشرها في كل المنطقة على دفعات. كانت مهامًّا غاية في الخطورة، لأنه إذا قبض عليَّ متلبسًا، لما شفعت لي شهرتي كمواطن بأي شيء؛ لأنهم بالتأكيد سيقبضون عليَّ وسينقلونني إلى فرنسا، ويقطعون رأسي بالمقصلة وكأنني أحد مبعوثي «بيت». إلا أن تدخلي أثبت أهميته؛ فلقد أشعلت قرصات البراغيث الحادة الحاجة الإنسانية والمتحضرة إلى الحك لدى الجنود، وإلى أن يفتشوا في ملابسهم ويزيلوا الحشرات؛ نزعوا ملابسهم المليئة بالفطريات وعرضوها للهواء، وحقائبهم وأحمالهم المغطاة بعش الغراب وأعشاش العنكبوت، واغتسلوا، وحلقوا شعورهم ولحاهم، وصففوا شعورهم، واستعادوا إدراكهم بإنسانيتهم الفريدة، وانتصر بداخلهم مفهوم الحضارة وأنقذهم من الغرق في الطبيعة البهيمية، بالإضافة إلى ذلك بدأ ينخزهم دافع للنشاط والحماسة والنضال، الذي نسوه منذ فترة.

ومن ثم تأهبوا بتلك الدفعة في لحظة الهجوم، وانتصرت الجيوش الجمهورية على مقاومة الأعداء، وعبروا الجبهة وتقدموا حتى وصلوا إلى انتصارات ديجو وميليزيمو.

٢٨

هربت أختنا والمهاجر ديستوماك من أومبروزا، تمامًا في الوقت المناسب قبل أن يقبض عليهما الجيش الجمهوري. وبدا سكان أومبروزا وكأنهم قد عادوا لأيام الحصاد. رفعوا شجرة الحرية، والتي كانت في هذه المرة تشبه كثيرًا النماذج الفرنسية، أي أنها تشبه كثيرًا شجرة الرخاء. أما كوزيمو، بلا شك، فقد تعلق عليها، وهو يرتدي القبعة فوق رأسه، ولكنه سرعان ما شعر بالتعب وابتعد.

وحول قصور النبلاء تصاعدت بعض الضوضاء والصرخات: لنقبض عليهم، لنقبض عليهم، إلى المنارة، سنفوز! وبالنسبة إلي، فنظرًا لأنني أخو كوزيمو، وأننا لم نصبح في عداد النبلاء إلا من وقت قريب، فقد تركوني في سلام، بل، بعد ذلك، اعتبروني مواطنًا (وهكذا عندما تغير موقفي من جديد وقعت في كثير من المشكلات).

وأسسوا مجلس البلدية، وعينوا العمدة، كل شيء على الطريقة الفرنسية، وعُين أخي في المجلس المؤقت، مع أن الكثيرين اعترضوا معتبرين إياه مختلًّا عقليًّا. بينما الذين ينتمون إلى النظام القديم يضحكون ويقولون إنه قفص للمجانين.

كانت جلسات المجلس تُعقد في القصر القديم لحاكم جنوة. ويقبع كوزيمو فوق شجرة خروب، على ارتفاع النافذة، ويتابع المناقشات. يتدخل أحيانًا في الحوار، ويدلي برأيه. وكما هو معروف، فإن الثوريين، أكثر تمسكًا بالشكليات من المتحفظين؛ ويجدون دائمًا ما يقولونه، مثل: إن هذا النظام لم يكن يصلح، وإنه يقلل من شأن المجلس، وهكذا. وعندما أقاموا جمهورية ليجوريا بدلًا من الجمهورية النخبوية لجنوة، لم ينتخبوا أخي مرة أخرى في الإدارة الجديدة.

وفي تلك الفترة كتب كوزيمو ووزع: مشروع دستور المدينة الجمهورية، مع إعلان لحقوق الرجال والنساء والأطفال، الحيوانات الأليفة والمتوحشة، العصافير والأسماك

والحشرات، والنباتات سواء ذات الساق الطويلة أو الخضروات أو الحشائش. عمل غاية في الجمال، يمكن أن يخدم في تحديد اتجاهات كل الحكومات؛ إلا أن أحدًا لم يضعه في الاعتبار، وظل خطابًا ميتًا.

ولكن كان كوزيمو ما زال يقضي أغلب وقته في الغابة، حيث الجنود المكلفون بالحفر في السلاح الهندسي للجيش الفرنسي يفتحون طريقًا لنقل المعدات الحربية. يختلف سلاح الحفارين تمامًا عن كل العسكريين الآخرين بلحاهم الطويلة التي تظهر من قبعاتهم العسكرية، ويضيعون أسفل ردائهم الفوقي المصنوع من الجلد. ربما يعود ذلك إلى أنهم لا يحملون خلف ظهورهم تلك الآثار المدمرة والخسائر التي تحملها فرق الجيش الأخرى، ولكن بالعكس، فلديهم ذلك الرضا عن الأشياء التي سيتركونها خلفهم والطموح لأن يصنعوها على أفضل وجه. ثم إن لديهم الكثير ليحكوه؛ فلقد عبروا أممًا كثيرة، وعاصروا الحصار والمعارك؛ بل إن بعضًا منهم رأوا أيضًا الأشياء العظيمة التي حدثت في باريس، إخلاء الباستيل والمقاصل. واعتاد كوزيمو قضاء أمسياته في الاستماع إليهم، فبعد أن يضعوا جانبًا الفئوس والمجارف يجلسون حول النيران وهم يدخنون الغليونات القصيرة، ويعيدون حرث الذكريات.

وفي الصباح يساعد كوزيمو عمال التخطيط على تحديد مسار الطريق. لم يكن هناك من هو أفضل منه يستطيع أداء ذلك؛ فهو يعرف كل الخطوات التي يمكن أن تمر منها طرق العربات بأقل خلل في المستويات، وبأقل خسائر للأشجار. والأهم في ذهنه، أكثر من الأسلحة الفرنسية، هي احتياجات السكان الذين ليست لديهم طرق في تلك المناطق. فعلى الأقل بهذا المشروع يمكن الاستفادة بشيء من عبور كل هؤلاء العسكر سارقي الدجاج؛ بأن يصنعوا طريقًا على نفقاتهم.

ولا بأس بذلك؛ ففي ذلك الوقت أصبحت الفرق المحتلة، وخاصة منذ أن تحولت من جمهورية إلى ملكية، مثيرة لاستياء الجميع. ويذهب الجميع ليفرجوا عما في نفوسهم مع الوطنيين: انظروا إلى أصدقائكم وما يفعلونه!

والوطنيون، وهم يفردون أذرعهم ويرفعون أعينهم إلى السماء، يجيبون بتنهد: جنود! نتمنى أن ينتهي كل هذا قريبًا!

كان جنود نابليون يستولون على الخنازير والأبقار من الحظائر، وحتى الماعز. أما بالنسبة إلى الضرائب والعشور فقد ازداد الأمر سوءًا، فلقد أضيف إليها التجنيد الإجباري. ولم يرغب أحد في منطقتنا أبدًا فهم فكرة التجنيد هذه؛ واختبأ الشبان الذين يتم استدعاؤهم في الغابات.

وحاول كوزيمو أن يفعل كل ما في استطاعته ليخفف من كل هذه الشرور؛ فأخذ يحرس الماشية في الغابة عندما يرسل بها المُلاك الصغار إلى الأدغال خوفًا من النهب؛ أو يقوم بحراسة العمليات السرية لنقل القمح إلى المطحن أو الزيتون إلى المعصرة؛ بحيث لا يقتطع منه جنود نابليون جزءًا، أو يرشد شباب المجندين إلى الكهوف التي يمكنهم الاختباء فيها في الغابة. أي أنه يحاول أن يدافع عن الشعب ويحميه من الجبروت، إلا أنه لم يقم قط بأي هجوم ضد القوى المحتلة، مع أنه في تلك الفترة بدأت تجول في الغابات عصابات مسلحة من «الملتحين»، والذين حولوا حياة الفرنسيين إلى جحيم. ونظرًا لأن كوزيمو عنيد فلم يكن يريد قط أن يكذب نفسه. ولأنه صادق الفرنسيين في البداية، استمر في التفكير أنه يجب أن يظل مخلصًا لهم، حتى وإن تغيرت أشياء كثيرة، وأصبح كل شيء خلاف ما هو متوقع. ثم يجب أيضًا أن ندرك أنه تقدم في السن، ولم يعد يهتم بعمل الكثير لأي من الطرفين.

ذهب نابليون إلى ميلانو لتتويجه، ثم قام ببعض الجولات في إيطاليا. وفي كل مدينة يستقبلونه بالاحتفالات ويصحبونه ليشاهد الأشياء النادرة والآثار. وفي أومبروزا وضعوا في برنامجه أيضًا زيارة إلى «المواطن الذي يعيش فوق الأشجار»، لأنه، كما يحدث عادة، لم يكن أحد منهم يهتم بكوزيمو، ولكنه كان مشهورًا جدًّا، وخاصة في الخارج.

ولم يكن لقاءً عاديًّا، فقد أُعد كل شيء مسبقًا من لجنة البلدية للاحتفالات ليقدموا شيئًا مُشرفًا، اختاروا شجرة جميلة؛ وأرادوا أن تكون شجرة بلوط، ولكن بدت شجرة الجوز أفضل، عندئذ، زودوا شجرة الجوز ببعض أوراق البلوط، ووضعوا فوقها شُرطًا عليها الألوان الثلاثة للعلم الفرنسي، وألوان لومبارديا الثلاثية، وألوان شعار الدولة وشُرط الاحتفالات وجعلوا أخي يقبع فوقًا، وهو يرتدي أفضل ملابسه، ولكن واضعًا فوق رأسه قبعة فراء القط، وفراء سنجاب على كتفيه.

وأعدوا كل شيء في العاشرة، واحتشد كثيرون في دائرة حول الشجرة، ولكن بالطبع حتى الساعة الحادية والنصف لم يكن نابليون قد ظهر، وبدأ أخي يشعر بالضيق الشديد، والذي بسبب تقدمه في السن بدأ يعاني من مشكلات في المثانة، واضطر أن يختبئ كل فترة خلف الجذع ليتبول.

ووصل الإمبراطور وخلفه جميع من يرتدون قبعات المراسم المتأرجحة على شكل الفلوكة.

انتصف النهار تمامًا، وفي حين ينظر نابليون إلى كوزيمو بين الفروع، تصيبه أشعة الشمس في عينيه. وبدأ يوجه إلى كوزيمو بعض عبارات الاحتفاء التقليدية: أعرف جيدًا أن

سيادتك أيها المواطن — ثم حاول أن يقي عينيه من الشمس بيديه — وسط الغابات — ثم قفز قليلًا لأن الشمس تضربه في عينيه تمامًا — بين الفروع المورقة ...

ثم قفز إلى الناحية الأخرى لأن كوزيمو في انحناءة يشير بها إلى موافقته كشف من جديد الشمس خلفه.

وعندما لاحظ كوزيمو قلق بونابرت سأله بأدب: هل أستطيع أن أفعل شيئًا لسيادتك، يا إمبراطوري العزيز؟

قال نابليون: نعم، نعم، حاول أن تمكث في مكانك قليلًا، أرجوك، لتقيني من أشعة الشمس، هكذا، تمامًا، ابقَ هكذا — ثم صمت وكأنه يفكر في شيء ما، وتوجه بالحديث إلى نائب الملك أوجينيو — كل هذا يذكرني بشيء ... بشيء رأيته من قبل ...

ساعده كوزيمو: لم تكن سيادتك يا جلالة الإمبراطور، بل كان أليساندرو مانيو.

قال نابليون: آه، ولكن بالتأكيد، لقاء أليساندرو وديوجين!

قال بوهارنيه: إنك لا تنسى أبدًا بلوتارك يا جلالة الإمبراطور!

وأضاف كوزيمو: إلا أنه عندئذ، كان أليساندرو هو من سأل ديوجين عن الشيء الذي يمكنه أن يقدمه له، ورجاه ديوجين أن يحميه ...

طقطق نابليون إصبعه وكأنه وجد أخيرًا العبارة التي يبحث عنها. تأكد بنظرة سريعة أن الحاشية تستمع إليه وقال، بلغة إيطالية ممتازة: إذا لم أكن الإمبراطور نابليون لكنت تمنيت أن أكون المواطن كوزيمو روندو!

ثم استدار وابتعد، تتبعه الحاشية وضوضاء المناخس العالية.

وهكذا انتهى اللقاء. وكنا نتوقع أنه خلال أسبوع سيصل إلى كوزيمو وسام شرف من الجيش، إلا أن هذا لم يحدث. ربما لم يعبأ أخي بأي شيء، ولكنه كان بالتأكيد شيئًا سيسعدنا نحن عائلته.

٢٩

سرعان ما يخبو الشباب على الأرض، فما بالكم إذن بالحال فوق الأشجار، حيث مقدر لكل شيء السقوط؛ الأوراق والثمار. شاخ كوزيمو، بعد كل هذه الأعوام، وكل تلك الليالي التي قضاها في الصقيع، معرضًا للرياح، والمياه، محتميًا بأسقف هشة، ودون أي شيء حوله، تحوطه الرياح بلا أي منزل، ودون أن يتمتع بالدفء، ولا بطعام ساخن …

شاخ كوزيمو وأصبح مُسنًّا منكمشًا، بقدمين معوجتين ويدين طويلتين وكأنه قرد، مُحدبًا معبأً في رداء من الجلد ينتهي بقلسنوة، وكأنه أخ راهب مُشعر. حرقت الشمس وجهه، وأصبحت تغطيه التجاعيد وكأنه ثمرة كستناء تظهر من بينها عينان فاتحتان مستديرتان.

كان جيش نابليون في بيريسينا قد غير من خط سيره، والفريق الإنجليزي أبحر متجهًا إلى جنوة، ونحن نقضي أيامنا في انتظار أخبار تلك التحولات.

لم يعد كوزيمو يظهر في أومبروزا، بل يقبع فوق شجرة صنوبر في الغابة، على حافة الطريق الذي سار فيه الجيش، حيث عبرت المدافع متجهة إلى مارينجو، وينظر تجاه الشرق، إلى الطرق المهدة التي فيها يتلاقى فقط الرعاة ومعهم الماعز أو البغال المحملة بالأخشاب. ماذا ينتظر يا ترى؟ نابليون، ورآه بالفعل، الثورة؛ عرف كيف انتهت، لم يكن هناك سوى الأسوأ ليتوقعه. إلا أنه ظل قابعًا في مكانه وعيناه ثابتتان، وكأنه بين لحظة وأخرى، فجأة، سيظهر الجيش الإمبراطوري، والذي ما زال مغطًّى بالمعاطف الجليدية الروسية، وبونابرت فوق سرجه، غير حليق ولحيته تتدلى على صدره، يعاني الحمى، وشاحب الوجه … وربما يتوقف تحت شجرة الصنوبر (وخلفه، صوت خطوات متعثرة مضطربة، واحتكاك حقائب وبنادق عند طرحها أرضًا، وجنود أضناهم التعب يخلعون أحذيتهم عند حافة الطريق، ونزع الضمادات عن الأرجل المجروحة) وربما يقول له: «كنت

محقًّا أيها المواطن روندو، أعطني مرة أخرى الدستور الذي أصدرته، أعطني مرة أخرى نصيحتك التي لم يرغب في الاستماع إليها الديكتاتور ولا المجلس ولا الإمبراطور؛ لنبدأ من جديد، لنرفع من جديد أشجار الحرية، ولننقذ الوطن الكوني!» بالتأكيد كانت هذه هي أحلام كوزيمو وآماله.

إلا إنه في أحد الأيام هلت من جهة الشرق ثلاثة وجوه تتقدم بصعوبة على مدق مخصص لأسلحة الجيش، أحدهم أعرج يستند إلى عكاز، والثاني وجهه مغطًّى بضمادات، أما الثالث فكان أصمَّهم، وليس لديه سوى ضمادة سوداء فوق إحدى عينيه. ظهرت من الأقمشة المقطعة التي يرتدونها، وخرق أربطة شد الأزرار تتدلى على صدورهم وقبعاتهم التي لم يعد فيها غطاء الرأس، إلا أن أحدهم احتفظ فوقها بريشة، وكانت أحذيتهم الطويلة ممزقة؛ أنها الأزياء العسكرية لجيش نابليون. ولكن لم تكن معهم أية أسلحة. يشهر أحدهم جراب سيف فارغًا وآخر يحمل على إحدى كتفيه مدفع بندقية وكأنه عصًا، ليرفع بها حزمة. يتقدمون وهم يغنون: من بلدي ... من بلدي ... من بلدي، وكأنهم ثلاثة سكارى.

– صرخ أخي: أنتم أيها الأغراب ... من أنتم؟!

– يا له من نوع طيور غريب! ماذا تفعل هنالك فوق؟ هل تأكل ثمار الصنوبر؟

وقال آخر: من يريد إعطاءنا ثمار الصنوبر؟ مع ذلك الجوع الشديد الذي نشعر به يريدنا أن نأكل ثمار صنوبر؟

– والعطش! العطش الذي نشعر به من أكل الجليد!

– نحن فرقة الجنود الثالثة للمشاة.

– بتمامها؟

– كل من تبقى منها!

– ثلاثة من ثلاثمائة؛ أليس هذا بقليل؟!

– بالنسبة إليَّ، لقد نجوت بحياتي، وهذا يكفي!

– آه، هذا لم يحدث حتى الآن، فلم تصل سليمًا إلى منزلك بعد!

– ليصيبك السرطان!

– نحن المنتصرين في الحرب مع النمسا!

– والمهزومون في فيلنا! يا للسعادة!

– قل لي، أيها الطائر المتكلم، اشرح لنا أين يمكن أن نجد حانة في هذه الأنحاء!

– لقد أفرغنا زجاجات نصف أوروبا، ولكن لا شيء يروي عطشنا!

– ربما لأننا أصبحنا مليئين بالثقوب من طلقات الرصاص، والنبيذ يتسرب من أجسادنا.

– لقد تغربلت أنت في ذلك المكان!

– حانة تسمح لنا باقتراض الشراب.

– وسنمر لندفع مرة أخرى!

– ليدفع نابليون!

– برررررر ...

– ليدفع القيصر! إنه قادم خلفنا، قدموا له هو الحساب.

قال كوزيمو: لا توجد حانات لبيع النبيذ في تلك الناحية، ولكن في الأمام يوجد مجرى ماء يمكنكم إرواء عطشكم.

– لتغرق أنت في هذا المجرى! يا وجه البومة!

– إذا لم أكن قد فقدت بندقيتي في فيستولا لأطلقت عليك الرصاص وشويتك على الشواية مثل السمان.

– انتظرا! سأذهب أنا إلى ذلك المجرى لأغسل قدمي، لأنها تحرقني ...

– بالنسبة إلي لتغسل فيه أيضًا مؤخرتك ...

إلا أنهم ذهبوا جميعًا إلى جدول المياه. ووضعوا أقدامهم بداخلها، وغسلوا وجوههم وملابسهم، وأخذوا الصابون من كوزيمو، والذي كان أحد أولئك الذين بتقدمهم في السن يصبحون غاية في النظافة، لأنه يصيبهم ذلك الاشمئزاز من أنفسهم والذي لم يشعروا به في شبابهم، وهكذا اعتاد كوزيمو أن يتجول دائمًا بالصابون. وقد أفاقت المياه الباردة الجنود الثلاثة من ثملهم. وبمجرد أن أفاقوا قليلًا انتهت سعادتهم، وشعروا بالاستياء من حالتهم، وأخذوا يتنهدون ويتألمون. ولكن في وسط ذلك الحزن، كانت المياه الباردة مصدرًا لسعادتهم وأخذوا ينشدون: من بلدي ... من بلدي ...

وعاد كوزيمو إلى مكان المراقبة على قمة الطريق، سمع لركض أحصنة، وإذا حشد صغير من الفرسان يثيرون سحابة من الأتربة كانوا يرتدون بدلًا عسكرية لم نرها من قبل، وأسفل قبعاتهم الثقيلة كانت تظهر وجوه شقراء، ملتحية، مسحوقة قليلًا، وعيونهم الخضراء. حياهم كوزيمو بقبعته: أية ريح طيبة جلبتكم إلى هنا أيها الفرسان؟

توقفوا: تحياتنا! قل لنا أيها المواطن، كم من الوقت يتبقى لنا لنصل!

قال كوزيمو، والذي كان قد تعلم قليلًا من كل اللغات، وأيضًا من اللغة الروسية: تحياتي أيها الجنود؛ كم من الوقت استغرقتم، لتصلوا إلى أين؟

– لنصل إلى حيث يصل هذا الطريق.

– آه، هذا الطريق، يصل إلى أماكن كثيرة ... أنتم إلى أين تذهبون؟

– إلى باريس.

– حسنًا! للوصول إلى باريس هناك طرق أسهل.

– لا لا، باريس، إلى فرنسا، إلى نابليون. إذن إلى أين يؤدي هذا الطريق؟

– إلى أماكن عديدة: أوليفاباسا، ساكوكورتو، ترابا ...

– ماذا؟ أليفياباسا؟ لا، لا.

– حسنًا، إذا أردت يمكن الذهاب أيضًا إلى مارسيليا.

– إلى مارسيليا ... نعم، نعم، مارسيليا ... فرنسا.

– ولماذا ستذهبون إلى فرنسا؟

– حضر نابليون ليحارب قيصرنا، والآن قيصرنا يطارد نابليون.

– ومن أين أتيتم؟

– كاركوفا، من كييف، ومن روستوفا.

– إذن فقد رأيتم مناطق جميلة! وهل تعجبكم منطقتنا أكثر أو روسيا؟

– أماكن جميلة، أماكن سيئة، إننا نحب روسيا.

ثم قفزة حصان، وتصاعد الكثير من الأتربة، وتوقف الحصان وكان يمتطيه ضابط أخذ يصرخ في أولئك: هيا! تقدموا! ما الذي يعرقلكم؟

– نحييك أيها المواطن — قال أولئك لكوزيمو — سننطلق.

واختفوا مبتعدين.

وتوقف الضابط عند جذع شجرة الصنوبر. طويلًا ونحيفًا، يبدو نبيلًا وحزينًا، كان يرفع رأسه العاري تجاه السماء الملبدة بالغيوم.

ثم قال لكوزيمو: صباح الخير يا سيدي، هل تعرف لغتنا؟

– أجل، صباح الخير أيها الضابط — أجابه أخي — ولكنني لا أجيدها إجادتك للفرنسية.

– وهل أنت من سكان تلك البلدة؟ هل عاصرت حكم نابليون؟

– أجل أيها الضابط.

– وكيف كانت الحال إذن؟

– أنت تعرف يا سيدي، فالجيوش تسبب عادة الاستياء، مهما حملت من أفكار!

– نعم، ونحن أيضًا نسبب كثيرًا من الاستياء، ولكننا لا نحمل أفكارًا!

بدا حزينًا وقلقًا مع كونه منتصرًا. شعر كوزيمو بالتعاطف معه، وأراد مواساته: ولكنكم انتصرتم!

– نعم، لقد حاربنا جيدًا، بل جيدًا جدًّا، ولكن ربما ...

وفجأة تصاعدت صرخات، وصوت طلقات، وتلاقي أسلحة.

– ما هذا؟!

قال الضابط.

عاد الجنود وهم يجذبون على الأرض بعض الجثث شبه العارية، ويحملون في أيديهم شيئًا ما، في يدهم اليسرى (كانت يدهم اليمنى تحمل الخناجر المقوسة، التي تقطر دمًا) وهذا الشيء، الرءوس الملتحية لأولئك الجنود السكارى: إنهم فرنسيون! أتباع نابليون! قتلناهم جميعًا!

أمرهم الضابط الشاب بجفاءٍ أن يأخذوهم بعيدًا، وأدار رأسه وتحدث مع كوزيمو: هل رأيت ... الحرب ... إنني منذ أعوام عديدة أقدم أفضل ما لدي لشيءٍ مرعب: الحرب ... وكل هذا بسبب مُثل، لا أعرف أنا نفسي كيف أشرحها!

أجابه كوزيمو: وأنا أيضًا، أعيش منذ أعوام كثيرة لأفكار مثالية لا أعرف كيف أشرحها حتى لنفسي؛ ولكنني أقوم بالفعل بشيء رائع حقًّا؛ فأنا أعيش بين الأشجار.

وتحول الضابط من حزنه إلى غضب، وقال: حسنًا، يجب أن أذهب — حياه تحية عسكرية — الوداع أيها السيد ... ما هو اسمك؟

– أنا البارون كوزيمو دي روندو — صرخ كوزيمو خلفه، إذ إنه ابتعد بالفعل — وما هو اسمك؟

– أنا الأمير أندريه!

ولم يسمح له صوت ركض الحصان بسماع لقبه.

٣٠

الآن لم أعد أعرف ماذا سيجلب علينا هذا القرن التاسع عشر الذي بدأ سيئًا ويكمل أيامه بطريقة أكثر سوءًا. غطت أوروبا ظلال الترميم؛ كل المجددين من اليعاقبة وأتباع بونابرت هُزموا، استعاد أتباع النزعة المطلقة واليسوعيون الميدان، وهلكت كل المثل العليا للشباب، وهلكت معها كل الأضواء وآمال عصرنا، وتحول كل شيء إلى رماد.

أعهد أنا بكل أفكاري إلى هذه الكراسة، لن أعرف أن أعبر عنها بطريقة أخرى، فلطالما كنت رجلًا هادئًا، ليست لدي أية نزوات أو شطحات، ربُّ أسرة ونبيل، تنويري في أفكاري، وأحترم القوانين. ولم يصبني قط أي شطط تاريخي بصدمات قوية، أتمنى أن يستمر الوضع بهذه الطريقة، ولكن بداخلي، شخص غاية في البؤس. في البداية اختلف الأمر في وجود أخي؛ كنت أقول لنفسي: «هو موجود، وهو يفكر في ذلك كله.» وأنا أهتم بأن أعيش. لم تكن علامة الأشياء المتغيرة بالنسبة إلي وصول النمساويين الروس، ولا الانضمام إلى البيومونته ولا الضرائب، أو أي شيء آخر، ولكن أنني لم أعد أراه عندما أفتح نافذتي وهو جالس يتأرجح. والآن، وبسبب عدم وجوده، يبدو لي أن عليَّ التفكير في أشياء كثيرة؛ الفلسفة والسياسة والتاريخ، أن أتابع الصحف، وأقرأ الكتب، وكاد رأسي ينفجر، ولكن الأشياء التي رغب هو في قولها ليست بداخلها، فقد كان هو يقصد شيئًا آخر، شيئًا ما يحتضن كل شيء، ولا يمكن التعبير عنه بالكلمات، ولكن فقط بالحياة كما عاش هو، فقط بأن يعيش حياته بتلك القسوة، كما كان موته. هكذا استطاع منح شيء ما لكل الناس.

أتذكر عندما صرعه المرض، أدركنا هذا لأنه أحضر مخدعه البائس فوق شجرة الجوز الضخمة في وسط الميدان. في البداية اعتاد أن يخفي دائمًا الأماكن التي ينام فيها، وذلك بغريزته البرية، والآن أصبح يشعر بالاحتياج إلى أن يصبح دائمًا على مرأى من الجميع. وآلمني ذلك كثيرًا؛ فكرت دائمًا أنه لا يجب أن يموت وحيدًا، وذلك الذي فعله بالفعل علامة

على ذلك. أرسلنا إليه بطبيب، فوق أحد السلالم. وعندما نزل عبر بوجهه عن الألم، وفرد ذراعيه.

صعدت إليه فوق السلم، وبدأت أقول له: كوزيمو، مضى من عمرك الآن خمسة وسبعون عامًا، كيف يمكنك الاستمرار فوق الأشجار؟ الآن وقد قلت بالفعل ما أردت قوله، وقد فهمناه، وأظهرت قوتك النفسية العظيمة جدًّا واستطعت تنفيذ ما قلته، الآن يمكنك النزول. حتى من يقضي عمره كله في البحار يرسو على الأرض عند بلوغه سن معينة.

ولكن هيهات. أشار بالرفض بيده، فلم يعد يتحدث تقريبًا، ينهض كل فترة وهو مغطًّى حتى رأسه، ويجلس على أحد الفروع يستمتع بحرارة الشمس. ولم يتحرك من مكانه. واعتادت امرأة عجوز من السكان، امرأة تقية (ربما كانت إحدى حبيباته في الماضي)، أن تذهب لتنظفه، وتحضر له الطعام الساخن. وتركنا السلم المصنوع من الحبال مستندًا إلى الجذع، لأنه أصبح دائمًا يحتاج إلى شخص ما ليصعد ويساعده، وأيضًا لأننا كنا نأمل أن يقرر بين لحظة وأخرى أن ينزل أرضًا (وهو شيء تمناه الآخرون، أما أنا فقد كنت أعلم كيف يفكر أخي). وحوله، في الميدان تتجمع دائمًا حلقة من السكان لتسليته، وهم يتحدثون فيما بينهم، وأحيانًا أيضًا كأنهم يوجهون إليه عبارات مضحكة، مع أن الجميع عرفوا بالفعل أنه لم تعد لديه رغبة في التحدث.

ازدادت حالته سوءًا، ووضعنا له فراشًا فوق الشجرة، استطعنا أن نصُفه بطريقة متوازية؛ ورقد هو عليه بكل سرور. وشعرنا قليلًا بالندم لأننا لم نفكر في هذه الفكرة قبل ذلك. في الحقيقة لم يرفض أساليب الراحة مطلقًا، فمع أنه يعيش فوق الأشجار، حاول دائمًا أن يعيش بأفضل طريقة ممكنة. عندئذٍ سارعنا بالبحث عن وسائل راحة أخرى. تحسنت حالته قليلًا، وأحضرنا له مقعدًا وثيرًا، وثبتناه بين فرعين، وأخذ يقضي أيامه فوقه وهو متدثر في أغطيته.

ولكن في صباح أحد الأيام لم نره فوق السرير ولا فوق المقعد، رفعنا عيوننا ونحن وجِلون، وجدناه صعد إلى قمة الشجرة، وجلس ممتطيًا فرعًا مرتفعًا جدًّا وهو يرتدي فقط قميصًا.

– ماذا تفعل فوقًا؟

لم يجب. كان متيبسًا تقريبًا، وبدا أنه جالس على الفرع ثابتًا بمعجزة. أعددنا ملاءة كبيرة من تلك التي نجمع فيها الزيتون، وأمسكها نحو عشرين منا لنفردها، لأننا توقعنا أن يسقط في أية لحظة. وفي ذلك الوقت صعد الطبيب إليه فوق، وكانت مسألة صعبة؛ إذ تطلب الأمر ربط سلمٍ في آخَر. نزل وقال ليذهب إليه الكاهن.

واتفقنا أن نحاول أن نرسل إليه كاهن اسمه دون باريكلي، أحد أصدقائه. كاهن دستوري من فترة الفرنسيين، وكان عضوًا في المحفل عندما سُمح بالأمر للكهنة، ومنذ فترة قريبة عاد إلى مهامه الكنسية في الأسقفية بعد الكثير من الكوارث. صعد إليه وهو يرتدي حلته الكهنوتية ومعه بيت القربان، وخلفه الشماس. مكث معه فوقًا قليلًا، وبدا كأنهما يتسامران، ثم نزل.

– إذن، هل تناول من الأسرار المقدسة يا دون باريكلي؟

– لا، لا، ولكنه يقول إن كل شيء على ما يرام، بالنسبة إليه كل شيء على ما يرام. ولم نستطع جعله يقول أكثر من ذلك.

وتعب الرجال المسكون بالملاءة، حيث مكث كوزيمو فوقًا ولم يتحرك. ازدادت الرياح، رياحًا ليبية حارة، وأخذت قمة الشجرة تتأرجح، وكنا نحن مستعدون. وفي السماء ظهر منطاد، حيث تقوم قوات الطيران الإنجليزية بتجارب الطيران فوق الساحل بالمنطاد. كان بالونًا جميلًا مزينًا بالشرط الملونة والفيونكات، معلقًا به مركب صغير من الصفصاف، وبداخله يقف ضابطان على أكتافهم رتب ذهبية، وقبعات المراسم المدببة الطرفين ينظرون بنظاراتهما المكبرة إلى المشاهد المحيطة. نظرا بنظاراتهما إلى الميدان، ورأوا الرجل الجالس فوق الشجرة والملاءة المفرودة، والجموع المحتشدة، منظر غريب.

كوزيمو أيضًا رفع رأسه إلى فوق، وأخذ ينظر باهتمام إلى البالون. عندئذٍ أصابت الرياح الساخنة أيضًا المنطاد وبدأ يجري أفقيًّا بفعل الرياح وكأنه اللعبة الدوارة، واتجه صوب البحر. وبسرعة، ودون أن ييأس الطياران حاولا أن يقللا — على ما أعتقد — من ضغط البالون، وفي الوقت نفسه أنزلا الهلب إلى أسفل محاولين التشبث بأي شيء. أخذ الهلب الفضي يتأرجح في السماء معلقًا بحبل طويل وهو يتبع بانحراف سير البالون، الذي مر في تلك اللحظة من فوق الميدان، تقريبًا على نفس ارتفاع قمة شجرة الجوز، حتى إننا خشينا أن يصطدم بكوزيمو، ولكننا لم نكن نستطيع افتراض ذلك الذي رأيناه بأعيننا بعد لحظة واحدة.

فقد قام كوزيمو المحتضر، في اللحظة التي مر فيها حبل الهلب بالقرب منه، بوثبة من تلك التي اعتاد القيام بها في شبابه، وتعلق بالحبل، وقدماه فوق الهلب، وجسده يلتف حوله، وهكذا رأيناه يطير مبتعدًا، تسحبه الرياح وهو يبطئ بالكاد سرعة البالون مختفيًا تجاه البحر.

ونجح المنطاد بعد أن عبر الخليج أن يرسو فوق الشاطئ الآخر. وليس به سوى الهلب معلقًا في الحبل. ولم يدرك الطياران، المنهوكان بشدة في المحافظة على اتجاه معين، أي شيء. ويُفترض أن الشيخ المحتضر اختفى أثناء الطيران فوق خليج المياه.

وهكذا اختفى كوزيمو، ولم يمنحنا حتى الرضا بأن نراه عائدًا إلى الأرض جثة هامدة. وعلى مقبرة العائلة يوجد شاهد قبر، كتبنا عليه «كوزيمو بيافسكو دي روندو، عاش فوق الأشجار، وأحب الأرض، وصعد إلى السماء.»

بين الحين والآخر أتوقف عن الكتابة وأذهب إلى النافذة. أصبحت السماء فارغة، وبالنسبة إلينا نحن سكان أومبروزا، والذين اعتدنا الحياة تحت تلك القباب الخضراء، يؤلم عيوننا كثيرًا رؤيتها هكذا. يُقال إن الأشجار لم تستطع الصمود بعد أن تركها أخي، أو إن الرجال أصابتهم حمى الفئوس. ثم تغيرت الأشجار؛ لم تعد هناك أشجار البلوط والدردار والبلوط الأسود، الآن أصبحت أشجار أفريقيا، وأستراليا والأمريكيتين، والهند، والتي تمر حتى هنا فروعها وجذورها. بقيت الأشجار القديمة في المنطقة المرتفعة، وفوق التلال بقيت مزارع الزيتون، وفي الغابات بقيت أشجار الصنوبر والكستناء. وفي أسفل تجاه الساحل أصبحت أستراليا حمراء مليئة بالكافور والفيكوس الضخمة، ونباتات حدائق ضخمة جدًّا ومنعزلة، والمساحة الباقية مليئة بالنخيل، بأوراقه المنفوشة، تلك الأشجار الصحراوية غير المضيافة.

لم يعد لأومبروزا وجود. عندما أنظر إلى تلك السماء الخالية أتساءل هل وُجدت حقًّا. هل وُجد في يوم ما ذلك التجمع من الفروع والأوراق، من الفلقات والفصوص، المتناهية الصغر، اللانهائية، والتي أظهرت فقط أجزاءً بسيطة، غير منتظمة ومتقطعة من السماء، ربما وُجدت فقط حتى يسير فوقها أخي بخطواته الخفيفة التي كانت تشبه خطوات العصفور، مثل تطريز مصنوع في اللاشيء، يشبه ذلك الخيط من الحبر الذي تركته ليجري من صفحة إلى أخرى يملؤها الشطب والإحالات، وعلامات العصبية، والبقع والثغرات، والذي أحيانًا ما ينفك في حبوب واضحة ضخمة، وأحيانًا ما يتكاثف في علامات صغيرة جدًّا وكأنها بذور مدببة. كان ذلك الخيط ينكمش أحيانًا على نفسه، وأحيانًا أخرى ينقسم إلى اثنين، يجمع أحيانًا أجزاء من العبارات وحولها يصنع الأوراق والسحب، ثم يتوقف، وبعدها يبدأ من جديد في لف نفسه، ثم يجري ويجري ويمتد، ليلف نفسه حول عنقود أخير لا معنى له من الكلمات والأفكار والأحلام، ثم ينتهي. (١٩٥٧م).

هنداوي